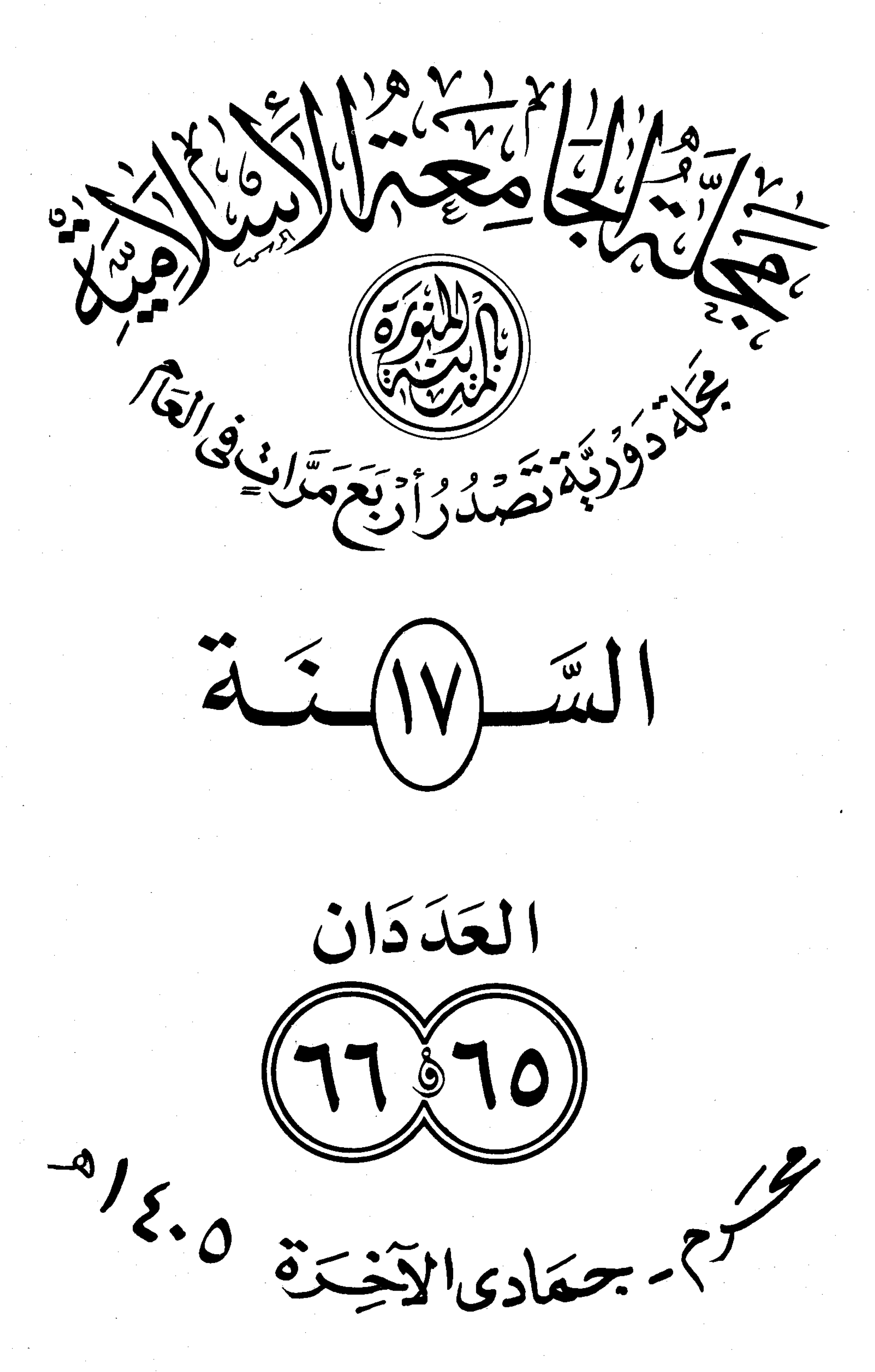

مجلة الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
مجلة دورية تصدر أربع مرات في العام
السنة ١٧
العددان
٦٥ و ٦٦
محرم - جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

هيئة التحرير

المراسلات: ترسل باسم مدير التحرير. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



محتويات العدد



ذم الفرقة والاختلاف

في الكتاب والسنة

للشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، الذي أنعم على عباده المؤمنين بالهداية والإعتصام بحبله المتين، وجمعهم على الحق، ووقاهم شر التشاحن، وذل التخاذل، ومنَّ عليهم بالإخاء والألفة، وجنبهم الإختلاف والفرقة.

أحمده أن هدانا لمعرفة الحق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله لبيان سبيله الموصلة إليه، والتحذير من سلوك سبل الضلال، فجمع به القلوب بعد الفرقة، وأعز به بعد الذلة صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا.

وبعد فإنه لا يستقيم للناس حال في دنياهم، ومآلهم إلا بالإتفاق، والإئتلاف وإجتناب التنابذ والإختلاف.

ولابد أن يكون الإجتماع والإتفاق على أمر عام، يشتركون في نفعه، ويؤملون جميعا عائدته وفضله، في عاجل أمرهم وآجله.

ولا يحصل الإتفاق الكامل، الذي تكون فيه المحبة والالفة، إلا مع إتفاق الدين، والعقيدة، فإذا كان الدين حقا، والعقيدة صافية من الشوائب، وسالمة من الإنحرافات، والغوائل فهناك يقوى الإتفاق ويتم، وتتأصل الرابطة، ويحصل البذل والإيثار، ولهذا أمر الله تعالى عباده بتقواه المستلزم لحصول الإيمان، وفعل المأمور، وإجتناب المحظور، ثم أمر بالإعتصام بحبله جميعا ونهى عن التفرق والإختلاف، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم،**

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين إسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾[1].

قال ابن جرير: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» المعنى وتعلقوا بأسباب الله جميعا، يريد بذلك أن تمسكوا بدينه الذى أمركم به، وعهده الذى عهده إليكم، في كتابه من الألفة والإجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله.

والإعتصام: هو الإمتناع بالشيء والإحتماء به، والعصم: هو المنع، فكل مانع شيئا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، ومن ذلك قول الفرزدق:

أنا ابن العاصمين بني تميم   إذا ما أعظم الحُدْثان نابا

والحبل: هو السبب الذى يوصل إلى المراد، ولذلك سمي الأمان حبلا، لأنه يوصل إلى زوال الخوف، والنجاة من الفزع والذعر، ومنه قول أعشى بني ثعلبه:

وإذا تُجوِّزها حبال قبيلة   أخذت من الأخرى إليك حبالها

ومن ذلك قول الله تعالى: **﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾**[2].

وقد فسر حبل الله بأنه الإجتماع على الحق.

وفسر بأنه القرآن، وعهد الله الذى عهده إلى عباده فيه.

وفسر بأنه التوحيد، وإخلاص العمل لله تعالى.

روى ابن جرير بسنده إلى ابن مسعود، قال: حبل الله الجماعة[3].

وروى عن قتادة قال: حبل الله المتين الذى أمر أن يعتصم به: هذا القرآن.

وكذا قال مجاهد، والضحاك وعطاء.

وروى عن ابن مسعود، قال: إن الصراط محتضر، تحضره الشياطين، ينادون: يا عبد الله هلم هذا الطريق، ليصدوا عن سبيل الله، فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله هو كتابه[4].

وقال مجاهد: حبل الله عهده وأمره.

---

(١) الايات من سورة آل عمران رقم: ١٠٢ - ١٠٧.

(٢) تفسير الطبري جـ ٧ ص ٧١ بتحقيق محمود شاكر ط المعارف.

(٣) تفسيرابن جرير جـ ٧ ص ٧١.

(٤) المصدر نفسه.

وفي مسند الإمام أحمد والترمذى قال: حسن غريب عن أبى سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض»[1].

وروى ابن جرير عن أبى العالية: قوله تعالى: ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا**﴾ قال: الإخلاص لله وحده[2].

وهذه الأقوال كلها حق، وليس فيها إختلاف، فحبل الله هو كتابه، ودينه وأمره الذى أمر به عباده، وعهد إليهم به، وهو الذى أمر بالإجتماع عليه، ونهى عن التفرق فيه.

والمقصود من ذلك كله أن يوحدوا الله تعالى بالطاعة والعبادة، ويخلصوا له العمل، والاعتصام بحبل الله يتضمن الإجتماع على الحق، والتعاون على البر والتقوى والتناصر على أعداء الله وأعداء المسلمين، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ولذلك بعد أن أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، وهو الإجتماع على دينه والإحتماء به، أكد ذلك بالنهي عن الفرقة، فقال تعالى: ﴿**ولا تفرقوا**﴾ قال ابن جرير: يعني ألا تفرقوا عن دين الله وعهده إليكم فى كتابه، من الإئتلاف والإجتماع على طاعة الله، وطاعة رسوله - ﷺ - والإنتهاء إلى أمره، ثم روى عن قتادة، قال: إن الله تعالى كره لكم الفرقة، وقدم إليكم فيها، وحذركموها، ونهاكم عنها ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة، فأرضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن إستطعتم، ولا قوة إلا بالله.

وروى عن ابن مسعود قال: يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذى أمر به، وان ما تكرهون فى الجماعة والطاعة هو خير مما تحبون فى الفرقة[3].

ومن الأمور المسلم بها أنه لابد للناس من أمر يجتمعون عليه، يحكم بين المختلفين ويفصل بين المتنازعين إذ الاختلاف من طبيعتهم، ولابد له ممن يلزم من يأبى ذلك، وينفذ الأحكام، حتى يأمن الناس على أنفسهم، وأموالهم، ويكون إتجاههم موحدا، كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه:

وما الدين إلا أن تقام شريعة ... وتأمن سبل بيننا وشعاب[4]

ولهذا إتفقت المجتمعات على إختلاف أديانها، ووجهاتها على وضع قانون يرجعون

---

(١) المسند جـ ٣ ص ٢٦، ٥٩، ١٤، ١٧ وانظر الترمذي جـ ٤ ص ٣٤٣.

(٢) تفسير الطبري جـ ٧ ص ٧٣.

(٣) ابن جرير جـ ٧ ص ٧٥.

(٤) نسبه شيخ الإسلام ابن تيمية إليه ولم أجده في ديوانه.

إليه عند الإختلاف، ويحكمونه عند المنازعات، فهو من الضروريات التى لا تصلح دنياهم إلا به.

ومعلوم أن الإنسان ظلوم جهول، فلابد أن يقع فى الجهل والظلم فى وضع القانون وغيره، ولذلك أنزل الله تعالى الشرائع من عنده، لتحكم بين العباد بالعدل وأوجب تعالى على عباده الرجوع إلى شرعه، عند الإختلاف، ليحكم بينهم فيما إختلفوا فيه، وجعل ذلك شرطا فى حصول الإيمان، فقال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**[1].

ثم لابد للمجتمع من رئيس مطاع، ذى قوة وسلطان حتى يقوم بتنفيذ شرع الله تعالى على من يَلْزَمُهُ الحكم ويأباه، أو يجهله، وأمر الله تعالى عباده أن يكونوا عونا له على ذلك، لأن هذا هو الذى تحصل به مصالح الدنيا والآخرة، وبدونه يعم الفساد والفوضى، والظلم، فلابد من إلزام الخلق بالحق، ومنعهم من الظلم والتعدي فى الدماء والأموال، والأعراض، وقطع السبل، وإلا فسدت الأمور، وانتهكت الأعراض، ونهبت الأموال، وسفكت الدماء.

ولابد من العدل فى ذلك، وهو الميزان الذى أنزله الله على رسله، قال تعالى: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾**[2] وقال تعالى: **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[3] وقال تعالى: **﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾**[4] وقد جاء عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا تزال هذه الأمة بخير ما إذا قالت صدقت، وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت»[5] ومفهوم ذلك أنها إذا لم تكن كذلك فهي فى شر. قال الحسن: «إن الله أخذ على الحكام ثلاثا، أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، وأن لا يشتروا بآياته ثمنا قليلا» قال تعالى: **﴿يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فأحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾**[6] وقال تعالى: **﴿فلا تخشوا الناس وأخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾**[7].

(١) الآية رقم: ٦٥ من سورة النساء.

(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل.

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء.

(٤) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام.

(٥) قال السيوطي رواه أبو يعلي والخطيب في المتفق والمفترق انظر الجامع الكبير المصور عن المخطوطة جـ ١ ص ٨٨٧.

(٦) الآية ٢٦ من سورة ص.

(٧) الآية ٤٤ من سورة المائدة.

والمقصود أن الله تعالى أوجب على المسلمين أن يجتمعوا على دين الحق الذى هو الإسلام وأن يعتصموا بكتاب الله تعالى، وأن تكون وحدتهم عليه، فعليه يجتمعون وبه يتحدون، لا بالقوميات والجنسيات، ولا بالمذاهب والأوضاع السياسية التى إخترعوها بأفكارهم القاصرة.

ونهاهم تعالى عن التفرق والإنقسام، بعد الإجتماع والإعتصام بكتاب الله تعالى لما فى التفرق من زوال الوحدة التى هى معقد العز والقوة فبالإجتماع تقوى الأمة، وبالقوة يعتز الحق فيعلو على الباطل، ويحفظ من هجمات المواثبين، ويحمى من كيد الكائدين، قال تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[1] فالإسلام هو سبيله، والعصبيات والقوميات هى السبيل المشتتة التى تؤدي إلى الضعف والهلاك.

والإسلام يأمر بالوفاق، والإتفاق، بين كل من تحكمهم شريعته، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا، وقد بددت العصبيات القبلية العرب قبل الإسلام، فلم يكن لهم شريعة تجمعهم ولا نظام يحكمهم، وحينما لجؤوا إلى الإسلام نالوا به العزة والسيادة، والسعادة ولما سرى سم العصبيات الموبوءة التى نقلها متفرنجة المسلمين إليهم، يخادعون بذلك قومهم موهمين، بأنهم يريدون النهوض بأوطانهم، وإعلاء شأنهم، أصبح الأمر معكوسا فلم يجنوا من ذلك سوى الضعف والتفكك، والتفرق الذى مهد السبيل أمام أعدائهم للإستيلاء على خيرات بلادهم، وعلى أفكارهم، وفى النهاية أصبح أعداؤهم هم يتحكمون فيهم، وان أوهموهم بأن الأمر بأيديهم.

فالإسلام وحده هو الأساس الذى ينبع منه إيجاد المجتمع المتكامل، المتساند الذى يعمل من أجل خير الجميع، لأن الإسلام يعتبر الفرد هو النواة للجماعة، ولا يعترف بالجماعة إلا إذا كانت لا تعمل على ضمان صالح الفرد.

ومن المتيقن أن المسلمين لن تقوم لهم دولة عزيزة قوية إلا إذا اجتمعوا على ما اجتمع عليه أوائلهم وأسلافهم، الذين فتحوا البلاد بعدل الإسلام وعزته، وفتحوا القلوب لعبادة الله وحده لا شريك له، وبذلك صاروا، هم القادة.

ولتكن دويلة اليهود فى فلسطين معتبرا لمن يعقل ويعتبر، كيف أصبحت تتحداهم وتهددهم، ولا يستطيعون الإمتناع منها، وليس لذلك سبب سوى انصراف المسلمين عن دينهم الذى هو مصدر عزهم وقوتهم.

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.

فبالإسلام وحده استطاع أجدادنا لما كان إمامهم رسول الله - ﷺ - وقائدهم القرآن أن يكونوا أكبر دولة وأعظمها، لا تستطيع القوى المادية مجتمعة إيجاد مثلها.

وقد علم لكل من يقرأ التاريخ أن المسلمين كلما حادوا عن دينهم، حاق بهم ما وقع بهم فى الأندلس، وغيره، ان ما وقع للمسلمين قديما وحديثا كله بسبب إنصرافهم عن دينهم، فيجب أن يكون ذلك لهم عبرة، فقد أبيدت أمم من المسلمين وسلبت بلادهم، وسبيت نساؤ هم وأولادهم، وارتد من بقي منهم فى تلك البلاد عن الإسلام كما حصل فى الأندلس، بسبب التفكك والإختلاف الذى نهاهم عنه دينهم وحذرهم الله منه على لسان رسوله - ﷺ -، كما فى حديث ثوبان، وانى سألت ربي أن لا يهلك أمتى بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو إجتمع عليهم من فى أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا»[1].

ولما كانوا مجتمعين، تسودهم روح الإسلام، ويلتزمون أحكامه، لم يكن العدو يطمع بهم وليس له فيهم منفذ، حتى صاروا هم يدمرون أنفسهم وبلادهم، بتفرقهم، وإختلافهم.

وقد إتفق أهل النظر وعلماء التاريخ والإجتماع من المسلمين وغيرهم من الأمم المختلفة أن العرب ما قاموا ببناء حضارتهم، ومدنيتهم الواسعة الأرجاء إلا بتأثير الإسلام، فى جمع كلمتهم، وإصلاح شئونهم النفسية، والعلمية، والخلقية.

ولهذا لما رأى الكفار قوة المسلمين، ووحدة صفهم على عدوهم، عملوا على تمزيق هذه الوحدة، بوسائل متعددة، منها تقسيم بلادهم إلى دويلات متعددة، وجعلوا لكل دويلة حدودا، ونظاما، وأمورا قد يحصل بسببها القتال بينها وبين جارتها وبذلك أمكنهم السيطرة على المسلمين، من نواحى متعددة.

ومعرفة الجماعة وأهميتها فى الدين، وكذلك معرفة حكم الفرقة وعظيم ضررها مما ينبغي الإعتناء به، وكذلك معرفة منشأ الفرقة وأسبابها، فإن بالفرقة يحصل التلاعن والتباغض، والتقاطع، ثم القتال، وهذا أصل محرم فى الشرائع كلها التى أنزلها الله على رسله، وإنما ترتكب بظلم الناس وجهلهم.

---

(١) رواه مسلم جـ ٤ رقم ٢٨٨٩.

وكذلك تمييز السنة من البدعة مما يجب الإعتناء به، إذ السنة ما أمر الله به والبدعة ما لم يشرعه الله من الدين.

وقد كثر إضطراب الناس فى ذلك قديما وحديثا، وحصل بسبب ذلك من التفرق والتباعد والتباغض شر عظيم، وضعف كبير، وتباعد شاسع، إذ كل فريق يزعم أنه المهتدي، والسنة معه، والفريق المخالف له ضال أو ربما كافر، فينشأ عن ذلك من التفرق والشرور ما الله به عليم.

وقد ذم الله تعالى الإختلاف ونهى عنه أشد النهي، قال تعالى: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾(٢).

فأخبر تعالى عن إتفاق الناس فى الأصل، وإنهم كانوا جماعة متحدة، ثم إختلفوا.

وهذا الإختلاف فى الدين، هو الإختلاف الذى يكون به تضليل بعضهم بعضا ومعادات بعضهم لبعض، ثم بعد ذلك يكون القتال وشدة التفرق.

وقد بعث الله تعالى إلى العباد النبيين، مبشرين من أطاعهم واجتمع على الهدى الذى جاءوا به، بالسعادة والسيادة، ومنذرين من عصاهم بالعذاب فى الآخرة والعقوبة فى الدنيا، بما ينغص عليهم حياتهم، أو يهلكهم بعذاب متصل بعذاب الآخرة.

ولما كان عقل الإنسان وفكره قاصرا عن الوصول إلى كل ما فيه مصلحته، وهدايته من العدل فى حقه وحق غيره، ولتفاوت عقول الناس، وإدراكاتهم، فلابد من اختلافهم، مع ما فيهم من النقص، لذلك أنزل الله الكتاب ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من العلم والإعتقاد، والعمل والحكم.

لأن الإختلاف إما أن يكون فى الأقوال، كاختلاف الفقهاء الذين يتكلمون فى مسائل العلم، ولا يدعون إلى أقوال مبتدعة فهؤلاء أهل إجتهاد، إذا أخطأوا فخطأهم مغفور، وهم مثابون على إجتهادهم.

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

وإما أن يكون الإختلاف فى القول والعمل، غير أن الأقوال مبنية على تأويل فاسد، إتباعا للهوى، ويدعون إليها، ويحاربون عليها، ويوالون ويعادون كفعل الخوارج، والروافض، والمعتزلة، ونحوهم، ويدخل فى ذلك من يقاتل لأجل الملك والدنيا والرئاسة، فهؤلاء ما بين معتد ظالم أو مفرط ضال أو عابد لهواه وشهوته، فهؤلاء هم أهل الضلال، والخذلان، وهم الذين توجه إليهم الذم فى الكتاب والسنة.

وأول هؤلاء هلاكا هم الخوارج المارقون عن الحق، حيث حكموا لنفوسهم بأنهم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وأن علي بن أبي طالب، ومعاوية وعسكريهما هم أهل المعصية، والبدعة، فاستحلوا ما استحلوا من دماء المسلمين بسبب ذلك.

وفى صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «وان الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم[1]، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[2].

وروى ابن أبي شيبة، عن حذيفة قال: «من فارق الجماعة شبرا، فارق الإسلام»[3].

وروى عن علي، قال: «الأئمة من قريش، ومن فارق الجماعة شبرا، فقدنزع ربقة الإسلام من عنقه»[4]. والمقصود بالجماعة أهل الحق الذين اجتمعوا عليه، ولم يخالفوا ما جاء به رسول الله - ﷺ - بحسب الاستطاعة.

وهذه النصوص وأمثالها تدل على وجوب جمع كلمة المسلمين واجتناب كل ما يكون سببا للخلاف، حتى مسائل العلم الاجتهادية التى ينشأ عنها تفرق ومعاداة.

فإنه قد يكون فى مسائل الإختلاف إعتقاد وجوب بغض المخالف فى تلك المسألة أو تفسيقه، أولعنه وتكفيره، أوقتاله، ويكون ذلك فى حق المبغض المفسق أو المكفر المقاتل بلاء ومحنة، وفتنة، كما هوحال البغاة المتأولين، مع أهل الحق والعدل من أهل الأمر والنهى أو أهل العلم والعمل، يعني الأمراء، والعلماء والعباد.

ولكن الإجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة، إلا مع البغي والعدوان، ولهذا

(١) المنهاج جـ ٣ ص ٣٣.
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٣٤٠ رقم ١٧١٥.
(٣) المصنف جـ ١٥ ص ٢١.
(٤) المصدر نفسه جـ ١٥ ص ٢٤.

قال تعالى : ﴿**وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم**﴾[1] . وذكر هذا تعالى فى آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿**وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿**فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**﴾[3] . فبين تعالى أن الإختلاف الموجب للفتنة والفرقة إنما هو بغي ، وعدوان ، فلا تكون فتنة وفرقة مع الإختلاف السائغ فى الشرع .

ولهذا نهى النبى - ﷺ - عن القتال فى الفتنة ، وصار هذا من أصول أهل السنة التى تذكر فى العقائد لأهميته .

وان كان بعض العلماء يرى إذا كانت إحدى الطائفتين لديها العلم التام بأحكام الشرع ، والأخرى باغية أنه يجب القتال مع الطائفة العادلة العالمة وحكموا بأن الأصوب القتال مع علي بن أبي طالب فى قتال الفتنة ، وأن ذلك أولى من إعتزال القتال .

ولكن النصوص الكثيرة دلت على أن الصواب إعتزال القتال ، كما فعله أكثر الصحابة ، كقوله - ﷺ - فيما رواه ابن أبي شيبة عن محمد بن مسلمة قال : أعطاني رسول الله - ﷺ - سيفا فقال : «قاتل به المشركين ، فإذا رأيت الناس يضرب بعضهم بعضا ، فأعمد به إلى صخرة فأضربه بها حتى ينكسر ، ثم أقعد فى بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية» .

وكما فى سنن أبى داود والترمذي عن أبى موسى الأشعري ، أن رسول الله - ﷺ - قال : فى الفتنة : «كسروا فيها قِسيكم ، وقطعوا أوتاركم ، والزموا فيها أجواف بيوتكم ، وكونوا كابن آدم» .

وفى الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به» .

وفى صحيح مسلم عن أبي بكرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : «أنها ستكون فتنة ، ألا ثم تكون فتن القاعد فيها خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي إليها ، فإذا وقعت ، فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه ، فقال رجل : يارسول الله ، أرأيت من لم تكن له إبل ولا غنم ، ولا أرض؟

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩ من سور آل عمران .

(٣) الآية ١٧ من سورة الجاثية .

قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة، اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت.

فقال رجل: يارسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين، أو إحدى الطائفتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار».

وفى الصحيحين من حديث أبي بكرة أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، فقيل: يارسول الله. هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل أخيه».

وفيهما عن أبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن».

والأحاديث عن رسول الله - ﷺ - بالأمر بالكف عن القتال فى الفتن، وإعتزال المقاتلين كثيرة جدا، وواضحة جلية، وهي من الأمور المانعة من التفرق، لأن هذا هو العلاج فى مثل تلك الحال، فإذا لم تمنع بالكلية فبها، العمل على تقليلها، ولو بإعتزال أصحابها ومن الأصول المتفق عليها عند أهل السنة، ودلت عليه النصوص الكثيرة، أنه إذا كان للناس إمام جائر ظالم، فإن الناس يؤمرون بالصبر على جوره وظلمه، وبغيه ولا يقاتلونه وأن مجرد وجود البغي من إمام، أو من طائفة لا يبيح قتالهم.

فدفع البغي لم يأذن الشرع به مطلقا بالقتال، بل إذا كان فيه فتنة، ويترتب عليه ضرر أعظم منه وجب الكف عنه، وأمر بالصبر، والإحتمال، لأن الشريعة مبناها على دفع أعظم المفسدتين بإلتزام أقلهما ضررا، إذا لم يمكن دفع الفساد مطلقا.

والنبي - ﷺ - إذا وصف طائفة بأنها باغية ليس معنى ذلك أنه أمر بقتالها بل ولا مبيحاً له، سواء كان بغيها بتأويل، أو غير تأويل.

وكل ما أوجب فتنة أو فرقة بين المؤمنين فليس هو من الدين، سواء كان قولا أو فعلا.

والفتنة، والفرقة لا تقعان، إلا من ترك ما أمر الله به، والله تعالى - أمر بالحق والعدل، وأمر بالصبر، والفتنة تكون من ترك الحق، أو من ترك الصبر.

فالمظلوم إذا كان على حق، فإنه يؤمر بإحتمال الأذى، والصبر على البلوى، فإذا ترك الصبر، فإنه يكون تاركا لما أمر الله به.

وإن كان المظلوم مجتهدا فى معرفة الحق، ولم يصبه، ثم لم يصبر على البلوى، كان

مقصرا فى معرفة الحق، وآثما بترك الصبر، ولكن قد يؤجر على إجتهاده، ويعفى له عن تقصيره، وأما ترك الصبر فعليه إثم ذلك.

وأما إذا كان غير مجتهد فى معرفة الحق، ولم يصبر، فإنه يجتمع عليه ثلاثة ذنوب، الأول لتركه الإجتهاد فى طلب الحق، والثاني لتركه الصبر على البلوى، والثالث لعدم إصابته الحق ووقوعه فى الخطأ.

والمقصود أنه لا يحل دفع الأذى الذى يكون فى دفعه فتنة بين الأمة، أو ينتج عنه شر عظيم أو أعظم من الأذى المطلوب دفعه، أو يكون فى دفعه ظلم وعدوان، بل المتعين حينئذ الصبر والإحتمال وضبط النفس، فإن ذلك فى حق المظلوم إبتلاء وإمتحان، وإذا صبر واحتسب، كانت العاقبة له، وقد قال الله تعالى: ﴿**وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك قديرا**﴾ أي يبتلى بعضكم ببعض لينظر من يصبر فيستحق الجزاء الأوفى، فى الدنيا والآخرة.

وأخبر تعالى عن رسله أنهم قالوا لقومهم: ﴿**ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾ وقال تعالى: ﴿**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ فجعلهم أئمة بالصبر واليقين، فبذلك تنال الإمامة فى الدين.

والخطأ يحصل فى هذا إما بسبب جزع المظلوم، أو بسبب قلة صبره، أو ضعف رأيه فإنه قد يظن أن القتال، أو نحوه فى الفتنة يدفع الظلم عنه، ولا يدري أنه يضاعفه ويزيد الشر كما هو الواقع.

والمظلوم وإن كان مأذونا له فى دفع الظلم عنه، كما فى قوله تعالى: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل**﴾ فذلك مقيد بشرطين أحدهما القدرة على ذلك، فإنه إذا كان غير قادر زاد ظلمه.

والثاني أن لا يتعدى، كما قال الله تعالى: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون**﴾ فأخبر تعالى أن الإنتصار جائز لمن يقدر عليه، ولا يعتدي، وأن الصبر أفضل، فإذا لم يتوافر الشرطان لم يجز.

وهذا كله إذا لم يكن الباغي الظالم هو الإمام الذى له قوة، وأتباع، فإذا كان هو لم يجز الإنتصار والإنتقام، لما يترتب على ذلك من الشر العريض، والفتنة التى فيها من الضرر

والفساد أضعاف ما فى الإنتصار من المصلحة ودفع الظلم .

ولهذا جاءت النصوص عن النبي - ﷺ - فى النهي عن قتال الأئمة الجائرين الظالمين .

ففي صحيح مسلم والترمذي أن سلمة بن يزيد الجعفي سأل رسول الله - ﷺ - قال : «يانبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألون حقهم ، ويمنعوننا حقنا ، فما تأمرنا ، فأعرض عنه مرارا - وهو يعيد السؤال - ثم قال : إسمعوا وأطيعوا ، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم» .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : «إنها ستكون أثرة ، وأمور تنكرونها ، قالوا : يارسول الله كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم» .

وفيهما أيضا عن ابن عمر ، أن رسول الله - ﷺ - قال : «وعلى المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة» .

وفى صحيح مسلم والنسائى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : «عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك» .

وفى الصحيحين ، عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : «من كره من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» .

وهذا كله محافظة على الإجتماع ، وخوفا من التفرق ، الذى يضعف الأمة أمام هجمات الأعداء ومحافظة على دماء المسلمين وأعراضهم ، وأموالهم ، لما يحصل ، فى الخروج على الإمام من الفتن ، وسفك الدماء ، وذهاب الأموال ، وهتك الأعراض ، كما جرب الناس ذلك وعانوا منه العنت ، والشر الكثير ، والشرع جاء بإحتمال أقل الأمرين ضررا ، لدفع ما هو أعظم ، ولهذا جاءت النصوص عن رسول الله - ﷺ - بالأمر بقتل من خرج بطلب السلطة ، والمسلمون لهم سلطان قائم ، لما فى ذلك من الفتن والتفرق ، كما فى صحيح مسلم عن عوف بن عرفجة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «ستكون هنات ، وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان» .

وفى النسائى ، عن أسامة بن شريك ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : «أيما رجل خرج ، يفرق بين أمتي فاضربوا عنقه» .

وفى صحيح مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ، فمات مات ميتة جاهلية ، ومن قتل تحت راية عُمِيّة ، بغضب

لعصبية، أو يدعو إلى عصبية، فقتل، فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهد ذى عهدها، فليس مني، ولست منه».

فحذر - ﷺ - مما يفرق، ويوهن الجماعة، وأمر بقتل من يريد أخذ السلطة ممن هى بيده، وإجتمع عليه المسلمون، سواء كان برا، أو فاجرا، وأخبر أن من قتل تحت راية عُمِّية أن قتلته جاهلية، ومن قاتل لعصبية أنه كذلك، وتبرأ ممن يفرق بين أمته.

وأما قوله تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ فليس فيه الأمر بالقتال إبتداء، ولكن إذا حصل القتال بين طائفتين من المؤمنين، يجب الإصلاح بينهما، بدون قتال ما أمكن ذلك إمتثالا لأمر الله تعالى، ويكون الإصلاح بالعدل، والإنصاف، وقد تكون إحدى الطائفتين أقرب إلى الحق، فتعان على الحق، ويحال بين الأخرى وبين البغي والظلم، فإن أبت إحداهما قبول الصلح والحكم بينهما بالحق، وأبت إلا البغي وركوب العسف والتمادي فى الباطل، فعند ذلك تقاتل تلك الطائفة منعا للقتال الذى هو أعظم من قتالها لأنها إذا لم تقاتل حتى تفيء إلى أمر الله، بل تركت حتى تتقاتل هى والأخرى صار الفساد أعظم، ثم إن الذى يقاتل الطائفة الباغية غير الطائفة المبغي عليها، فهذا من نصر المظلوم، ودفع الفساد العظيم بما هو أقل منه فسادا.

قال ابن جرير: «يقول جل ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان، إقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، فإن بغت إحداهما على الأخرى، يقول: فإن أبت إحدى الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله لها أو عليها، وتعدت ما جعل الله عدلا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التى تبغي، أي التى تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى تفيء إلى أمر الله، أي حتى ترجع إلى حكم الله الذى حكم فى كتابه بين خلقه، فإن فاءت ﴿**فأصلحوا بينهما بالعدل**﴾ يقول: فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم، إلى الرضا بحكم الله فى كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى ﴿**بالعدل**﴾ يعني الإنصاف بينهما، وذلك حكم الله فى كتابه، جعله عدلا بين خلقه» وهذا ليس فيه قتال الأئمة الذين بأيديهم السلطة، بل هذا نوع آخر، وإنما المأمور به فى هذه الآية، دفع الفتنة، وتقليلها ما أمكن بالإصلاح، أو بالقتال إذا لم يمكن بدونه، فتقاتل الفئة الباغية على الأخرى، حتى تذعن لحكم الله، ويصير الدين كله لله، وكلمة المسلمين مجتمعة.

والمأمور بالقتال هم المؤمنون الذين ليسوا من إحدى الطائفتين، أمر الله تعالى بأن يقاتلوا من بغى على أخيه، وتعدى بقتال، ولم يقبل الصلح بالعدل، فقتال مثل هؤلاء من باب الجهاد، ونصر المظلوم.

أما إذا وقع بغي إبتداء، بغير قتال مثل أخذ المال، أورئاسة بظلم، فهذا لم يأذن الله تعالى، بقتالهم على ذلك، بل أمر الرسول - ﷺ - مع ذكره لظلمهم بالصبر، وإعطائهم حقوقهم، وأن يطلب المظلوم حقه من الله تعالى، ولم يأذن للمظلوم المبغي عليه بقتال الباغي، في مثل هذه الصور، التي يكون القتال فيها قتال فتنة وحذر من الخروج على الأئمة، وإن كانوا ظلمة وجائرين، يضربون الظهور، ويأخذون المال، ويمنعون الحقوق، بل نهى عن معصيتهم حينئذ، ونزع يد الطاعة منهم، ما لم يأمروا بمعصية الله تعالى. فعند ذلك لا طاعة لهم، ولا يسمع لقولهم، وكذلك إذا إرتدوا عن الإسلام، وكفروا به صراحة، فلا يجوز أن يكونوا حينذاك أئمة على المسلمين، فطاعتهم مقيدة بأن لا يأمروا بمعصية الله تعالى - فهم لا يطاعون في كل شيء، وإنما يطاعون إذا أمروا بطاعة الله، أوبما ليس فيه معصية لله تعالى، أما إذا أمروا بمعصية الله تعالى، فلا سمع لهم ولا طاعة.

وكذلك النهي عن الخروج عليهم مقيد بكونهم مسلمين مصلين، أما إذا كفروا كفراً صريحا، وارتدوا ردة واضحة جلية، فلا يجوز حينئذ أن يكونوا ولاة على المسلمين، وعلى هذا دلت النصوص عن رسول الله - ﷺ -.

جاء في صحيح مسلم عن علي بن أبي طالب، قال: «بعث رسول الله - ﷺ - سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: إجمعوا لي حطبا، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا نارا، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله - ﷺ - أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فأدخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله - ﷺ - من النار، فكانوا كذلك، وسكن غضبه، وطفئت النار، فلما رجعوا، ذكروا ذلك للنبي - ﷺ - فقال: لو دخلوها ماخرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»[1].

وفيه أيضا عن أم سلمة، أن النبي - ﷺ - قال: «سيكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن عرف برىء، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: أفلا ننابذهم؟ قال: لا ما صلوا».

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٢٧.

وفيـه أيضـا عن عوف بن مالـك، سمعت رسـول الله ـ ﷺ ـ يقـول: «خيار أئمتكم الـذيـن تحبـونهم ويحبـونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشـرار أئمتكم الـذين تبغضـونهم، ويبغضـونكم، وتلعنـونهم ويلعنونكم، قال: قلنا: يارسول الله، أفلا ننابذهم عنـد ذلـك؟ قال: لا ما أقـامـوا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصـلاة، إلا من ولي عليـه والٍ فرآه يأتي شيئـا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يداً من طاعة».

قال النـووي: أجمـع العلماء على وجـوب طاعـة ولاة الأمـور من غير معصية، وعلى تحريمهـا فى المعصيـة، نقـل الإجمـاع القـاضي عياض، وآخرون، قال: وتجب طاعتهم فيما يشق على النفـوس ومـا تكـرهـه، وغيره فيما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة، كما صرح به فى الأحاديث، فتحمل الأحاديث التى فيها إطلاق السمع والطاعة على المقيدة، وفى حديث عبادة قال: «بايعنا رسول الله ـ ﷺ ـ فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة، فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن ترون كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان».

ونقـل النـووي عن عيـاض، أنـه قال: «أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر وعلى أنـه لو طرأ عليـه الكفـر إنعزل» أ ـ هـ يعني إنعزل حكما، لأنه لا يجوز أن يتولى الكافر على المسلمـين، فولي الأمـور هو الـذى يقيم الحـدود، ويقـود المسلمين فى جهاد أعدائهم، ويذود عن بلادهم، فإذا لم يكن على دينهم لا يتوقع منه فعل ذلك.

والمقصود أن النبي ـ ﷺ ـ حذر من الخروج عن الطاعة، ومفارقة الجماعة وذم ذلك، وجعله من أمـر الجـاهليـة، لأن أهـل الجاهلية، لم يكن لهم رئيس يجمعهم، وشأنهم التفرق والإختلاف، ويرون السمع والطاعة مهانة وذلة، والخروج عن الطاعة وعدم الإنقياد عندهم فضيلة، يمتدحون بها.

فجـاء الإسـلام مخالفـا لهم فى ذلك، آمرا بالصبر على جور الولاة، والسمع والطاعة لهم فى غير معصيـة، والنصـح لهم، وبـالـغ صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك حتى قال فيما أوصى به فى حجة الوداع: «إسمعوا وأطيعوا لمن ولاه الله أمركم، وإن كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف».

مع أنـه ـ ﷺ ـ كان دائـما يأمـر بإقـامة رئيس حتى فى الجماعة القليلة والمدة القصيرة، ويحث على طاعتـه، كما أمـر المسـافـرين إذا كانوا ثلاثة أن يؤ مروا أحدهم، مبالغة فى طلب الإجتماع، وحرصا على عدم الفرقة، ومخالفة لأمر الجاهلية وتقدم الحديث الذى فى صحيح

مسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا، ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل، وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال» وهذه أصول الإسلام فإنه بني على عبادة الله وحده، والجن والإنس خلقوا لذلك.

ولهذا صار من أصول أهل السنة صلاة الجمع وغيرها خلف البر والفاجر، ويرون أن ترك الصلاة خلفهم من سنة المبتدعين، وإذا كان الإمام مستورا فإنه يصلى خلفه بالإتفاق من أئمة المسلمين، ومن زعم أنها غير جائزة فقد خالف الإجماع من أهل السنة، وقد كان الصحابة يصلون خلف الفسقة والظلمة، بل ومن كان متهما بالإلحاد كإبن أبى عبيد، وكان داعيا إلى الضلال، ولم يكونوا يعيدون الصلاة، وقد أنكر الإمام أحمد على من يعيدها إنكارا شديدا وعد ذلك من البدع.

والاعتصام بحبل الله يتضمن الإجتماع على الحق، والتعاون على البر والتقوى، والتناصر على أعداء الله وأعداء المسلمين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأكد ذلك بقوله: ﴿**ولا تفرقوا**﴾.

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذي وصححه، قوله - ﷺ -: «وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن، السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

وفى خطبة عمر رضى الله عنه المشهورة التى ألقاها فى الجابية، قوله: «عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد» وفيها: «من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

والمراد بالجماعة أهل الحل والعقد من كل عصر.

وقال البخاري: «الجماعة هم أهل العلم»، وهذا لا يخالف قول الجمهور من العلماء لأن أهل العلم، يقولون بمقتضى أحاديث رسول الله - ﷺ - التى تنص على وجوب طاعة الأمراء، الذين يتولون أمور المسلمين، وإن كانوا فجرة، ماداموا على الإسلام، لم يخرجوا إلى الكفر الصريح كما فى صحيح مسلم من غير وجه أن رسول الله - ﷺ - قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني».

وفيه عن ابن عباس، قال: نزل قول الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله**

وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فى الأسراء.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قلت يارسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. فقلت: صفهم لنا؟ قال: نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: يارسول الله فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فأعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك.

وفى لفظ آخر: قلت: وهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم. قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان الإنس. قال: قلت: كيف أصنع يارسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فأسمع وأطع».

وفى رواية قال عن الخير الثاني: صلح على دخن، وجماعة على اقذاء فيها، وقلوب لا ترجع إلى ما كانت عليه:-

فالخير الأول: النبوة وما إتصل بها من خلافة ليس فيها فتنة، والشر هو ما حصل من الفتنة بسبب مقتل الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه، وتفرق الناس حتى صار حالهم شبيها بحال الجاهلية، يقتل بعضهم بعضا، ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله - ﷺ - متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم، أو مال، أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية» فيبين أنهم جعلوا ذلك غير مضمون، كما أن ما يصيبه أهل الجاهلية بعضهم من بعض، غير مضمون، لأن الضمان إنما يكون مع العلم بالتحريم فأما مع الجهل كحال البغاة من أهل القبلة والكفار، فلا ضمان، لهذا لم يضمن النبي - ﷺ - أسامة دم الذى قتله بعد ما قال: لا إله إلا الله»، مع تغليظه - ﷺ - فى ذلك، وردد عليه قوله: أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله، ثلاث مرات حتى قال أسامة فتمنيت أني لم أسلم قبل ذلك.

والخير الثاني: إجتماع الناس على معاوية بعد أن تنازل الحسن له عن الأمر، وكان ذلك صلحا على أقذاء، ودخن فى ذلك الإجتماع حيث لم ترجع القلوب إلى ما كانت عليه زمن النبي - ﷺ - وخلفائه قبل الفتنة.

والمقصـود أن النبي ـ ﷺ ـ أخـبر بأنه يكون أئمة لا يهتدون بهديه ـ ﷺ ـ ولا يستنون بسنتـه، وأخـبر أن فيهم رجـالا قلوبهم قلوب الشيـاطـين فى جثـمان الانس، ومـع ذلـك أمر بالسمـع والطـاعـة للأمـير، وإن ضرب الظهـر، وأخـذ المـال، وفى ذلك بيان وجوب طاعة السلطـان، سواء كان عادلا أو ظالمـا جائـرا وهـذا حماية منه ـ ﷺ ـ للأمة من التفرق، الذى يضعفها، ويجعلها نهبة للأعداء، كما هو الواقع من حال المسلمين اليوم، لما تفرقوا، وأصبحوا دويلات لكل دويلة حدودها، وإتجاهاتها.

وعلاقتها مع أعدائها أوثق من علاقتها مع الدول الإسلامية، وبذلك صار المسلمون غثـاء كغثـاء السيـل ذهبت مهـابتهم من قلوب أعدائهم وقذف فى قلوبهم الوهن فوصلوا إلى حالة من الشقاق والإختلاف، وصاروا فيها من أبعد الناس عن الإتفاق والإئتلاف.

والواجب عليهم الحذر مما وقع فيه من قبلهم، من الإختلاف فى دينهم أشد الحذر وقد أكثر الله ورسوله فى تحذيرهم من ذلك، ورتب تعالى العذاب على الإختلاف.

وهم قد جربوا ذلك بأنفسهم، فلما كانوا ممتثلين لأمر ربهم بالإتفاق والإعتصام بكتاب الله تعـالى، منتهـين عن التفـرق والإختلاف، كانوا خير أمة أخرجت للناس، فحصل لهم الخـير العظيم الـذى لم يطـرق العـالم مثله، من كثرة الإيمان بالله وإنتشار العدل بين الناس، وقوة المسلمين، وسيطرتهم على معظم الأرض، وقمع الباطل وحزب الشيطان، فلما سلكوا مسالك من تقدمهم، من التفرق فى الدين وتقليد أعدائهم ذهبت ريحهم، ثم لم يزل النقص فيهم إلى أن صاروا أذلـة يستجـير ون بأعـدائهم، مع كثـرة عددهم، والله تعـالى جعـل الإختـلاف من طبيعـة البشـر، فلذلـك بين علاجـه بيـانا واضحاً بأن نرد ما إختلفنا فيه إلى كتابه، وسنة رسوله، وبذلك يحصل الإتفاق والإعتصام بحبل الله.

والمقصـود أن الله تعـالى لم يأذن بقتـال الأمراء والولاة، والخروج عليهم لما فى ذلك من الفتن والفساد الكبير، والواقع أكبر شاهد لذلك.

وأما إذنه بدفع الصائل بالقتال، كما فى الحديث: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتـل دون عرضـه فهـو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد» ونحو ذلك، فهذا ليس فيه فتنة ولا هو من دواعي التفرق والإختلاف، فهو مثل قتال اللصوص، وقطاع الطرق فليس قتالهم فتنـة، إذ النـاس كلهـم أعـوان على قتالهم، فلا يكون فى قتال هؤلاء ضرر عام يشمل الظالم والمظلوم وغيرهما، كقتال ولاة الأمور، فإن فيه فتنة وشرا عاما أعظم من ظلمهم، فالمشروع فيه الصبر والإحتمال.

وبهذا تجتمع النصوص وتتفق، ويزول التعارض الذى يتوهمه بعض الناس.

وهـذا الأمـر مما ينبغي الإهتمام بفهمه، فإن خطره عظيم، والنصوص التى تقدم ذكر بعضها تدل على وجوب الكف عن القتال فى الفتنة، ولكن إذا كان الخارج مارقا من الدين ظاهـر الضـلال، ويتـدن بقتال المسلمين كالخوارج والروافض الذين يرون قتل المسلمين من فضـائـل الأعـمال، فإنهم يُقـاتلون ويُرغب فى قتالهم، كما أمر الرسول ـ ﷺ ـ بقتال الخوارج ورغب فيه، والروافض أشر من الخوارج.

ومـا قالـه بعض العلماء من وجـوب القتـال مع من هم أولى بالحق، فالصواب خلافه ـ أي وجوب الكف عن القتال ـ لأن القتال فيه من الشر العظيم، والفتنة والفساد أعظم مما فى ترك القتـال كما هو الـواقـع، لأن القتـال فى مثـل ذلك لأجل ترك واجب مثل الإمتناع من طاعة معين والدخول فى الجماعة، وفى قتال المتنعين ما فيه من سفك دماء المسلمين، والفتن العظيمة أعظم مما يحصل بتركه، وإن كان غيرهم أولى بالطاعة والمقصود أن الله تعالى نهى عن التفـرق، وعن أسبـاب الفتن، مما يضعف الأمـة ومن تتبع تاريخ المسلمين عرف أن أكثر الإختـلاف والتفـرق حصـل فى مسـائل الصفات والقدر، والإمامة، وغالب ذلك مما يدخله الإجتهاد، فهم فى ذلك ما بين مجتهد مخطىء، ومخطىء باغ، وباغ من غير إجتهاد، أومقصر فيما أمر به من الصبر والإحتمال، فحصل بسبب ذلك من القتال والشرور ما هومعلوم لمن نظر فى التاريخ والواقع.

وقـد قال تعـالى: ﴿**لتبلون فى أمـوالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾ فأمر تعالى بالصبر على أذى الكفار من اليهود والنصارى والمشركين، مع التقوى.

وفى هذا تنبيه على وجوب الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض، متأولين كانوا أو غير متأولين.

والله تعـالى قد أمـر بالعـدل مع الكفـار، وغـيرهـم، كما قال تعـالى: ﴿**ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾.

فنهى تعالى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على عدم العدل فيهم، فكيف إذا كان البغض لفـاسق مؤمن، أومبتـدع متأول، فهـو أولى بوجوب العدل معه وأن لا يحمل بغضه على ظلمه.

والإسـلام جاء بتأليف القلوب، وجمعهـا على الحق، ومنـاصرة المؤمنين، ومعاونتهم

على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ فأمر بتنمية الخير وتكثيره، وبإماتتة الشر وتقليله، وأمر بالأسباب التى تجلب الخير ومودة المسلم لأخيه، ونهى عن الأسباب التى تجلب العداوة والبغضاء، مما يدل على أن الإسلام مبني على وجوب التآلف بين أهله والإجتماع عليه، وتحريم الفرقة والإختلاف.

فلهذا حرم السب، والسخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وما أشبه ذلك مما يسبب الفرقة بجلب العداوة، والبغضاء، وتنافر القلوب.

وحرم الأفعال الداعية إلى ذلك، ففي الصحيحين عن ابن مسعود، أن النبي - ﷺ - قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

وقال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون**﴾ فهذه الأمور التى نهى عنها وهي السخرية واللمز، والتنابز بالألقاب - هي مما يوغر الصدور، ويحدث البغضاء الداعية إلى التقاطع والإختلاف، وتفرق القلوب والأفكار ثم تفرق الأبدان.

وأمر بعكس ذلك مما يدعو إلى الألفة، والمحبة كطيب الكلام، ولين الجانب وإفشاء السلام، والدعاء بأحسن الأسماء وأحبها إلى المدعو، والهدية، وما أشبه ذلك مما يجلب المحبة، ويجمع القلوب، ويشعر بالأخوة الصادقة.

وهذا لا ينافى لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المقصود منه رحمة الخلق وإمتثال أمر الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ قال أبو هريرة: كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل، تدخلونهم الجنة.

فهذه الأمة خير الأمم لبني آدم، فإنهم يعاقبونهم بالقتل والأسر، وسبي الأموال والأولاد، ومقصودهم بذلك الإحسان إليهم، وسوقهم إلى كرامة الله تعالى ورضوانه من دخول الجنة، والحيلولة بينهم وبين النار، عكس ما يفعله النصارى والملحدون، الذين يجهدون أنفسهم، ويبذلون أموالهم يبعدون بذلك الناس عن الله تعالى وهدايته، ويكرهون إليهم الإسلام، بما يظهرونه من تشويه للإسلام وأهله.

وكذا إذا رد المؤمن على أهل البدع، فإنه يجب أن يكون مقصوده بيان الحق وهداية الخلق، ورحمتهم والإحسان إليهم، وإذا بالغ فى ذم بدعة أو معصية فينبغي أن يكون قصده

بيان ما فيها من الفساد، وتحذير الناس من الوقوع فيها.

وكذا إذا هجر إنسانا أو عزره، أو أقام عليه الحد، فلا يجوز أن يكون ذلك للتشفي والإنتقام، بل يكون للرحمة والإحسان، فإن العقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده، فهي صادرة عن رحمة الله لخلقه، وإرادة الإحسان إليهم ونفعهم، كما يقصد الوالد بتأديب ولده نفعه والإحسان إليه، وكما يقصد الطبيب بإجراء العملية للمريض شفاءه والإحسان إليه.

ولهذا أمر الله تعالى بالصلاة على من أقيم عليه الحد، والإستغفار له، كما كان النبي - ﷺ - يفعله، وأمر بالصلاة على الأموات من المسلمين، فكل مسلم لم تعلم ردته، ولا نفاقه فإنه يصلى عليه، ويستغفر له، وإن كان فيه بدعة وفسوق هذا هو مذهب أهل السنة، مخالفين بذلك نهج أهل الزيغ ممّن الخوارج والمعتزلة، الذين يكفرون بالذنوب، أو يحكمون على أصحابها بالخلود فى النار.

ومن القواعد التى قررها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المحققين، أن المتأول إذا قصد متابعة الرسول - ﷺ - فأجتهد وأخطأ أنه لا يكفر، ولا يفسق سواء كان ذلك فى المسائل العملية الفروعية، أو فى العلمية الإعتقادية الأصولية.

والتفريق بين مسائل العمل والإعتقاد فى ذلك من أقوال أهل البدع.

ولا يعرف عن أحد من الأئمة أنه كفر كل مبتدع، بل المنقول عنهم يخالف ذلك.

ولكن قد ينقل عن بعضهم أنه كفر من قال بعض الأقوال، ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر منه، ولا يلزم إذا كان القول كفرا أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل، فإن ثبوت الكفر فى حق الشخص المعين، كثبوت الوعيد فى الآخرة فى حقه، وذلك له شروط وموانع.

وإذا لم يكن الإنسان فى نفس الأمر كافرا، ولا منافقا فهو من جملة المؤمنين فيستغفر له ويترحم عليه، وإذا قال المسلم فى دعائه: (ربنا إغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) دخل فى ذلك كل من سبقه من قرون الأمة بالإيمان، وإن كان قد أخطأ بتأويل تأوله، فخالف السنة، أو أذنب ذنبا، فإنه من إخوانه الذين سبقوه بالإيمان، فيدخل فى العموم، وكذا الموجودون ومن يوجد بهذه الصفة يدخلون فى ذلك، وإن كانوا من الثنتين والسبعين فرقة، فما من فرقة إلا وفيها خلق كثير ليسوا كفارا، بل مؤمنين فيهم ضلال، وذنوب يستحقون بها الوعيد، كما يستحقه عصاة المؤمنين من غير أهل البدع.

والنبي - ﷺ -، لم يخرج ألثنتين والسبعين من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل إنهم مخلدون فى النار، فينبغي مراعاة هذا الأصل، فإنه أصل عظيم ومعلوم أن كثيراً من المنتسبين إلى السنة فيهم بدع من جنس بدع الجهمية والمعتزلة، ولا يقول عاقل يعرف شيئا من علم الكتاب والسنة أن مثل هؤلاء كفار، أو أنهم خارجون من الفرقة الناجية مطلقا.

قال شيخ الإسلام: من كفَّر ألثنتين والسبعين فرقة كلهم، فقد خالف الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، مع أن الحديث فى ذلك قد ضعفه ابن حزم وغيره، لكن حسنه غيره، وصححه الحاكم وغيره ورواه أهل السنن من طرق.

وليس قوله فى: ألثنتين والسبعين «كلها فى النار» بأعظم من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا**﴾ وأمثال ذلك من نصوص الوعيد الصريحة بإدخال من فعل ما ذكر النار، ومع ذلك لا نشهد على معين ممن أكل مال يتيم ظلما، أو أكل مالا بالباطل، أو إرتكب ما توعد عليه بدخول النار، لا نشهد عليه بالنار، لإمكان أنه تاب، أو كانت له حسنات محت سيئاته، أو كفَّر الله عنه بمصائب أصيب بها، أو غير ذلك.

والمقصود أنه يجب العدل فى الحكم والقول، وأن يتبع كتاب الله تعالى - فإن الله تعالى قد أغنانا به، وبين لنا به ما نحتاجه فى جميع شئوننا، وأن نرجع إليه إذا حصل بيننا خلاف، فهو كفيل بحل جميع مشكلاتنا، ففيه الهدى والنور.

وقد ذكر الله تعالى - أن المختلفين إختلفوا بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فلذلك ذمهم الله، لأن العلم جاءهم من الله واضحا جليا، فاختلفوا، قاصدين البغي معرضين عن الهدى، مع علمهم بالحق، ولم يكونوا بإختلافهم مجتهدين مخطئين قال تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**﴾ قال الزجاج: إختلفوا للبغي، لا لقصد البرهان.

وقال تعالى: ﴿**كان الناس أمة واحدة، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ يعني أن الذين إختلفوا فى الكتاب هم اليهود والنصارى، الذين قال رسولنا - ﷺ - أن هذه الأمة ستسلك مسالكهم فهدى الله المؤمنين من هذه الأمة لما إختلف فيه أولئك من الحق.

وقال تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق، ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

وقال تعالى: ﴿وآتيناهم بينات من الأمر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين﴾ فهذه الآيات ونظائرها في كتاب الله تعالى، فيها البيان أن المختلفين ما اختلفوا حتى جاءهم العلم، والبينات - أي الدلائل الواضحات - بأن ما جاءت به الرسل هو الحق، فاختلفوا للبغي والظلم، لا لأن الحق اشتبه عليهم بالباطل، وهذه حال أهل البدع، والإختلاف المؤدي إلى الضلال.

فأصحاب الأهواء عامة لا يختلفون إلا بعد ظهور الحق لهم، ووضوح الهدى، فيبغي بعضهم على بعض، فكل فريق منهم له نحلة يضلل من خالفه فيها، ويرد الحق إذا لم يتفق مع باطله، ويكذب به.

وأما رسل الله تعالى - فإنهم جاءوا بدين واحد، هو دين الإسلام - وأمرهم أن يدعوا إليه، ونهاهم عن التفرق فيه، وهو في الحقيقة دين أول الرسل وآخرهم، كما قال تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾.

وقال تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ فقوله أمتكم أمة واحدة، يعني شريعتكم ودينكم واحدا، ولكن الناس اتخذوا كتبا كتبوها مبتدعين فيها غير ما جاءتهم به رسلهم مختلفين متفرقين بغيا وعدوانا.

وقد قال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر

الناس لا يعلمون منيبين إليه وأتقوه، وأقيموا الصلاة، ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ فنهاهم أن يكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا - يعني فرقا متعددة وأحزابا متعادية، وأعاد لفظة ﴿من﴾ فى قوله: ﴿**من الذين فرقوا دينهم**﴾ ليبين أن هذا بدل من الذى قبله، والبدل هو المقصود، وما قبله توطئة له، فهذا تحذير بليغ عن الإختلاف والتفرق.

ودلت هذه الآية على أن الإختلاف والتفرق شيعا لا ينفك عن الشرك لما فيه من عبادة الأهواء.

فالله تعالى جعل دينه واحدا، وأمر رسله أن تدعوا إليه من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما قال تعالى عن أولهم (نوح عليه السلام): ﴿**وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ وقال تعالى عن خليله، وأبى الأنبياء بعده: ﴿**إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله إصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ أي أن إبراهيم ويعقوب كلاهما وصى بنيه بهذا القول وقال يوسف عليه السلام: ﴿**فاطر السماوات والأرض أنت وليي فى الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين**﴾ وقال موسى لقومه: ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾ وقال المؤمنون الذين كانوا سحرة فهداهم الله: ﴿**ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين**﴾ وقالت ملكة اليمن بعد أن هداها الله تعالى: ﴿**ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾ وأخبر تعالى عن أنبياء بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿**يحكم بها النبيون الذين أسلموا**﴾ وقال حواريُّ عيسى عليه السلام: ﴿**قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون**﴾ وقال تعالى عن خاتم رسله: ﴿**قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين**﴾ وقال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون**﴾ وفى الصحيحين أن النبي - ﷺ - قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد».

وليس تنوع الشرائع مخالفا لذلك أومانعا منه، بل أصل الدين الذي جاءت به الرسل كلهم واحد، هو الإسلام، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإن كان لكل نبي شرعة، وهذا مثل ما كان فى أول الإسلام لما كانت القبلة إلى بيت المقدس ثم حولت إلى الكعبة، والدين واحد فى كلتا الحالتين، وهكذا شرائع الأنبياء، ولهذا إذا ذكر الله الحق جعله واحدا، وإذا ذكر الباطل جعله متعددا، كقوله تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه،**

ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ .

فالمتعين على المسلم أن يكون أصل قصده توحيد الله تعالى ـ بعبادته وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ـ ﷺ ـ بإتباع أمره ، وإجتناب نهيه ، يدور مع ذلك حيث وجده ، فى قوله ، وعمله ، فلا ينتصر لقول شخص مهما كان ، إنتصارا مطلقا إلا لرسول الله ـ ﷺ ـ لأنه لا ينطق عن الهوى ، وهو معصوم عن الخطأ فى ما يبلغه عن الله تعالى ، ويعلم أن أفضل الناس بعد الأنبياء هم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فلا ينتصر لطائفة إنتصارا عاما مطلقا إلا لهم ، ومن عداهم فالإنتصار لهم يجب أن يكون بقدر ما معهم من الحق ، وذلك لأن الحق والهدى يدور مع الرسول ـ ﷺ ـ ، وأصحابه إذا إجتمعوا فهم على الحق قطعا ، بخلاف أصحاب غيره من الأئمة ، فيجوز أن يجتمعوا على الباطل ، أما مجموع الأمة فلا تجتمع على الباطل ومن الممتنع أن لا يعرف الصحابة الحق الذى جاء به رسول الله ـ ﷺ ـ وأن يعرف أحد من العلماء بعد الصحابة ، ما لا يعرفه الصحابة بمجموعهم ، أو يعرف حقا يخالف ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ بل كل ما خالف قوله أو فعله فهو باطل .

والصحابة هم الذين بلغوا الدين عن الرسول ـ ﷺ ـ فلا يمكن معرفة ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ إلا بواسطتهم ، ولهذا صار الطعن فيهم طعنا فى الدين .

والمؤمن بالله حقا ، ظاهرا وباطنا هو الذي قصده إتباع الحق ، وما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وإن وقع فى خطأ فهو غير مقصود ، بخلاف أهل البدع والإختلاف فإنهم لا يقصدون إتباع الحق ، بل يتبعون أهواءهم ، وما تزينه لهم شياطينهم وعلى ذلك يعادون ويوالون ، ويقصدون نصر جاههم ، ورياستهم ، وما ينسب إليهم ، لا يريدون أن تكون كلمة الله هى العليا ، وأن يكون الدين كله لله .

ولهذا نجدهم يغضبون على من خالفهم ، وإن كان مجتهدا معذورا ، ويرضون على من يوافقهم وإن كان جاهلا منافقا سيىء القصد ، ليس له علم ولا حسن قصد ، ولهذا يذكر العلماء : أن من عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا ، ولعن بعضهم بعضا ومن مدائح أهل السنة أنهم يخطئون ولا يكفرون ، فأهل البدع يحمدون من لم يحمده الله ورسوله ، ويذمون من حمده الله ورسوله .

فهم فى الحقيقة يتبعون أهواءهم ، ولهذا يسميهم السلف أهل الأهواء ، لأنهم لا ينظرون إلى أن يكون دين الله هو الظاهر ، وكلمته العالية ، ومن هنا تنشأ الفتن بين الناس ، قال الله تعالى : **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾** فإذا لم يكن الدين كله لله فالفتنة موجودة .

وأصـــل هذا الـدين أن يكـون الحب لله ، والبغض لله ، والمـوالاة له ، والمعـاداة فيـه ، والعبادة كلها لله ، وهذا لا يمكن إلا بمتابعة الرسول - ﷺ -.

ولهـذا قال العلماء : إن قول الـرسول - ﷺ -: «إنما الأعمال بالنيات ، ولكل إمرىء ما نوى» نصف الـدين ، ونصفـه الآخـر قوله - ﷺ -: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهورد» لأن الأول يتضمن المقاصد ، والثاني يتضمن المتابعة ، وكلاهما شرط فى صلاح العمل وتهيئته للقبول .

فلابـد من إخـلاص العمـل لوجـه الله تعـالى ، ومن الإعتصام بحبل الله ، وهو إتباع كتابه وسنة رسوله - ﷺ - فإن لم يكن ذلك فالهلاك أقرب إلى الإنسان من عنقه ، وألزم له من ظله ، نسأل الله الهداية والتوفيق وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

الوحدة الإسلامية
أسسها ووسائل تحقيقها

للدكتور أحمد بن سعد حمدان الغامدي
أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

قال الله تعالى :
﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾
(آية ١٦٣ سورة البقرة)

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾
(آية ٥٢ ـ سورة المؤمنون)

المقدمـــة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين. . وبعد :

فإن إحساس الأمة المسلمة بحاجتها إلى اللقاء والتعاون إحساس منطقى وواقعى . . وذلك لأنها قد اضرت بها الخلافات . . وانهكتها النزاعات التى كانت سببا لضعفها وضياع حقوقها فى عصر لم يعد يسمع فيه صوت الضعفاء ولا أنين الجرحى .

قال تعالى : **﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾**[1] .

فارتفاع الأصوات المسلمة هنا وهناك تنادى بضرورة وحدة الأمة واجتماع كلمتها ـ أصوات صادقة ينبغى أن تتجاوب لها الأقطار الإسلامية لتنقذ نفسها وتحمى حقها .

قال تعالى : **﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾**[2] .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٤٦ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

ولكنـه لابـد للأمـة المسلمـة ــ وهى تلم شعثهـا وتوحد صفوفها ــ لابد لها من إدراك صحيح للأسباب التى كانت وراء هذا الواقع السيىء الذى تعيشه والأسس التى ينبغى أن تلتقى عليهـا والـوسـائل التى يمكن أن تتحقق بها تلك الأسس، وذلك لئلا تنتقل من واقع منحرف إلى واقع آخر منحرف.

وإننى إذ أكتب هذا البحث لآمـل أن ينفـع الله به عز وجـل الأمـة المسلمة وهى تتجه إلى الله عز وجل وتعمل على توحيد كلمتها إنه سميع مجيب.

وعنوان البحث : (الوحدة الإسلامية : أسسها ووسائل تحقيقها)، وقد تضمن أربعة أقسام وخاتمة.. وذلك على النحو التالى :

القسم الأول : واقع الأمة الإسلامية :

أولا : فى العقيدة.

ثانيا : فى العبادة.

ثالثا : فى الشريعة.

القسم الثانى : أسباب هذا الواقع :

أولا : الجهل بدين الله عز وجل.

ثانيا : الغزو العسكرى لبلدان المسلمين.

ثالثا : الغزو الفكرى.

القسم الثالث : أسس وحدة الأمة الإسلامية :

أولا : وحدة الغاية.

ثانيا : وحدة العقيدة.

ثالثا : وحدة القيادة.

رابعا : وحدة التشريع.

القسم الرابع : وسائل تحقيق أسس الوحدة :

أولا : التعليم الموجه.

ثانيا : الإعلام الملتزم.

ثالثا : الاقتصاد المستقل.

رابعا : العمل على الاكتفاء الذاتى.

خامسا : إيجاد مراكز علمية.

الخاتمـــة :

وأخيرا أسأل الله عز وجل أن يهيىء أسباب وحدة الأمة وأن يجمع كلمتها على الحق إنه سميع مجيب.



القسم الأول
واقع الأمة الإسلامية

أولا : فى العقيدة :

أ ـ انحرافات إلحادية .

ب ـ انحرافات فى الجانب النظرى ـ العلمى ـ من العقيدة .

جـ ـ انحرافات طائفية قديمة .

د ـ انحرافات طائفية حديثة .

ثانيا : فى العبادة :

أ ـ الغلو المفرط فى أدائها .

ب ـ الإهمال المطلق بها .

جـ ـ عدم الالتزام بالأداء الصحيح لها .

ثالثا : فى الشريعة :

أ ـ محاربة الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها .

ب ـ محاولة التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأنظمة الوضعية .

القسم الأول
واقع الأمة الإسلامية

واقع الأمة الإسلامية واقع مكشوف لا يكاد يجهله أحد، فقد تعرض لأمراض متعددة وانحرافات متنوعة بحيث لا يكاد يسلم جانب من جوانبه ـ لا فى العقيدة، ولا فى العبادة، ولا فى الشريعة ـ.

وسأحاول فيما يأتى الإشارة إلى هذا الواقع بشىء من الإيجاز.

أولا : فى العقيدة :

إن أخطر الانحرافات التى تعرضت لها الأمة المسلمة هى الانحرافات فى العقيدة ولا نستطيع هنا استيعابها وتفصيلها ولكنا سنكتفى هنا بالتنبيه على بعضها.

أ ـ انحرافات إلحادية :

هدف أصحابها استبدال المبادىء الكافرة بعقيدة الإسلام، وهم طوائف متعددة ويسلكون طرقاً متنوعة.

يقول الأستاذ مصطفى صبرى : (ومن البلية أن الحركات التى تثار فى الأزمنة الأخيرة ترمى إلى محاربة الإسلام فى بلاده بأيدى أهله والتى لاشك أنه الكفر وأخبث افانين الكفر. . .)[1].

ويقول فى مكان آخر : (لكن البلاد الإسلامية عامة ومصر خاصة مباءة اليوم لفئة تملكوا أزمة النشر والتأليف ينفثون من أقلامهم سموم الإلحاد غير مجاهرين بها وربما يتظاهرون بالدين)[2].

ويقول الدكتور محمد محمد حسين بعد عرضه للدعوات الهدامة : (كانت هذه الدعوات تسلك إلى أهدافها مسالك متباينة وتلبس أثوابا مختلفة ولكنها جميعا ترمى فى آخر الأمر إلى توهين أثر الإسلام فى النفوس وتفتيت وحدته التى استعصت على القرون الطوال)[3].

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ٤/٢٨١ ـ الحاشية.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٨٧.

(٣) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ٢/٣٠٥.

ب ـ انحرافات فى الجانب النظرى ـ العلمى من العقيدة :

وذلك فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله .

فقد وجدت الاتجاهات المنحرفة التى تتنكر لهذا الجانب أو لبعضه فأولت الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة وردت الأحاديث الأخرى والتى تعرف الناس بربهم عز وجل .

وكان أول من أظهر هذه البدعة الضالة ـ بدعة الحديث فى أسماء الله وصفاته وتأويلها ـ الجعد بن درهم فأول الاستواء والكلام لله عز وجل[1] وتبعه على ذلك المعتزلة الذين أصبحوا فيما بعد فرقة مستقلة فى منهجها وفهمها تقابل أهل السنة .

قال الشهرستانى : (الفريقان من المعتزلة والصفاتية متقابلان تقابل تضاد)[2] .

وقد أتى القوم من ضلال عقولهم القاصرة وظنهم أن إثبات تلك الصفات الواردة فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ يقتضى التشبيه بالمخلوق .

وينتج عن هذا المذهب أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يستطيعا بيان مراد الله عز وجل من خلقه من أقرب الطرق .

فتعددت بذلك الفرق وانقسم المسلمون إلى متابع لهذه الطائفة ومخالف لها وحدثت فى تاريخ الأمة الإسلامية بسببها حوادث ومشكلات ، ولازالت آثار هذه الطائفة قائمة فى المجتمع الإسلامى إلى اليوم .

جـ ـ انحرافات طائفية قديمة :

لازالت قوية ونشطة رغم انحرافها وفساد معتقداتها . ومن تلك الطوائف : (طائفتا الشيعة والصوفية) .

فالأولى تقوم على عقيدة تخالف عقيدة الإسلام التى جاء بها رسول الله ﷺ .

فمن ذلك أسباغ صفات الألوهية على أئمتهم وادعاؤ هم أنهم يعلمون الغيب وانهم يتلقون الوحى من السماء وفى كلا الأمرين اساءة إلى الله عز وجل وتكذيب لدينه .

وأخيراً فانهم يتهمون أصحاب رسول الله ﷺ بالخيانة والردة عن الإسلام ، وهذا يؤ دى إلى إبطال الإسلام .

فأما ادعاؤ هم علم الغيب لأئمتهم فقد ورد فى أهم مصادرهم بألفاظ صريحة فى أبواب مستقلة .

(١) راجع الفتاوى ٥/ ٢٠ ، ولوامع الأنوار البهية ١/ ٢٣ .

(٢) الملل والنحل ١/ ٤٣ .

فقد ورد فى كتاب : (أصول الكافى) ــ وهو أهم كتاب عندهم ــ[1] عناوين تؤكد ذلك.

منها : (باب ان الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم)[2].

ومنها : (باب ان الأئمة إذا شاءوا ان يعلموا علموا)[3].

ومنها : (باب ان الأئمة عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون وانه لا يخفى عليهم الشىء صلوات الله عليهم)[4].

وأما ادعاء نزول الوحى على الأئمة فيذكرون عن جعفر الصادق أنه قال ــ وهو يتحدث عن مصادر علم الأئمة ــ : (وأما النقر فى الأسماع فأمر الملك)[5] أى صوت الملك.

فعلم الغيب لا يظهر الله عز وجل عليه إلا أنبياءه ورسله كما جاء ذلك فى كتاب الله عز وجل حيث يقول : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾[6].

ولكن الشيعة تعتقد أن الأئمة يأتيهم خبر السماء كما روى ذلك الكلينى مؤلف أصول الكافى فقال : (ان المفضل سأل أبا عبد الله ــ أى جعفر الصادق ــ بقوله : جعلت فداك بفرض الله طاعة عبد على العباد ويحجب عنه خبر السماء).

قال : لا : الله أكرم وأرحم وارأف بعباده من أن يفرض طاعة عبد على العباد ثم يحجب عنه خبر السماء صباحا ومساء)[7] ويعلق الشارح على هذا القول فيقول : (ولذلك الامامية ذهبوا إلى أن الامامة لا تصلح إلا لمن له منزلة النبوة)[8].

هذه بعض عقائدهم المنحرفة والتى تجعل لهم اتجاها آخر ودينا يخالف دين المسلمين.

---

(١) يقول أحد شراح هذا الكتاب وهو: عبد الحسين بن عبد الله المظفر فى مقدمة الشرح: (ان كتاب الكافى فى طليعة الكتب الأربعة التى هى محور العمل عليها)، ٣/ ثم قال مفضلا له على تلك الكتب: (وهذا الكتاب أوفاها فى الحديث ولم يعمل الامامية مثله.. وعليه اعتماد العلماء منذ أن دونه مؤلفه حتى اليوم ١ /٥.

(٢) أصول الكافى ٣ /٢٣٢.

(٣) أصول الكافى ٣ /٢٧١.

(٤) أصول الكافى ٣ /٢٤٠.

(٥) أصول الكافى ٣ /٢٤٨.

(٦) سورة الجن: آية ٢٦-٢٧.

(٧) أصول الكافى ٣ /٢٤١.

(٨) أصول الكافى ٣ /٢٤٤.

وأما الصوفية فقد ابتدعت تقديس الأفراد ورفع التكاليف عن بعض الناس كما أعادت إلى الأذهان تلك الطقوس الكنسية التى أفسدت الدين النصرانى حيث اتخذت من البشر وسائط عند الله بها تقضى الحاجات وتغفر الزلات إلى عشرات أخرى من الانحرافات.

فأما دعوى سقوط التكاليف فإنهم يزعمون ان للإنسان درجة إذا وصل إليها سقط عنه التكليف.

قال ابن تيمية رحمه الله : (ومن هؤلاء - أى الصوفية - من يحتج بقوله تعالى : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ ويقول معناها : أعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة فإذا حصل ذلك سقطت العبادة، وربما قال بعضهم : اعمل حتى يحصل حال فإذا حصل لك حال تصوفى سقطت عنك العبادة)[١].

ويقول عنهم كذلك : (والغالبة فى المشايخ قد يقولون : ان الولى محفوظ والنبى معصوم وكثير منهم ان لم يقل ذلك بلسانه فحاله حال من يرى أن الشيخ أو الولى لا يخطىء ولا يذنب)[٢].

ويقول الدكتور ابراهيم هلال وهو يتحدث عن نتائج غلو الشيعة والصوفية فى ذكر فضائل الأولياء : (ولعل أبرز مظاهر هذا التفضيل ما يدعيه بعض الصوفية من حلول الله فيهم أو اتحادهم به مما يتضمن القول بألوهيتهم وتصرفهم فى الأكوان وفى الناس)[٣].

ولعل هذا هو السبب وراء التقديس وصرف العبادة إلى الأولياء المتمثل فى بناء القباب على قبورهم والطواف حولها ودعاء أصحابها والذبح والنذر لهم إلى غير ذلك من صور العبادات التى لا يكاد يسلم منها بلد من بلدان المسلمين إلا من رحم الله عز وجل.

وقد كان هذا الانحراف فى الفكر الصوفى من الأسباب المباشرة لظهور الشرك فى الأمة بتقديس الأموات وطلب الحاجات منهم واتخاذ قبورهم مزارات وأماكن عبادة فزاحم تعظيم الأموات توحيد الله عز وجل فى القلوب، فكثرت الأضرحة وتعددت الفرق والأحزاب لكل حزب ضريح به يستغيثون وعنده ينيخون وإليه عند نزول الحوادث يلجأون.

٦ - انحرافات طائفية حديثة :

تتمثل فى طوائف مستقلة - كالبهائية والقاديانية - ونحوها من الطوائف التى خرجت

(١) الفتاوى ١١/٤١٧.
(٢) منهاج السنة ١/٤٤.
(٣) ولاية الله والطريق إليها /١٨٧/.

على عقيدة الإسلام بدعوى النبوة لزعمائها ونزول الوحى عليهم وهى تتستر فى كثير من البلدان باسم الإسلام وهى خارجة عليه لمخالفتها العقيدة : (ختم النبوة) التى هى جزء من عقيدته.

فإن زعيم البهائية (حسين على المازندرانى) يزعم أنه نزل عليه الوحى وجمعه فى كتاب سماه: (الأقدس)[1] وقد ورد فى هذا الكتاب ما يلى : (لا تحسبن إنا أنزلنا لكم الأحكام بل فتحنا ختم الرحيق المختوم بأصابع القدرة والاقتدار يشهد بذلك ما نزل من قلم الوحى تفكروا يا أولى الأفكار)[2] فهو يزعم بهذا انه قد فتح باب النبوة وفض ختمها ليوحى إلى البهاء وهو ما صرح به فى كتاب آخر من كتبه حيث ذكر انه : (فك ختم النبيين)[3].

وكذلك زعيم القاديانية : (غلام أحمد بن غلام مرتضى) له كتاب اسمه : (تذكرة وحى مقدس)[4] يزعم أنه أوحى به إليه وقد كتب بأربع لغات وهى : العربية ، والفارسية ، والاردية ، والانجليزية.

وقد ورد فيه ما يلى : (إنا أرسلنا أحمد إلى قومه فاعرضوا وقالوا : كذاب أشر)[5] و : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وتهذيب الأخلاق)[6].

وليست هاتان الطائفتان هما الوحيدتين فى ادعاء نزول الوحى بل هناك طوائف أخرى وأشخاص آخرون ادعوا نزول الوحى كزعيم البلالين : (اليجا محمد علي) فى أمريكا وغيره.

ثانيا : فى العبادة :

لقد تعرضت العبادات إلى انحرافات أخرى متعددة نورد طرفا منها :

أ ـ الغلو المفرط فى أدائها :

والذى كان يتمثل فيما سبق فى طائفتى الخوارج والصوفية حيث كان لكل منهما غلو مفرط فى جانب أو جوانب منها.

فالخوارج شددوا على أنفسهم وحملوها فوق طاقتها من قيام بالليل وصيام بالنهار حتى ظهر ذلك على ملامح وجوههم ومظاهر أجسادهم.

(١) هذا الكتاب مطبوع مع كتاب : (خفايا الطائفة البهائية).
(٢) ص ١٤١.
(٣) ذكره محى الدين الخطيب فى كتابه : «البهائية» ص ٢٧.
(٤) وهو مطبوع فى الهند.
(٥) ص ٤٠٣.
(٦) ص ٤٠٦.

وقد وصفهم ابن عباس بعد زيارة لهم فقال: فدخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهادا، جباههم قرحة من السجود وأياديهم كأنها ثفن[1] الإبل وعليهم قمص مرحضة[2] مشمرين مسهمه[3] وجوههم من السهر..)[4].

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الطائفة بقوله: (يخرج قوم من أمتى يقرؤ ون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرؤ ون القرآن يحسبون انه لهم وهو عليهم ولا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية...) رواه مسلم وأبو داود[5].

وأما الصوفية فقد بالغوا فى الذكر والزهد وعاشوا فى ظلمات الخلوات للوصول إلى (درجة اليقين) التى تسقط عندها عنهم كل التكاليف الشرعية ــ بزعمهم ــ[6].

وقد أنكر ابن عقيل رحمه الله عليهم هذه الأهواء والبدع فقال: (ما أعجب أموركم فى المتدين: إما أهواء متبعة أو رهبانية مبتدعة)[7].

ب ــ الاهمال المطلق للعبادات والاكتفاء بالتلفظ بالشهادتين :

وهذا الانحراف كان من ثمرات الارجاء الذى لا يعطى للعمل اهتماما إذ ان الإيمان يثبت عند المرجئة بالقول فقط ــ عند بعضهم ــ وبالاعتقاد عند البعض الآخر.

وكان جهم بن صفوان هو أول من زعم أن: (الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط والكفر هو الجهل به فقط)[8].

وذكر البغدادى أن المرجئة: (إنما سموا مرجئة لأنهم أخروا العمل عن الإيمان).

---

(١) الثفن: جمع ثفنه: ركبة البعير ونحوها مما يحصل فيه غلظ من أثر البروك.

(٢) رحضة: وصف للملابس القديمة التى بليت من كثرة استعمالها وغسلها.

(٣) مسهمة: أى متغيرة.

(٤) تلبيس ابليس ص ٢٠٥.

(٥) رواه مسلم ح/١٠٦٦، وأبو داود ح: ٤٧٦٨ وما بعده.

(٦) الفتاوى ١١/٤١٧.

(٧) تلبيس ابليس ص ٢٠٦.

(٨) مقالات الاسلاميين ١/٢١٤، الفرق بين الفرق ٢١١-٢١٢.

جـ ــ عدم التزام كثير من المسلمين بالأداء الصحيح للعبادات :

فترى أحدهم يؤدى هذه العبادات ولا يلتزم فيها بشروطها وواجباتها وأوقاتها .

ثالثا : فى الشـــــريعة :

لم تقتصر الانحرافات على الجانبين السابقين بل شملت ــ كذلك ــ حتى جانب الشريعة حيث تعرضت فى الأونة الأخيرة التى تمزقت فيها الأمة وتحطمت فيها الخلافة الإسلامية ــ تعرضت إلى انحراف وفساد بل إلى حرب وعداء فى كثير من البلدان الإسلامية نعرض طرفا منها :

أ ــ محاربة الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها :

وهذا من آثار الاستعمار العسكرى والفكرى الذى فرق الأمة وأفسد عقليتها بحضارته وصناعته وكفره وجحوده . . فوجد فى المسلمين من يتحمس لقوانينه وفكره ويدعوإلى تطبيقها ومتابعتها .

وقد حظيت هذه الفئة بعناية الاستعمار ورعايته وسلم له زمام المجتمعات التى كان يسيطر عليها فخلفه فيها وقام على تطبيقها وتنفيذها بكل دقة .

ولعل الشروط التى فرضتها دول الاستعمار على مصطفى كمال أتاتورك تبين المخطط الاستعمارى لحرب الإسلام ومحاولة فصل الأمة عنه .

يقول الأستاذ محمد محمود الصواف : (وهذه هى الشروط الأربعة المشئومة التى فرضتها دول الاستعمار على تركيا :

١ ــ إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا .
٢ ــ ان تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام .
٣ ــ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية فى تركيا .
٤ ــ أن يستبدلوا الدستور العثمانى القائم على الإسلام بدستور مدنى بحت .
فقبل مصطفى كمال هذه الشروط ونفذها بحذافيرها فتركته دول الاستعمار)[1] .

---

(١) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ١٢٨ .

ب ـ محاولة التوفيق بين الشريعة الإسلامية والأنظمة الوضعية :

فيؤخذ من الشريعة ما يتعلق بالأمور الشخصية وتكمل بقية الجوانب من القوانين الوضعية.

وقد ذكر الأستاذ محمد الخضر الحسين[1] عن أسلوب دعاة هذا المبدأ فقال: (فاخترع هؤلاء طريقا حسبوه أقرب إلى نجاحهم وهو: ان يدّعوا أن الإسلام: توحيد وعبادات ويجحدوا ان يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء والسياسة وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه لعلهم يجدون فى الناس جهالة أو غباوة فيتم لهم ما بيتوا)[2].

ويقول الأستاذ مصطفى صبرى[3] عن هذه المحاولة والتى تعنى فصل الدين عن الحكم والسياسة: (لكن حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه وقد كان فى كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون فى البلاد الإسلامية كيد للدين ومحاولة الخروج عليه لكن كيدهم فى فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد فى غيره فهو ثورة حكومية على دين الشعب)[4].

هذا عرض موجز لواقع المسلمين الذى قد أصيب فى كل جانب من جوانبه مما كان له أسوأ الأثر على وحدة الأمة واجتماع كلمتها. . فقد أصيبت الأمة فى عقائدها . . وعباداتها . . وشريعتها . .

وما لم يصحح هذا الواقع على ضوء التوجيهات الواردة فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فلن تقوم للأمة قائمة ولن تجتمع لها كلمة.

---

(١) عالم جزائرى هاجر إلى دمشق ثم إلى القسطنطينية واستقر أخيرا بمصر وتولى مشيخة الأزهر. توفى عام ١٣٧٧هـ. انظر معجم المؤلفين ٩/٢٧٩.

(٢) رسائل الاصلاح ١/١٠٥-١٠٦.

(٣) وهو عالم تركى تولى مشيخة الاسلام فى تركيا وقد عاصر بداية فصل الدين عن السياسية فى عهد مصطفى كمال وقاومها أشد المقاومة ثم هاجر إلى مصر وتوفى بها عام ١٣٧٣هـ. انظر الاعلام ٨/١٣٧.

(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المسلمين ٤/٢٨١.

القســم الثانى
أسباب هذا الواقع

أولا : جهل الأمة بدينها .
ثانيا : الغزو العسكرى .
ثالثا : الغزو الفكرى .

القسم الثانى

أسباب هذا الواقع

لقد كانت هناك أسباب متعددة وراء ذلك الواقع نذكر أهمها :

أولا : جهل الأمة بدينها :

فقد انتشر الجهل فى الأمة قيادات وشعوبا حتى أصبح كثير منهم لا يعرف من دينه إلا اسمه فلا يعرف أحكامه وعقائده ولا أخلاقه وآدابه فسهل على أعداء الله عز وجل ان ينشروا ضلالهم وان يبثوا سمومهم بل وسهل عليهم أن يصنعوا لهم عملاء من أبناء المسلمين يحاربون عقيدة المسلمين وينشرون الضلال فى صفوفهم .

قال الأستاذ محمد كرد علي : (أصبح الناس بعد المائة السادسة تفتر هممهم شيئا فشيئا فى طلب العلم ورغبوا عن الافتنان بفنونه وحصروا نطاقه وعفوا بعض معالمه فأصبحت مجاهل وكثرت البدع وكثر الدعاة إليها والتعويل عليها)[1] .

ويذكر الأستاذ الندوى وهو يتحدث عن الجهل الذى أصاب تركيا (انه لم يكن الجمود العلمى والكلال الفكرى مقتصرين على تركيا وأوساطها العلمية والدينية فحسب بل كان العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه مصابا بالجدب العلمى وشبه شلل فكرى قد أخذه الإعياء والفتور واستولى عليه النعاس)[2] .

ثانيا : الغزو العسكرى لبلدان المسلمين :

كانت الأمة الإسلامية أمة واحدة تستظل براية واحدة وتخضع لقيادة واحدة فكانت ذات شوكة ومنعة ثم لم تلبث أن سرت فيها أمراض فتاكة خلخلت بناءها وأفسدت أبناءها فضعفت قوتها وذلت عزتها فسهل على أعدائها القضاء عليها وتمزيقها إلى دويلات وإمارات واستولت على كثير منها فترات طويلة استطاعت فيها أن تفسد عقائدها وأخلاقها وتغير ولاءها .

يقول برنارد لويس : (وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعدلت

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ٤٥ .

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٥١ .

وتغيرت الولاءات التى كانت قائمة للخلافة الإسلامية القديمة والتى كانت تحكم العرب والعجم والترك وحلت محلها أفكار ممزقة مبعثرة أوروبية هى مزيج من الوطنية والقومية ونظريات خيالية عن الوطن والقوم حجبت الحقائق القديمة الواقعية فى الدولة والعقيدة)[1].

فأصبحت بعد ذلك الأمة الواحدة أمما مختلفة ومجتمعات متعددة لكل منها شعاره ومذهبه فتمزقت وحدة الأمة وتعددت ولاءاتها بحسب شعاراتها ومذاهبها.

وكان هذا كله بسبب الغزو العسكرى الذى احتل بلاد المسلمين فترات متفاوتة ركز خلالها على افساد عقيدة الأمة وأخلاقها وقسمها بعد ذلك إلى دول ومناطق أقام لكل واحدة منها حاكما مستقلا.

ثالثا : الغزو الفكرى :

لم يكتف الاستعمار بتحطيم الخلافة الإسلامية وتفريق الأمة إلى دول وشعوب.. ونهب خيراتها وتشتيت ولاءاتها.. بل أضافوا إلى ذلك غزوا للعقول والقلوب بشعارات ومبادىء جديدة تفسد العقول وتخرب القلوب ليبقى لهم السيطرة والنفوذ مادامت هذه الشعارات والمبادىء تحكم هذه البلاد.

وقد ذكر الأستاذ محمد محمود الصواف عن وسائل الاستعمار فى غزو المسلمين والجبهات التى تشترك فى ذلك الغزو، وأكد أن جميع تلك الجبهات تعمل: (سرا وجهرا لأهداف الإستعمار التى يرمى من ورائها إلى إيقاف الوعى الإسلامى وصد المسلمين عن دينهم إبقاء لسيطرته ونفوذه فى بلاد المسلمين وليتمتع هو وجنوده الأبالسة فى خيرات بلاد المسلمين ويسعى فى سرقة ثرواتهم والسيطرة عليهم فكريا وسياسيا واقتصاديا.

لذا أخذ المستعمرون يبذلون كل الجهود لإشاعة الفساد فى المجتمع الإسلامى العظيم وزرع الشكوك فى العقول الإسلامية وقتل الطموح فى نفوس المسلمين، وبث الفرقة والشقاق فى الصف الإسلامى حتى تعاونت جميع أجهزة الإستعمار من دعائية وسياسية وفكرية واقتصادية لتحقيق أهداف الإستعمار)[2].

وقد شارك اليهود الإستعمار الصليبى فى تصدير الأفكار والمذاهب المنحرفة إلى بلاد المسلمين.. بل لعل اليهود أكثر حماسا وحقدا على الإسلام، والتاريخ يؤكد هذه الحقيقة

---

(١) الغرب والشرق ص ١١٠.

(٢) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ٩٩-١٠٠.

حيث كان اليهود هم أول من وقف فى وجه الإسلام وحاولوا القضاء عليه ولكن الله عز وجل رد كيدهم فى نحورهم وحفظ دينه وأعلا كلمته.

فعبد الله بن سبأ «يهودى» أظهر الإسلام لإفساد الإسلام، ودعاة الإلحاد وزعماؤه اليوم «يهود» أرادوا إفساد العالم:

كارل ماركس الشيوعى «يهودى»[1].

وفرويد «يهودى»[2].

ودور كايم «يهودى»[3].

وهؤلاء هم زعماء المذاهب المنحرفة فى الاقتصاد والأخلاق والاجتماع وقد أثرت مذاهبهم فى المجتمعات البشرية عموما وفى المجتمعات الإسلامية على وجه الخصوص.

يقول الأستاذ أنور الجندى: (ولا ريب أن اليهودية العالمية هى التى أثارت فى العالم الإسلامى تمزيق وحدة العروبة والإسلام للحيلولة دون الوحدة وعملا على تعميق التجزئة الاقليمية.

ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة المدى فى الفكر الإسلامى وفى القرآن نفسه فقد طرحت عشرات المذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والنماذج التى طرحت فى أوروبا لافساد المفهوم الإسلامى الجامع للعرب والإسلام)[4].

ويعترف اليهود بذلك فى (بروتوكولاتهم) حيث يقول البروتوكول التاسع: (ولقد خدعنا الجيل الناشىء من الأميين وجعلناه فاسدا متعفنا بما علمناه من مبادىء ونظريات معروف لدينا زيفها)[5].

وكان من جراء هذا الغزو المشترك أن ظهرت فى بلاد المسلمين اتجاهات منحرفة تتبنى تلك العقائد الضالة وتحاول نشرها فى المجتمعات الإسلامية ولعل الصورة التى يعرضها اللورد كرومر للجيل المصرى الجديد ــ كما تصورها هو ــ تنطبق إلى حد ما على مجموعات من أبناء المسلمين الذين أثر فيهم الغزو الفكرى الغربى.

يقول: (ان المجتمع المصرى فى مرحلة الانتقال والتطور السريع وكان من نتيجته

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ١٠١.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة ص ١٠٧.

(٣) مذاهب فكرية معاصرة ص ١٤٤.

(٤) الاسلام والعالم المعاصر ٤٢٧.

(٥) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٢٨.

الطبيعية ان وجدت جماعة من أفرادهم «مسلمون» ولكنهم متجردون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية وان كانوا «غربيين» فإنهم لا يحملون القوة المعنوية والثقة بأنفسهم وان المصرى الذى خضع للتأثير الغربى فإنه وان كان يحمل الإسم الإسلامى لكنه فى الحقيقة ملحد وارتيابى والفجوة بينه وبين عالم أزهرى لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهرى وبين أوربى)[1].

هذه هى ثمار الغزو الفكرى فى بلاد المسلمين.

(١)ذكره الأستاذ الندوى فى الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الاسلامية ص ١١٤.

القســم الثالث

أســس الوحــدة الإســلامية

أولا : وحدة الغاية .

ثانيا : وحدة العقيدة .

ثالثا : وحدة القيادة .

رابعا : وحدة التشريع .



القسم الثالث

أسس الوحدة الإسلامية

ان الأمة الإسلامية تملك أسسا مشتركة تستطيع بها أن تجمع شتاتها وتوحد كلمتها . . فهى أمة واحدة . . ذات دين واحد . . وكتاب واحد . . ورسول واحد . . وهذه هى الأصول والأسس التى تشترك فيها الأمة الإسلامية .

فإذا ما أدركت جيدا والتزمت بمقتضياتها فإن ذلك يجعل منها أمة واحدة تلتقى على :

أولا : وحدة الغاية .

ثانيا : وحدة العقيدة .

ثالثا : وحدة القيادة .

رابعا : وحدة التشريع .

وبهذا تصبح الشعوب الإسلامية «أمة واحدة» تذوب فيها جميع الأجناس والتجمعات شعارها : (وان هذه أمتكم أمة واحدة) فتحقق للأمة الإسلامية عزتها وقوتها المنشودة .

وفيما يلى نبين بإيجاز تلك الأسس :

أولا : وحدة الغاية :

ان لهذا الإنسان الذى يعيش على ظهر هذه الأرض : «غاية» يؤديها أثناء وجوده إذا عرفها وتمثلها فى حياته سعد فى دنياه وآخرته وإذا جهلها أو أعرض عنها فانه يشقى فى الدنيا والآخرة .

هذه الغاية حددها الله عز وجل بنفسه وبينها فى كتبه . . فمن أجلها خلق الإنسان . . ألا وهى : «عبادة الله عز وجل» كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] .

والمسلمون ولله الحمد يدركون هذه الغاية ويعرفونها ولكنهم فرطوا فى القيام بها والعمل بمقتضاها مما كان له أسوأ الأثر فى حياتهم .

فلابد من العودة الصادقة إلى تحقيق هذه الغاية والالتزام بمقتضياتها ليحقق المسلمون لأنفسهم السعادة فى الدنيا والآخرة .

(١) سورة الذاريات : آية ٥٦ .

السعادة فى الدنيا باجتماع الكلمة ووحدة الأمة وطمأنينة النفس واستقامة الحياة. . وهى آمال يحلم بها جميع شعوب العالم ولكنهم لم يهتدوا إلى أسبابها ووسائلها.

ولكن تعدد الغايات وتنوعها يفتت الأمة ويشتت كلمتها ويجعل كل فئة من الأمة لها غاية تخالف غاية الفئة الأخرى تسعى لتحقيقها والوصول إليها.

فغاية اقتصادية. . وغاية سياسية. . وغاية شهوانية. . وهكذا غايات متعددة تنتهى بهم إلى فئات متصارعة وسبل متفرقة.

قال عز وجل: ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[1].

ثانيا: وحدة العقيدة:

إن التفرق الذى ابتليت به الأمة فى عقيدتها ـ كما رأينا طرفا منه فى أول البحث ـ لا يمكن أن يكون معه اجتماع للأمة ولا تعاون ولذلك فإنه لابد أولا من علاج لذلك التفرق برد الملحدين إلى الله عز وجل وتصحيح عقائد المنحرفين لتتوحد القلوب وتتآلف النفوس.

فأما الذين ابتلوا بمرض الالحاد فقد كان ذلك فى غيبة من الوعى الإسلامى وفى وقت الانبهار بالحضارة الغربية التى تمردت على الدين بل حملت لواء الحرب ضده.

والآن وقد بدأ المسلمون يدركون حقيقة الحضارة الغربية وما تحمله من سلبيات وثمرات فاسدة. . بدأ الوعى يدب فى صفوفهم ويدركون قيمة هذا الدين وأنه لا سعادة للإنسان فى هذه الحياة بدون أن يلتزم بعقيدته وتوجيهاته.

يقول الأستاذ محمد محمود الصواف: (وفى يقينى أن الزمن الذى كان يسمى فيه الإسلام «رجعية» و«تزمتا» قد مضى وانقضى حيث تعرى خصوم الإسلام وانكشفوا وظهر زيف دعواتهم الباطلة من قومية واشتراكية وحزبية قاتلة وغيرها من فتن هذا العصر المضللة ورأى الناس خيبتها وخسرانها وتضييعها للأوطان وتدميرها وعبثها بحقوق الإنسان، ورأوا عن كثب ويلاتها على العرب الذين ابتلوا بها، بل ويلاتها على الجنس البشرى فى جميع أنحاء الأرض ومن دعاتها من رأى ذلك بأم عينه ولكنه معاند مكابر لا يعترف باخفاقه ولا يريد الخضوع أمام غيره.

ولم يعد الإسلام «رجعية» كما كانوا يسمونه وتسميه اذاعاتهم بأصواتها المنكرة

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣.

المبحوحة . . بل عاد الإسلام والناس يتلمسونه فى الميدان ويسألون عنه فى كل مكان ونادى به اليوم من لم يكن يعرفه بالأمس ولم يعرف عنه النداء باسمه من قبل . وأمتلأت المساجد بالوافدين الجدد وآب الكثيرون إلى الله سبحانه يسألونه العز والنصر والفرج القريب لهذه الأمة المنكوبة برجالها وشبابها وقادتها فى هذا الجيل المخفق الخاسر الذى هو جيل الهزيمة المنكرة . . فإذا كثر سواد الصالحين وزاد عدد المؤمنين فبشر الأمة بالنصر المبين)[1] .

فالوعى الدينى استيقظ فى الأمة وهو فى حاجة إلى من يوجهه وجهة صحيحة ليكون أساسا واحدا لجمع كلمة الأمة ويقضى على المذاهب المنحرفة والعقائد الضالة المتسللة إلى مجتمعات المسلمين .

وأما الانحرافات الأخرى التى طرأت على عقائد المسلمين سواء فى التوحيد العملى أو فى التوحيد العلمى فإن ذلك يستدعى جهودا مخلصة وأقلاما صادقة تعالج تلك الانحرافات بحكمة وموعظة حسنة إذ أن أصحابها أو كثيرا منهم لم يتعمد الانحراف ولا يرضى به لو كشف له ، لذلك فإن مخاطبتهم يجب أن تكون بأسلوب لين وبجدال حسن .

فإذا قدر للأمة أن تجتمع فى عقيدتها فإن ذلك سيفسح المجال للاجتماع والوحدة الإسلامية .

ثالثا : وحدة القيادة :

للمسلمين قيادة واحدة على مدار الزمن واختلاف المكان وتعدد المذاهب . . وكل قيادة سواها إنما تستمد شرعيتها من متابعتها لهذه القيادة والالتزام بمنهجها والسير على طريقها .

هذه حقيقة يقوى وضوحها فى أذهان المسلمين كلما صفت العقيدة وقوى الإيمان .

وهى حقيقة قررها الله عز وجل فى كتابه وأكدها فى مواطن كثيرة لئلا تغفل عنها الأمة الإسلامية .

قال الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[2] .

---

(١) معركة الاسلام ص ٢٦-٢٧ .

(٢) سورة النساء : آية ٥٩ .

وقال عز وجل : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[2] .

وهكذا تكرر التأكيد على هذه الحقيقة فى عشرات المواضع من القرآن الكريم .

فإذا ما اتضحت هذه الحقيقة وتقررت فى أذهان المسلمين فإنه يمكن أن تتحد كلمتهم وتجتمع صفوفهم .

فالرسول ﷺ هو : «القائد» والجميع اتباع له وأنصار به يتأسون ولحكمه يخضعون وإلى سنته يتحاكمون . . هذا أصل لا يمكن أن تتوحد الأمة بدون ادراكه والالتزام به . . وهذا ما يقتضيه الإيمان بالله عز وجل وإلا فإن الإيمان يبقى دعوى بدون دليل .

وكل قيادة أخرى تحاول أن تلغى هذه القيادة أو تقلل من شأنها فإنها قيادة خارجة عن الإسلام محاربة له . . بل كل قيادة تتمرد هى فى ذات نفسها عن هذه القيادة أو تنحرف عن متابعتها فهى قيادة منحرفة .

رابعا : وحدة التشريع :

من الأسباب الرئيسية لتمزق الأمة الإسلامية تعدد التشريعات وتنوعها تلك التشريعات التى لا صلة لها بها ولا علاقة لها بدينها ، بل هى مضادة لدينها محاربة لعقيدتها . . فوقعت الفجوة بين التشريعات والواقع . . وبين القيادات والشعوب . . بل بين القيادات أنفسها . . فانعكست تلك الخلافات على الأمة الإسلامية .

وما لم يوحد التشريع الذى يحكم الأمة فيكون تشريعا مستمدا من دينها القويم فإن كل محاولة لوحدة الأمة أو لجمع شتاتها فإنها محاولة فاشلة .

فانه ليس هناك مكان لتشريعات أخرى فى المجتمع الإسلامى وليس لأحد من البشر حق وضع تشريع يحكم الحياة فى المجتمع الإسلامى ، فالحق لله عز وجل وحده وليس لأحد من خلقه أن يتلقى تشريعاته من غيره سبحانه .

قال الله عز وجل : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء : آية ١١٥ .

(٢) سورة الحشر : آية ٧ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٦ .

فالنفس البشرية ذات طبيعة معقدة ومعرفة ضوابط إصلاحها أو أسباب فسادها أمر لا يعلمه إلا الله عز وجل وقداعترف علماء الغرب بذلك وأكدوا أن العلوم البشرية لم تستطع أن تبين حقيقة الإنسان.

وأشهر من أعلن هذه الحقيقة هو الطبيب الفرنسى : (الكسيس كاريل) حيث يقول: (فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان مازال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا مازالت بدائية فى الغالب)[1].

فإذا كانت معلومات الإنسان عن نفسه رغم ما يملكه من وسائل المعارف المذهلة التى لم يكن يحلم بوجودها الإنسان فى الزمن الماضى ـ إذا كانت رغم كل ذلك بدائية. . فهل يمكن أن يضع تشريعا يحكم حياته ويقوده إلى تحقيق إنسانيته؟!

ولهذا فإن العودة إلى شريعة الله عز وجل أمر ضرورى. . ضرورى لأنه أمر أوجبه الله عز وجل.

وضرورى لأن الإنسان ليس له قدرة وضع التشريع المناسب.

وضرورى لأن الأمة لا تجتمع وتشريعاتها مختلفة. . إذ للتشريع أثر فى حياة الإنسان. . فى مفاهيمه. . فى تصوراته. . فى موازينه. . فلابد من وحدة التشريع لتتحد مفاهيمه وتصوراته وموازينه. . ومن ثم تتحقق له وحدته المنشودة.

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٩.

القســـم الرابـع
وسائل تحقيق الوحدة

أولا : التعليم الموجه .
ثانيا : الاعلام الهادف الملتزم .
ثالثا : الاقتصاد المستقل .
رابعا : العمل على الاكتفاء الذاتى .
خامسا : ايجاد مراكز إسلامية .



القســم الرابـع

وسائل تحقيق الوحدة

عرضنا فى القسم السابق أسس الوحدة الإسلامية التى لابد من تحقيقها لتوحيد الأمة الإسلامية وهى وان كانت شرطا فى تحقيق إيمان المسلم فلا يكون مسلما بدونها فانها شرط فى تحقيق الأمة واجتماع كلمتها كذلك.

ولكن هذه الأسس ـ كما رأينا من قبل ـ قد تعرضت للفساد والانحراف واختفت أو تشوهت فى كثير من المجتمعات الإسلامية فكان لابد من اظهار ما اختفى منها وتصحيح ما تشوه.

وهـذا أمـر يحتـاج إلى وسـائـل متعـددة وجهـود مكثفة للقيام بذلك الدور ورعايته فى المجتمعات الإسلامية.

ومن تلك الوسائل ما يلى :

أولا : التعليم الموجه.

ثانيا : الاعلام الملتزم.

ثالثا : الاقتصاد المستقل.

رابعا : الاكتفاء الذاتى.

خامسا : ايجاد مراكز علمية.

ونذكر ما يتعلق بهذه الوسائل فيما يلى :

أولا : التعليم الموجـــه :

ان المناهج التعليمية من أخطر الوسائل وأكثرها تأثيرا فى المجتمع إذ أنها طريق للغالبية من المجتمع أو لجميع أفراده بحسب مستوى المجتمع وحرصه على التعليم.

فالمـدارس الـرسميـة والأهليـة تحتوى على مناهج تعليمية اجبارية وكل منتسب إليها لابد له من هضمها واستيعابها وبالتالى فلابد من حصول التأثر بها خاصة وهى ترافق الفرد فى كل مراحل حياته.

ولقد عرف المستعمرون وأعوانهم من مبشرين أهمية «التعليم الموجه» فانشأوا المدارس المختلفة لافساد أبناء المسلمين عن طريقها.

يقول اليسوعيون : (ان المبشر الأول هو المدرسة)[1].

ويقول جب : (ان مدارس البنات فى بلاد الإسلام هى بؤبؤ عينى لقد شعرت دائما أن مستقبل الأمر فى سوريا إنما هو بمنهج تعليم بناتها ونسائها)[2].

فالتعليم له شأنه وخطره وعدم تصحيح مناهجه وتوجيه أبنائه إلى الغاية الصحيحة فى جميع بلاد المسلمين يبقى عائقاً دون توحيد المفاهيم والتصورات والموازين التى لا تكاد تلتقى على أمر واحد فى بلاد المسلمين اليوم ولازالت تسير وفق المخططات التى رسمها لها أعداء الإسلام ــ إلا ما رحم ربك ــ.

(فإذا أراد العالم الإسلامى أن يستأنف حياته ويتحرر من رق غيره وإذا كان يطمح إلى القيادة فلابد إذن من الاستقلال التعليمى بل لابد من الزعامة العلمية وما هى بالأمر الهين انها تحتاج إلى تفكير عميق وحركة التدوين والتأليف الواسعة وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه انها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، إنما هى شأن الحكومات الإسلامية فتنظم لذلك جمعيات وتختار لها أساتذة بارعين فى كل فن فيضعون منهاجا تعليميا يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التى لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامى على أساس الإسلام وبروح الإسلام . . .)[3].

وبذلك يمكن أن تصحح المفاهيم وتقوم الموازين فى الأمة فتتحد فى أفكارها وعقائدها وتلتقى على أسس مشتركة من العلم والمعرفة.

ثانيا : الاعلام الهادف الملتزم :

ونعنى به أن يكون الاعلام فى بلاد المسلمين بكل أنواعه المسموعة والمرئية والمقروءة اعلاما هادفا له رسالة يسعى لتحقيقها من خلال ما يبثه أو يكتبه، وتلك الرسالة هى : «تحقيق العبودية لله فى أرضه» وهى الغاية التى من أجلها خلق الإنسان ويعمل لها المسلمون بكل طبقاتهم.

---

(١) انظر التبشير والاستعمار ص ٧١.

(٢) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ٢١٣، وانظر رسالة واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ١٧٦، والغزو الفكرى والتيارات المعادية ـ بحوث مقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامى الذى عقدته جامعة الامام محمد بن سعود بالرياض عام ١٣٩٦هـ. والحلول المستوردة ص ٣٦.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٧٦.

فيكون للاعلام فى بلاد المسلمين رسالة يتمثلها عند كل خطوة يخطوها وكل كلمة يبثها أو يكتبها.

وقد فطن اليهود إلى قوة تأثير الصحافة عندما برزت وخططوا لاستغلالها.

فقد ورد فى كتاب «بروتوكلات حكماء صهيون» ان (الأدب والصحافة هما أعظم قوتين خطيرتين)[1].

وفى كتاب: «التبشير والإستعمار فى البلاد العربية» نقلا عن مصادر تبشيرية أجنبية: (ان الصحافة لا توجه الرأى العام فقط أو تهيئه لقبول ما تنشر عليه بل هى تخلق الرأى العام)[2].

وبعد ظهور «التلفاز» والذى لا يكاد يخلو منه بيت فإن خطره يكون أكبر وتأثيره أعظم.. فإذا كانت الصحف لا يقرؤها إلا المتعلمون فإن «التلفاز» يراه ويشاهده كل إنسان وليس خاصا بنوعية معينة.

لذا فإن توجيه الاعلام والتزامه بـ: «هدف» أمر ضرورى ولا يمكن أن تتحد الأمة واعلامها اعلام ضائع لا هوية له ولا هدف.. بل فى كثير من بلدان المسلمين قد وجه لافساد الأمة وخلخلة عقائدها.

فاصلاح الاعلام وتصحيح مساره ضرورة بل واجب شرعى تأثم الأمة باهماله وتضييعه.. ثم تخسر عقيدتها وعزتها.. ولا تتحقق لها وحدة واجتماع وهذه الوسائل تسير مسارا عشوائيا أو تخريبيا.

ووسائل الاعلام فى كثير من البلدان الإسلامية غير ملتزمة بالمنهج الإسلامى الذى يبث الخير وينشر الفضيلة ويحذر من الشر والأخلاق الرذيلة بل ان بعض تلك الوسائل تحارب الإسلام وتسيىء إلى أهله بما تنشره من البرامج السيئة والحلقات المنحرفة.. وهذا كله مضاد لدين الأمة ومفرق لجمعها وهادم لأسس الوحدة التى تقوم عليها.

ولن يكون هناك لقاء أو اتحاد واعلام المسلمين أو بعضه بهذه الصورة فلابد أذن من اعادة بناء الاعلام بناء صحيحا بحيث يكون قادرا على توجيه الأمة وتعميق العقيدة فى نفوسها وتذكيرها بغايتها فى هذه الحياة، وتبرز المنهج الذى اختاره الله عز وجل لها كما تبين إلى جانب ذلك وحدة القيادة للأمة الإسلامية وانه لم يعد هناك مجال لظهور قيادات أخرى

---

(١) ص ١٤٢.

(٢) ص ٢١٣.

تنازع هذه القيادة المحمدية أو تزاحمها وان القيادات الموجودة تستمد شرعيتها فى حق الطاعة على الأمة بمتابعتها لتلك القيادة .

فإذا استطاع الاعلام فى البلدان الإسلامية أن يثبت هذه القضايا الأساسية فى نفوس الأمة فانه عندئذ يكون قد أدى دوره الصحيح فى المجتمع وساهم فى وحدة الأمة . . وإلا فلا وحدة ولا اجتماع .

ويتحقق ذلك بالاختيار الأمين للعاملين فى الاعلام فيختار الكفاءات المؤمنة التى تدرك أهداف الأمة وغايتها .

ثالثا : الاقتصاد المستقل :

ان التشابك المعقد فى العلاقات الدولية اليوم واختلاف الأنظمة الاقتصادية فى العالم قد انعكس أثره على أكثر المجتمعات الإسلامية فتعددت فيها الأنظمة الاقتصادية تبعا للاتجاه الذى يغلب على كل بلد فكان له آثاره السلبية على وحدة الأمة الإسلامية .

والاقتصاد العالمى اليوم فى قبضة «اليهود» فهم يتحكمون فيه كما يشاؤون ، وقد جاء فى كتاب : «بروتوكولات حكماء صهيون» موضوع خاص لبيان كيفية التحكم فى اقتصاد العالم والوسائل التى يجب أن تتخذ لتنفيذ هذا المخطط نورد بعضا من فقراته .

فقد وضعوا فى حسبانهم ايجاد الأزمات الاقتصادية المفتعلة لزيادة ثرواتهم ويبين ذلك قولهم : (ان الأزمات الاقتصادية التى دبرناها بنجاح باهر فى البلاد الاممية ــ قد انجزت عن طريق سحب العملة من التداول فتراكمت ثروات ضخمة . . .)[1] .

وعن سحب الذهب من العالم ورد فيه : (وأظنكم تعرفون أن العملة الذهبية كانت الدمار للدول التى سارت عليها لأنها لم تستطع أن تفى بمطالب السكان ولاننا فوق ذلك قد بذلنا أقصى جهدنا لتكديسها وسحبها من التداول)[2] .

فالاقتصاد جانب مهم فى حياة المجتمع ولهذا فقد عنى به القرآن الكريم والسنة الشريفة بتنظيمه وبيان جوانبه المباحة والمحرمة اضافة إلى خطورة ارتباطه بأنظمة غير مسلمة لا تفرق بين الحلال والحرام ولا تألو جهدا فى إضعاف الأمة المسلمة وتمزيق وحدتها .

لذا فإن العناية به أمر مطلوب شرعا ولابد للأمة وهى تحاول العودة إلى دينها ووحدتها

---

(١) ص ١٧٤ .
(٢) ص ١٧٥ .

من التحرر من تلك الأنظمة الدخيلة على المجتمعات الإسلامية والعودة إلى النظام الاقتصادى الإسلامى الذى هو جزء من الشريعة الإسلامية الواجب أتباعها.

ولابد من ايجاد اقتصاد إسلامى ليس مرتبطاً بأى نظام آخر لئلا يبقى بين الأمة فجوات تحول دون وحدتها.

ويتم ذلك بايجاد أسواق مشتركة وعملة موحدة وهيئة اقتصادية تشرف على ذلكم الاقتصاد الإسلامى المستقل.

وبهذا تستقل عن التبعية الاقتصادية الضارة وتقيم لها وحدة اقتصادية قوية على أسس إسلامية.

والاقتصاد فى الحقيقة هو جزء من «الشريعة الإسلامية المتكاملة والتى تعتبر أساسا ثابتا لوحدة الأمة.. والذى أريده هنا هو ايجاد أسواق مشتركة وعملة موحدة تعطى للأمة شخصيتها المستقلة وتمهد السبيل لوحدة الأمة وعزتها.

رابعا : الاكتفاء الذاتى :

للأمة مطالب متنوعة لا تستطيع الاستغناء عنها وتلك المطالب تشتمل على كل جوانب الحياة.

* مطالب ثقافية وسياسية.
* ومطالب اقتصادية.
* ومطالب عسكرية.
* ومطالب صناعية مختلفة.

هذه المطالب لا يجوز بقاء الأمة عالة على أعدائها فيها كل بلد إسلامى له وجهة يوليها ويشحذها.. بل لابد من الاستغناء والاكتفاء فى هذه الجوانب بالانتاج الإسلامى فى بلاد المسلمين وبأيد مسلمة.

فالعمل على اكتفاء الأمة بانتاجها من أقوى الوسائل لاستقلالها وقوتها وبالتالى لوحدتها واجتماعها إذ انقسام الأمة إلى أجزاء تابعة للبلدان المصنعة لن يمكنها من توحيد صفوفها ولا استقلالها فلابد من هذا الاكتفاء ولو على المدى الطويل.

خامسا : ايجاد مراكز علمية :

لما كانت هذه الوسائل المتقدم ذكرها لابد لها من اعداد وتخطيط بحيث تتحقق

بالصورة الصحيحة كان لابد من ايجاد مراكز علمية متخصصة فى كل جوانب الحياة تكون مهمتها التخطيط الدقيق والدراسة المتأنية لتحديد الوسائل والضوابط لتحقيق المطلوب.

وهذه المراكز متعددة الأغراض تمثل هيئات استشارية وتخطيطية تشترك فيها جميع البلدان الإسلامية تضم فى داخلها كفاءات علمية من أبناء الأمة الذين يؤمنون بعقيدتها ويسعون إلى تحقيق أهدافها.

وبهذا كله يمكن للأمة أن تجمع شملها وتتحد كلمتها وتتحقق لها مكانتها التى أرادها الله لها عز وجل ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وما ذلك على الله بعزيز.

الخاتمـــــة

بعد هذا العرض الموجز لواقع الأمة والأسس التى يجب تحقيقها لوحدة الأمة وتصحيح واقعها والوسائل التى يمكن أن تعين على تحقيق الهدف المطلوب يتبين لنا عدة أمور نجملها فيما يلى :

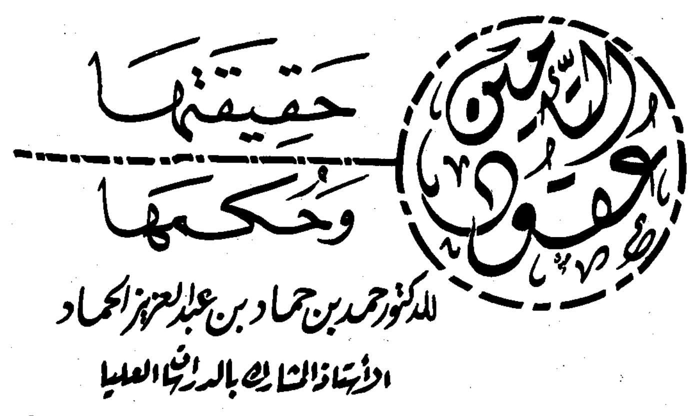
* ان واقع الأمة واقع مؤلم ولا يرضى الله عز وجل.
* وان هذا الواقع لا يمكن أن تتوحد الأمة مع استمراره.
* وان وحدة الأمة مرهونة بتغيير هذا الواقع على ضوء الكتاب والسنة.
* وان هناك أسسا لهذه الوحدة تعتبر قاعدة ضرورية لوحدة الأمة.
* وان التغيير المطلوب يحتاج إلى وسائل متعددة لتحقيقه.

هذا واجتماع كلمة الأمة الإسلامية حلم يراود أفرادها وجماعاتها المخلصة التى يحزنها أن ترى أن القيادة والريادة مكبلة بسلاسل الجهل والمعاصى والانحطاط وتترقب اليوم الذى تعتز فيه الأمة وتحتل مكانها الصحيح.

* أمة هادية.
* أمة رائدة.
* أمة قائدة.

وان كانت هناك عقبات فى هذا الطريق وعراقيل يضعها أعداء الله فيه لكن الأمل فى الله عز وجل عظيم أن يحيى نفوس هذه الأمة ويوقظ عقولها ويقوى عزمها ويومئذ تتحطم كل عقبة وتتلاشى كل السدود ويرتفع صوت الحق وينصب ميزان العدل وتستظل البشرية بظلال الخير والسعادة.

وصلى الله وسلم على سيدنا وإمامنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه.



للدكتور حمد بن حماد بن عبد العزيز الحماد
الأستاذ المشارك بالدراسات العليا

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن موضوع التأمين قد طرق كثيراً وكتبت فيه عدة كتب وأبحاث ونوقش فى أكثر من مؤتمر وقد لاحظت أن الباحثين فيه قسموه إلى نوعين تجارى وتعاونى وأن كثيراً منهم قد انتهوا إلى القول بجواز التعاونى دون أن يقدموا له تكييفا فقهياً واضحاً أو فارقاً معتبراً بينه وبين ما يسمونه تجارياً لذا أحببت المشاركة فى هذا المجال مبيناً رأيي فى حقيقة عقود التأمين وحكمها فى الشرع وفق الأدلة الشرعية والقواعد المرعية والله المسئول أن يوفق للصواب ويهدى للرشاد وأن يجعله خالصاً لوجهه ودخراً ليوم المعاد إنه ولى ذلك والقادر عليه.

مبدأ عقود التأمين وأصلها :

إن أصل عقود التأمين ينبع من عقود ربوية مبنية على الغرر والمقامرة ويذكر الباحثون فى التأمين أن فكرته موجودة فى كثير من النظم القديمة تمتد إلى ألفى عام قبل الميلاد وربما أكثر من ذلك إلا أن أول وثيقة تأمين بحرى عرفت كانت سنة ١٣٤٧م وهى المعروفة بالوثيقة الإيطالية ومنذ ذلك الوقت بدأ تنظيم التأمين فى أوربا إلى أن وصل إلى ما وصل إليه فى عصرنا[١].

وإثر حريق هائل شب فى لندن سنة ١٦٦٦م نشأ التأمين البرى حيث بدأ التأمين من خطر الحريق[٢].

---

(١) انظر كتاب الخطر فى التأمين البحرى تأليف محمود الشرقاوى (ص٣١) الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٥هـ.

(٢) انظر الوسيط لعبد الرزاق السنهورى (١٩٠٦/٧) دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٨م

ثم توالت بعد ذلك صور التأمين المختلفة مثل: التأمين من حوادث العمل، والتأمين من المسئولية، والتأمين على الحياة، والتأمين من تلف المزروعات، والتأمين من موت المواشى، والتأمين من السرقة والتبديد، والتأمين من حوادث النقل الجوى... إلى غير ذلك من الصور المختلفة(٣).

تعريف عقد التأمين:

ويعرف عقد التأمين بأنه عقد يلتزم المؤمن بمقتضاه أن يؤدي إلى المؤمن له مبلغاً من المال أومرتباً أو أي عوض مالى آخر فى حالة وقوع الحادث أوتحقق الخطر المبين فى العقد وذلك نظير قسط أو أية دفعة مالية أخرى يؤديها المؤمن له للمؤمن(٤).

ويعتبر ابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) من أول من تكلم عن التأمين وحكمه فى الشريعة الإسلامية وأطلق عليه اسم (سوكرة) وانتهى إلى أنه عقد لا يحل حيث قال: «مطلب مهم فيما يفعله التجار من دفع ما يسمى سوكرة وتضمين الحربى ما هلك فى المركب وبها قررناه يظهر جواب ما كثر السؤال عنه فى زماننا وهو أنه جرت العادة أن التجار إذا استأجروا مركبا من حربى يدفعون له أجرته ويدفعون أيضاً مالاً معلوماً لرجل حربى مقيم فى بلاده يسمى ذلك المال سوكرة على أنه مهما هلك من المال الذى فى المركب بحرق أو غرق أو نهب أو غيره فذلك الرجل ضامن له بمقابلة ما يأخذه منهم... والذى يظهر لى أنه لا يحل للتاجر أخذ بدل الهالك من ماله لأن هذا التزام ما لا يلزم»(٥).

وفى العصر الحديث انتشرت شركات التأمين فى بعض بلدان المسلمين واجتهد المروجون لها فى سبيل استصدار فتوى شرعية بجوازه من بعض المحسوبين على الفقه والفقهاء من ذلك ما جاء فى جواب محمد عبده لسؤال أحد مدراء شركات التأمين عن رجل اتفق مع جماعة على أن يعطيهم مبلغاً معلوماً فى مدة معينة على أقساط معينة للاتجار به فيما يبدو لهم فيه الحظ والمصلحة وأنه إذا مضت المدة المذكورة وكان حياً يأخذ هذا المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة وإن مات فى خلالها تأخذ ورثته... المبلغ المذكور مع الربح الذى نتج مما دفعه.

---

(٣) راجع السابقين.

(٤) انظر الوسيط ٧/ ١٠٨٥.

(٥) حاشية ابن عابدين (رد المحتار ٤/ ١٧٠) الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ طبعة مصطفى الحلبى.

فأجاب بأن ما ذكر يكون من قبيل شركة المضاربة وهى جائزة[٦] . . .

وواضح من السؤال أن المسئول عنه عقد تأمين ليس من باب المضاربة فى شيء فهو يدفع أقساطاً معينة هى أقساط التأمين وقول السائل للاتجار به إنما هو للتمويه والتضليل، وقولهم: إذا مضت المدة المذكورة وكان حياً يأخذ هذا المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة» هذا هو مبلغ التأمين وهو هنا لا يذكر إلا الربح فقط[٧]، ومن المعلوم أن المال فى المضاربة خاضع لمبدأ الربح والخسارة.

وقولهم: وإن مات فى خلالها تأخذ ورثته. . . المبلغ المذكور» ظاهره أنه يأخذ الوارث أو من يقوم مقامه المبلغ كاملاً مع أن الرجل قد مات فى خلال المدة قبل أن يوفى جميع الأقساط وهذه حقيقة التأمين المبنى على الغرر والمقامرة حيث يأخذ الورثة مالاً لم يدفعه مورثهم.

وقد علق الدكتور عيسى عبده على السؤال ببيان المكر فى صياغته حيث أنه لم يعرض للعناصر الأساسية للتأمين التى منها أنه فى التأمين على الحياة تلتزم الشركة المؤمنة بدفع رأس مال العقد كاملاً إن حصلت الوفاة أثناء سريان العقد وإن كان المستأمن قد دفع قسطاً واحداً من عشرات أو مئات الأقساط التى كان سيدفعها لو امتد به الأجل، وأيضاً لم يعرض السؤال لنوع الربح الذى يعود على المستأمن أهو جزء من الربح الذى تحققه الشركة بتشغيل أمواله أو هو قدر محدد سلفاً. . . والواقع أن جميع شركات التأمين تحسب الربح على جملة الأقساط وجملة الفترات الزمنية. . . أما السؤال ففيه إبهام مقصود وتلويح بما يشبه المضاربة الشرعية[٨].

هذا وقد تبع محمد عبده فى فتواه عدد من المحْدثين فقالوا بجواز التأمين ومن هؤلاء

---

(٦) انظر عقود التأمين من وجهة الفقه الإسلامى لمحمد بلتاجى (ص ٢٦و٢٧) الناشر دار العروبة بالكويت ١٤٠٢هـ والتأمين وموقف الشريعة الإسلامية منه لمحمد الدسوقى (ص ٧٥) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٧هـ.

(٧) لم يأتى ذكر للخسارة مع إحتمال حصولها والذى يظهر أنه ربح محدد عند التعاقد بنسبة معينة ويزيد الأمر وضوحاً رأى محمد عبده فى أن ربا النسيئة لا يكون إلا فى الديون ولا يكون فى العقود عند إنشائها فقد جاء فى تفسير المنار ٣/٩٧ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب: أنه لا يدخل فى الربا الجلى المحرم بنص القرآن من يعطى آخر مالاً يستغله ويجعل له من كسبه حظاً معيناً.

وهذا وإن كان من صياغة تلميذه رشيد رضا إلا أنه أقره كما جاء فى مقدمة التفسير المذكور ١/١٥ أن أستاذه الشيخ كان يقرأ ما يكتبه عنه ويقره.

وقد تبعه فى هذا الرأى تلميذه رشيد رضا انظر كتابه الربا والمعاملات فى الإسلام ومحمود شلتوت انظر مجلة لواء الإسلام العددان ١١و١٢ وعبد الكريم الخطيب انظر مجلة البنوك الإسلامية عدد ١١ وغيرهم.

ومقتضى ما تقدم أن محمد عبده يحلل القرض بفائدة ولذا لم يتوقف بالإجابة بالجواز فيما سئل عنه فى شأن العقد المذكور.

(٨) انظر التأمين لعيسى عبده (ص ٣١) دار البحوث العلمية بالكويت.

الدكتور محمد يوسف موسى[٩] والشيخ على الخفيف[١٠] والدكتور محمد البهى[١١] ومصطفى الزرقاء ومحمد سلام مدكور وعبد الرحمن عيسى . . وغيرهم[١٢].

وقد أبدى بعضهم تحفظات على شيء من فروع التأمين وجزئياته فاشترط محمد يوسف موسى أن تخلو المعاملة فيه من الربا ورد عبد الرحمن عيسى على بعض صور التأمين على الحياة كما رد محمد سلام مدكور بعض الشروط التعسفية[١٣] . . إلا أن هذا لا ينافى أن الرأي عندهم حل التأمين فى الجملة . .

ويستدلون لقولهم بجوازه بقياسه على بعض العقود الجائزة ولو عند بعض الفقهاء وسنعرض لذكرها والرد عليها فى المباحث التالية :

حكم عقود التأمين

عقود التأمين تشتمل فى جوهرها على أمور تجعلها عقوداً محرمة من هذه الأمور ما يلى :

أولاً : الغرر :

والنهى عن الغرر أصل عظيم من أصول البيوع يدخل تحته مسائل كثيرة مثل بيع المعدوم وبيع المجهول وبيع ما لا يقدر البائع على تسليمه وبيع ما لم يتم ملك البائع له والأصل فى هذا حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : «نهى رسول الله ﷺ عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر» رواه مسلم[١٤] . . الغرر : الخطر.

والغرر مناط البطلان عند جميع العلماء[١٥] . . وهو متحقق فى عقود التأمين بشكل ظاهر لا يجادل فيه عاقل فكل واحد من المتعاقدين لا يدرى كم يعطى ولا كم يأخذ فهو إذاً عقد على مجهول فيه مخاطرة عظيمة.

(٩) انظر الاسلام والحياة (ص ٢١٦) وهو من تأليف المذكور.

(١٠) انظر بحث التأمين له المقدم لندوة التشريع الاسلامى بالجامعة الليبية عام ١٣٩٢هـ.

(١١) انظر له رأى الدين بين السائل والمجيب (ص ١٨٦) وما بعدها ـ دار الفكر ١٣٩٢هـ.

(١٢) انظر أسبوع الفقه الاسلامى (ص ٣٨٢) وما بعدها طبع بواسطة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة عام ١٣٨٢هـ وهو مجموعة البحوث المقدمة للمؤتمر الذى عقد بدمشق ١٦-٢١ شوال ١٣٨٠هـ. ومجلة العربى العددان ١٩٢، ١٩٥ والمعاملات الحديثة لعبد الرحمن عيسى.

(١٣) انظر المراجع المتقدمة.

(١٤) صحيح مسلم ١١٥٣/٣ كتاب البيوع رقم ٤ بترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية بمصر.

(١٥) انظر النووى على مسلم ١٠/١٥٦-١٥٧ طبعة المطبعة المصرية والمقدمات الممهدات لأبى الوليد بن رشد (٢٢٢/٢) طبعة مطبعة السعادة بمصر وبداية المجتهد (١٥٣/٢) الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

وقد أورد التقنين المدنى عقد التأمين ضمن العقود الاحتمالية أوعقود الغرر وبيان ذلك أن المؤمن والمؤمن له لا يعرفان وقت إبرام العقد مقدار ما يأخذ كل منهما ولا مقدار ما يعطى كل منهما إذ أن ذلك متوقف على وقوع الكارثة أو عدم وقوعها[١٦]

من هنا نعلم أن وجود الغرر والمخاطرة فى عقود التأمين من الأمور الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار بل إن الغرر والمخاطرة فيها أبين وأظهر من مثل صورة بيع الحصاة[١٧] وبيع المنابذة[١٧] وبيع الملامسة[١٧] وغيرها مما ورد فيه النهى الصريح لما فيها من الغرر الظاهر.

ومن الغرر أيضاً فى عقد التأمين الجهل بأجل العقد وذلك أن الخطر وهو محل عقد التأمين لا يعلم هل يقع أم لا ؟ وإن وقع فلا يعلم متى يقع ؟ وعدم العلم بوقوعه ووقت وقوعه من شروط العقد الواجبة فى التأمين وهو أن يكون الخطر غير محقق الوقوع وهذا هو العنصر الجوهرى فى عقد التأمين[١٨] . . فأي غرر أكثر وأشد مما فى هذا العقد . .

ومن العجيب أن يغالط بعض المنتسبين إلى الفقه فينازع فى أن التأمين من العقود الاحتمالية كما فعل مصطفى الزرقاء[١٩] مع وضوحه كما تقدم .

شبه المخالفين فى الغرر فى عقد التأمين والرد عليها :

١ ـ قال بعضهم أنه ليس من عقود الغرر المحرمة بدعوى أن ما ألفه الناس وتعارفوا عليه دون ترتب نزاع يكون غير منهى عنه[٢٠]

وهذه دعوى باطلة فإن التراضى بين المتعاقدين لا يصير العقود المحرمة حلالاً وقد كانت كثير من صور عقود الغرر مألوفة فى عهد الجاهلية ومع ذلك نهى الشرع عنها لأنها من أكل أموال الناس بالباطل كما قال تعالى : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون**

---

(١٦) انظر الوسيط ٧/ ١١٤٠ وأسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٦١ .

(١٧) انظر من فقه السنة (ص ٣٦-٣٧) الطبعة الأولى عام ١٤٠٥هـ.

(١٨) انظر الوسيط ١٢١٨/٧ .

(١٩) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٠١ .

(٢٠) انظر بحث التأمين للشيخ على الخفيف ص ٦ وعقود التأمين لمحمد سلام مدكور مجلة العربى العدد ١٩٥ .

تجارة عن تراض منكم ﴾[٢١]. والمعنى تجارة لا غرر فيها ولا مخاطرة ولا قمار وهذا أمر متفق عليه عند أهل العلم[٢٢]. .

ومن المعلوم ان إتفاق المتعاقدين على المعاملات الربوية وتراضيهما عليها وكون ذلك لا يؤدى إلى نزاع بينهما لا يجعل هذه المعاملات مشروعة فكذا هنا.

٢ ـ دعوى أن عقود التأمين من قبيل التعاون بين مجموعة من الناس وفى التعاون والتبرع يغتفر الغرر الكثير استناداً لقول مالك رحمه الله فى تصرفات الإحسان الذى لا يقصد به تنمية المال كالصدقة والهبة والإبراء[٢٣].

وبناء على ذلك حاولوا أن يجعلوا عقد التأمين من هذا الباب كما فعل السنهورى حيث ذكر أن التأمين لا يفهم على الوجه الصحيح إلا إذا نظر إلى الجانب الآخر وهو جانب العلاقة بين المؤمن ومجموع المؤمن لهم حيث يكون المؤمن وسيطاً بينهم ينظم تعاونهم جميعاً على مواجهة الخسارة التى قد تصيب بعضهم[٢٤].

يقول السنهورى عن الجانب الآخر من عقد التأمين ــ على حد تعبيره ــ إنه «يبرز التأمين فى ثوبه الحقيقى ويبين أنه ليس إلا تعاوناً منظما تنظيماً دقيقاً بين عدد كبير من الناس معرضين جميعاً لخطر واحد حتى إذا تحقق الخطر بالنسبة إلى بعضهم تعاون الجميع على مواجهته بتضحية قليلة يبذلها كل منهم يتلافون بها أضراراً جسيمة تحيق بمن نزل الخطر به منهم لولا هذا التعاون وشركة التأمين ليست فى الواقع من الأمر إلا الوسيط الذى ينظم هذا التعاون على أسس فنية صحيحة. . . فالتأمين إذاً هو تعاون محمود تعاون على البر والتقوى يبر به المتعاونون بعضهم بعضاً ويتقون به جميعاً شر المخاطر التى تهددهم فكيف يجوز القول بأنه غير مشروع ؟»[٢٥].

وقد استند على قول السنهورى هذا كل المشاغبين على مسألة وجود الغرر فى عقود التأمين.

---

(٢١) سورة النساء آية ٢٩.

(٢٢) انظر الأم (٣/٢-٣) للإمام الشافعى وبهامشه مختصر المزنى طبعة دار الشعب والمقدمات الممهدات ٢/٢٢٢.

(٢٣) انظر الفروق للقرافى (١/١٥٠) بهامشه تهذيب الفروق ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت وبداية المجتهد ٢/٣٢٧. والمغنى لابن قدامة (٥/٦٥٧) الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر ومكتبة الرياض الحديثة.

ويجب أن يعلم أن مذهب ملك فيما يستباح فيه الغرر يشترط أن يكون من باب الإحسان المحض خالياً من أى صفات المعاوضة أى تكون الرغبة محضة لقصد الهبة والتبرع وليس عقد التأمين هكذا.

(٢٤) انظر مصاد الحق فى الفقه الاسلامى ٣/٣٢-٣٣ والوسيط ٧/١٠٨٩ وكلاهما للمذكور.

(٢٥) الوسيط ٧/١٠٨٧.

فهذا مثلاً على الخفيف يقرر نفس المعنى فى بحثه عن التأمين[٢٦]. وكذا محمد سلام مدكور حيث يقول: إن شركات التأمين تقوم بدور الوسيط بين الأفراد المتعاونين[٢٧]. والزرقاء حيث يقول: إن التأمين قائم على فكرة التعاون على جبر المصائب والأضرار الناشئة من مفاجآت الأخطار[٢٨].

ولو سلمنا القول بما ذهب إليه الإمام مالك رحمه الله فلا يصلح مستنداً لما ذهبوا إليه البتة لأنها لا تصح أبداً دعواهم أن عقد التأمين من قبيل التبرعات بل هو عقد معاوضة محضة ويتضح ذلك من التعريف القانونى لعقد التأمين[٢٩]. فليس هناك شك أن عقد التأمين عقد معاوضة بين متعاقدين يلتزم بمقتضاه كل منهما بعوض مقابل ما يلتزم به الآخر وإذا كان كذلك فلا يجوز فى مذهب من المذاهب الفقهية ما فى عقد التأمين من غرر كثير وكبير ولا تعدو هذه الدعوى أن تكون مغالطة بعيدة عن الواقع الحقيقى لعقد التأمين.

ولا يجادل عاقل فى أن مقصد شركات التأمين إنما هو تحقيق الربح الوفير لها من جراء إتجارها بدعوى توفير الأمن للمتعاقدين معها فلا يصح بحال دعوى أن هذه الشركات ليست إلا الوسيط الذى ينظم التعاون. . . إنها مغالطة للواقع.

٣ ـ حاول الزرقاء دفع الغرر عن عقد التأمين بدعوى أن فى عقد التأمين معاوضة محققة النتيجة فور عقده. . وأن الاحتمال فيه بالنسبة للمؤمن إنما هو بالنظر إلى كل عقد على حدة وأما بالنظر إلى مجموع العقود فإن التأمين يعتمد على أسس إحصائية تنفى عنه الإحتمال عادة. . وأما بالنسبة إلى المستأمن فإن الإحتمال معدوم ذلك لأن المعاوضة الحقيقة فى التأمين بأقساط إنما هى بين القسط الذى يدفعه المستأمن وبين الأمان الذى يحصل عليه وهو حاصل بمجرد العقد لأنه بهذا الأمان لم يبق بالنسبة إليه فرق بين وقوع الخطر وعدم وقوعه[٣٠].

وهذه المحاولة غير صحيحة أما بالنسبة للمؤمن فكل عقد يجريه فيه غرر كبير يوجب بطلانه والتحايل بلفت النظر إلى مجموع العقود لا يصح فإنه ليس له وجود فى الخارج وإنما الذى له وجود هو العقد الغرر وهو يتضمن غرراً كبيراً من الجانبين.

---

(٢٦) ص ٩ وما بعدها.

(٢٧) انظر مجلة العربى العدد ١٩٢.

(٢٨) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٠١ وما بعدها.

(٢٩) تقدم فى أول البحث.

(٣٠) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٠٢ وما بعدها.

ومقتضى قوله بالصحة بالنظر إلى مجموع العقود يلزم منه أن العقد الباطل فى ذاته إذا انضم إليه غيره مما يشبه فى البطلان صار بهذا الإنضمام صحيحاً وهو لازم باطل لا وجه له عند أحد من فقهاء المسلمين.

على أن دعوى زوال إحتمال الغرر من مجموع العقود مغالطة ظاهرة فشركات التأمين لا يمكن أن تعرف مجموع ما سوف تأخذ وما تعطى وإنما تستعين بالاحصائيات لمعرفة صورة تقريبية وهذا لا ينفى عنها عنصر الاحتمالية . . . هذا وهناك أحداث وأخطار غير متوقعة تقلب كل توقعات المؤمنين فكيف يقال إنه يعتمد على أسس احصائية تنفى عنه الاحتمال ؟

وحاصل ما تقدم أن الغرر الكبير فى عقود التأمين موجود رغم كل ما قالوه حتى بالنسبة لمجموع العقود وهذا يقتضى بطلانها على أية حال.

وأما بالنسبة للمؤمن له فالغرر متحقق لديه وقت العقد فى أنه لا يدرى ماذا سيعطى وماذا سيأخذ وهذا كاف للحكم ببطلانه . . ودعوى أن القسط فى مقابل الأمان دعوى غير صحيحة ذلك أن عقد التأمين مذكور فيه أن القسط فى مقابل مبلغ التأمين هكذا يقول شراح القانون[٣١].

وأما الأمان فلا يقدر عليه إلا الله وشركات التأمين لا تستطيع أن تضمن عدم وقوع الخطر وإنما تعوض عن بعض آثاره بعد وقوعه.

وقول الزرقاء «لم يبق بالنسبة إليه ــ أي المؤمن له ــ فرق بين وقوع الخطر وعدمه . . . الخ» مغالطة ظاهرة وهل يعقل ذلك فيمن يؤمن على حياته أو على أعضائه؟ أيستوى عنده أن يفقد حياته وأعضاءه أو أن يبقى حياً معافى؟ لا يستويان فكل هذا إنما هو تحايل ومغالطة لنفى الغرر من عقود التأمين وهو متحقق فيها على أية حال.

ومن خلال النظر إلى أركان هذا العقد وشروطه كما تقدم تصويره لا يراودنا أدنى شك فى بطلانه . . ولا اعتبار بعد ذلك لأى دعاوى تتعلق فى أمر خارج عن هذه الأركان والشروط لأن العبرة فى الحكم على العقود إنما هو بالنظر إلى ما تضمنته من أركان وشروط.

ثانياً : الربـــا :

عقد التأمين يتضمن الربا بنوعيه أما النسيئة فدائماً وأما الفضل فغالباً وذلك أنه عندما يقع الخطر المؤمن منه وتسلم شركة التأمين مبلغ التأمين المتعاقد عليه فإنه لا يخلو فى الغالب

(٣١) انظر الوسيط ٧/ ١١٣٩.

من أن يكـون أقـل أو أكثـر مما دفعـه المؤمن له وفى هذه الحالة يتحقق ربا الفضل بسبب عدم تسـاوى البـدلـين وكذا ربا النسيئة لتأخر أحد البدلين وإن كان المبلغ مساوياً ـ وهذا نادر ـ تحقق ربا النسيئة لتأخر أحد البدلين لأن عقود التأمين لا تخرج عن الصرف إذ هى نقد بنقد وهذا واضح من تعريفه حيث أن المؤمن يلتزم بدفع **مبلغ من المال** فى نظير **قسط مالى** وعقد الصرف يشترط فيه التقابض مطلقاً سواء إتحد الجنس أو اختلف ويشترط أيضاً التماثل عند إتحـاد الجنس وهـذا كله متحقق بين مبلغ التأمين وقسطه وبهذا يتبين أن عقود التأمين تشتمل على نوعى الربا.

والنصـوص الـواردة فى طلب التـماثـل والتقابض فى مبادلة المال الربوى بجنسه متواترة وقد أجمع المسلمون على مدلولها(٣٢).

شـبه المخالفـين فى تضمن التأمـين للربـا والـرد عليها :

١ ـ كما أدعـوا فى باب الغـرر أن عقـود التأمين من قبيل التعاون الذى يغتفر فيه الغرر أدعـوا هنـا أيضـاً أن التأمين من أساسه قائم على فكرة التعاون على جبر المصائب فيغتفر ما فيه من ربا أو شبهة ربا(٣٣).

وهى دعـوى مردودة كما تقـدم فعقـود التأمـين ليست من قبيل التعاون وإنما هى عقود معاوضة وتجارة فلا يمكن حملها على تصرفات التبرع والإرفاق التى يغتفر فيها ما لا يغتفر فى عقود المماكسة التى يقصد منها الربح.

٢ ـ حاول بعضهم أن يحصـر شبهـة الـربـا فى بعض صور التأمـين وهـو ما يحصل فى التأمـين على الحيـاة حيث يشـترط فائدة ربوية علاوة على مبلغ الأقساط التى يستفيدها إذا ظل حياً بعد مدة العقد ومن ثم يحكم على هذا الشرط وحده دون الحكم على نظام التأمين فى ذاتـه ولـذا يقـترح الـزرقاء إلغاء شرط الفائدة فى هذه الصورة من التأمين بحيث يرد مبلغ الأقساط بعينه دون فائدة(٣٤).

والجـواب عن هذا أن جوهـر عقـد التأمين لا يخلو من شبهة الربا حتى لو خلا من مثل هذا الشرط فإنه وإن انتفى التفاضل فإن النساء متحقق على أية حال.

---

(٣٢) انظر طرفاً من ذلك فى (من فقه السنة ص ١٠٠ وما بعدها).

(٣٣) انظر نظام التأمين لمصطفى الزرقاء ص ٢٥ وأسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٠٤ وما بعدها.

(٣٤) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٠٦.

ثالثاً : القمــــار :

عقـد التأمـين يتضمن شبهـة القـمار وذلك أنه معلق على خطر قد يقع وقد لا يقع فهو يشبه فى معناه معنى ميسر القمار وهو ما يتخاطر الناس عليه . قال ابن عباس : كان الرجل فى الجـاهليـة يخاطـر الـرجـل على أهله وماله فأيهما قامر صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية :

﴿ يا أيهـا الـذين آمنـوا إنـما الخمـر والميسـر والأنصـاب والأزلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبـوه لعلكم تفلحـون . إنـما يريـد الشيطـان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[٣٥] .

وأى مخاطـرة ومقـامـرة أشـد من دفع مبلغ التأمين كاملاً مقابل قسط واحد فيما إذا وقع الخطـر المؤمن عليـه ففى مقـابـل ماذا دفـع المؤمن هذا المبلغ الكبير؟ وكيف تكون المخاطرة والمقامرة إذا لم تكن هذه مخاطرة ومقامرة؟

والحقيقـة أننـا لو نظرنا إلى عناصر عقد المقامرة عند شراح القانون لوجدناها متوفرة فى عقود التأمين ولذا قال السنهورى إنه إذا نظرنا إلى عقد تأمين بمفرده لم يعدُ أن يكون عقد مقامرة[٣٦] .

شبه المخالفين فى تضمن عقـد التأمـين للمقامـرة والـرد عليها :

وقـد حاول الـزرقـاء ومن على شاكلتـه إيجاد فروق بين عقد التأمين وبين القمار سوف أذكرها حسب ورودها فى بحثه وأجيب عليها .

١ ــ يقـول : إن القـمار لعب بالحظـوظ ومقتلة للأخلاق . . . فأين القمار الذى هو من أعظم الآفات . . . من نظام يقوم على أساس ترميم الكوارث الواقعة على الإنسان فى نفسه أو ماله . . . »[٣٧] .

والجواب عن هذا أن وجه الشبه بين عقد التأمين وبين القمار هو عنصر المخاطرة فى كل منهـما حيث أن عقـد التأمـين يكـون على شىء غير محقق الوقوع وهو عنصر أساسى فيه وفى القمار أيضاً وهذا هو مناط التحريم وأما ما يقع بسبب القمار من العداوة والبغضاء والصد عن

---

(٣٥) سورة المائدة الآية ٩٠-٩١ وانظر تفسير الطبرى (٢/٣٥٧-٣٥٩ و٧/٣٢-٣٥) جامع البيان عن تأويل آى القرآن لابن جرير الطبرى الطبعة الثالثة طبعة مصطفى الحلبى بمصر، وتفسير القرطبى (٣/٥٢) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية .

(٣٦) انظر الوسيط ٧/١٠٨٧ .

(٣٧) أسبوع الفقه الاسلامى ص ٣٩٨ وانظر بحث الخفيف ص ١٧ .

ذكـر الله وعن الصـلاة فهـذا من حكمة التحريم فإن القمار حرام حتى ولو قدر خلوه من ذلك فكـذا عقـد التأمـين حرام لتضمنه مناط التحريم وهو المخاطرة على أن نظام التأمين يقع فيه شىء من العداوة والبغضاء حين يأخذ أحد الطرفين فى عقد التأمين مبلغاً كبيراً دون مقابل . وحتى لو سلمنا بأن القمار يؤدى إلى العداوة والبغضاء وعقود التأمين لا تؤدى إلى ذلك فإن معنى المخاطرة والمقامرة متحقق فيها على أية حال .

٢ ــ يقـول : إن عقـد التأمـين يعطى المستأمن طمأنينة وأماناً من نتائج الأخطار . . . فأين هذا الأمان والاطمئنان لأحد المقامرين فى العاب القمار التى هى بذاتها الكارثة الحالقة؟[٣٨] . .

والجواب عن هذا أنه لو سلمنا جدلاً أن فى التأمين أماناً وطمأنينة لا توجد فى المقامرة فإن هذا ليس له أثر فى الحكم إذ أن العنصر الذى له أثر فى الحكم هو عنصر المخاطرة فى إجراء العقد على واقعة غير محققة فى كل من التأمين والقمار وهذا لا صلة له بما يصحب العقد من خوف أو أمان فالمقامرة فى عقد التأمين متحققة حتى لو سلمنا بهذا الفارق المزعوم .

٣ ــ يقول : ومن جهة ثالثة عقد التأمين من قبيل المعاوضة وهذه المعاوضة مفيدة فائدة محققـة للطـرفـين ففيهـا . . . ربـح اكتسـابى للمؤمن وفيهـا أمان للمستأمن . . . فأين هذه المعاوضة فى القمار؟ وما هى الفائدة التى عادت على الخاسر فيه من ربح الفائز[٣٩] . .

والجواب عن هذا أن كونه عقد معاوضة لا يمنع أن يكون فيه معنى القمار وأيضاً فإن مثل هذا الفارق لو سلم بوجوده لا أثر له فى الحكم فعنصر المخاطرة الذى هو مناط التحريم متوفر على أية حال فلا يفيد بعد ذلك ما قاله الزرقاء من أن التأمين معاوضة مفيدة للطرفين فسواء كانت مفيدة أو غير مفيدة فحكمها لا يتغير طالما اشتملت على عنصر يقتضى تحريمها .

وأخـيراً فإن شراح القـانـون قد قرروا أنه بالنظر إلى عقد التأمين من جهة العلاقة بين المؤمن وأى من المستأمنـين لا يعـد أن يكـون عقـد مقامرة كما فى قول السنهورى المتقدم وإذا تقـرر ذلـك فهـو كاف فى الحكم عليه بالتحريم ولا تأثير بعد ذلك للفروق التى ادعوها حتى ولو سلم بشىء منها .

---

(٣٨) أسبوع الفقه الاسلامى ص ٣٩٩ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٣٩٩ .

رابعاً : بيع الدين بالدين :

يقول الدكتور محمد بلتاجى «ويكون قسط التأمين عادة مبلغاً سنوياً والمستأمن لا يدفعه فى مجلس العقد إنما يدفعه بعد ذلك على أقساط فهو دين فى ذمة المستأمن يلزمه أداؤه حسبما نص على ذلك فى العقد والذى يقابله مبلغ التأمين الذى تلتزم الشركة بدفعه إذا حدث الخطر المؤمن منه فهو الآخر دين فى الذمة معلق على وقوع الخطر ومن ثم فعقد التأمين يتضمن بيع دين بدين»(٤٠).

وما ذكره بلتاجى متحقق حقيقة فى عقد التأمين وقد أجمع المسلمون على تحريم بيع الدين بالدين(٤١). .

والخلاصة أنه اجتمع فى عقد التأمين الغرر والربا والقمار وبيع الدين بالدين وواحد من هذه الأمور يكفى للحكم بتحريمه فكيف وقد اجتمعت كلها على نحو ما تقدم؟ . .

احتجاج المجوزين للتأمين والرد عليهم

حاول المخالفون فى تحريم عقد التأمين أن يطبقوا عليه بعض القواعد العامة أو أن يقيسوه على بعض الصور فى الفقه الاسلامى بشكل عام وهذا ما سأتناوله فى النقاط التالية :

١ ــ أن عقد التأمين عقد جديد فهو جائز بناء على أن الأصل فى العقود الإباحة إلا ما ورد الشرع بتحريمه(٤٢) وأن الشريعة تركت الباب مفتوحاً للناس أن يحدثوا أنواعاً جديدة من العقود إذا دعت الحاجة لها بشرط أن تتوفر فيها الأركان والشروط العامة المعتبرة فى العقود وفى هذا الصدد يمثل الزرقاء بعقد بيع الوفاء وأنه أشبه بواقعة عقد التأمين فعقد بيع الوفاء «عقد جديد ذو خصائص وموضوع وغاية يختلف فيها عن كل عقد من العقود المسماة المعروفة قبله لدى فقهاء الشريعة وهو ينطوى على غاية يراها الفقهاء محرمة لأنه يخفى وراءه أنواعاً من الربا المستور وهو الحصول على منفعة من وراء القرض حيث يدفع فيه الشخص مبلغاً من

(٤٠) عقود التأمين من وجهة الفقه الاسلامى ص ١١٧ .

(٤١) انظر بداية المجتهد ٢/١٢٣ ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٥/١٦٦) لمحمد بن علي الشوكانى الطبعة الثالثة ملتزم الطبع والنشر مصطفى الحلبى .

(٤٢) فى هذا خلاف أصولى لا مجال لذكره هنا راجع إن شئت الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (١/٥٢ وما بعدها) منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت . والقواعد النورانية لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ١٨٤ وما بعدها تحقيق الفقى مطبعة السنة المحمدية .

النقود ويسميه ثمناً لعقار يسلمه صاحبه إلى دافع المبلغ الذى يسميه مشترياً للعقار لينتفع به بالسكنى أو الايجار بمقتضى الشراء بشرط أن صاحب العقار متى وفى المبلغ المأخوذ على سبيل الثمنية استرد العقار. . . ولكل منهما الرجوع عن هذا العقد أى فسخه وطلب التراد ولو حددت له المدة»[٤٣].

وقد اختلف الفقهاء فيه وقت ظهوره فمنهم من اعتبره بيعاً فاسداً لاقترانه بشرط مفسد للعقد. ومنهم من اعتبره بيعاً صحيحاً وأبطل الشرط وحده واعتبره لغواً. ومنهم من نظر إلى الهدف من هذا العقد والشرط فاعتبره فى معنى الرهن الذى يشترط فيه المرتهن الانتفاع بالشيء المرهون فأبطل شرط الانتفاع بالمرهون وأبقاه رهناً لأن العبرة فى التصرفات للمقاصد. إلا أنه استقرت الفتوى فى المذهب الحنفى بعد ذلك على أنه عقد جديد ذو خصائص مختلفة عن هذه العقود الثلاثة لذا قرروا له أحكاماً مستمدة منها جميعاً.

والمقصود من هذا أن قضية عقد التأمين تشبه بيع الوفاء من ناحية أن بيع الوفاء شاهد تاريخى واقعى فى الفقه على جواز إحداث عقود جديدة وإن تعرض فى أول نشأته لمثل ما تعرض له اليوم عقد التأمين من اختلاف[٤٤]. . .

والرد على ذلك أن وجه الحرمة فى عقد التأمين ليس لأنه عقد جديد يختلف عن العقود المعروفة لدى فقهاء الشريعة الإسلامية بل وجه الحرمة فيه ما يتضمنه من غرر وربا وقمار وبيع دين بدين كما تقرر وبناء على هذا فهذا العقد الجديد غير جائز لا لأنه جديد بل لأنه تضمن أموراً تقتضى بطلانه.

وليعلم أنه من المتفق عليه عند القائلين إن الأصل فى العقود الاباحة تقييد ذلك بأن لا يرد الشرع بتحريمه وعليه فقد اشتمل عقد التأمين على عدة أمور ورد الشرع بتحريمها فلا يندرج عقد التأمين تحت هذا الأصل القائل بأن الأصل فى العقود الاباحة حتى على تقدير رجحانه على القول بأن الأصل فيها الحظر إلا ما ورد الشرع باباحته. وغنى عن البيان القول بأن عقد الوفاء مختلف عن عقد التأمين فى موضوعه وهذا ما سلم به الزرقاء نفسه[٤٥].

على أن الصواب فى بيع الوفاء أنه لا يخرج عن أن يكون بيعاً أو رهناً اقترن به شرط فاسد والحكم فيه هو إبطال العقد بسبب هذا الشرط أو إبطال الشرط وحده على الخلاف

---

(٤٣) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٣٨٧.

(٤٤) انظر المصدر السابق ص ٣٨٨.

(٤٥) انظر المصدر السابق ص ٥١٥.

المذكور آنفاً وعلى هذا فليس هنا عقد جديد أصلاً وإنما هو عقد قديم ـ بيع أو رهن ـ إقترن بشرط.

والحقيقة أن جر الكلام إلى موضوع إيجاد عقود جديدة إبعاد للمسألة عن مناط الحكم فيها فليس المحذور فى عقد التأمين كونه عقداً جديداً ـ كما تقدم ـ وإنما لأنه تضمن الغرر والربا والقمار وبيع الدين بالدين وكل هذه الأمور قد اعتبرها الشارع مبطلة للعقود.

٢ ـ عقد الحراسة :

يقول الزرقاء إن المستأجر للحراسة ليس لعمله نتيجة سوى تحقيق الأمان لمن استأجره باطمئنانه على سلامة الشىء المحروس. . . وهكذا الحال فى عقد التأمين يبذل المستأمن فيه جزءاً من ماله فى سبيل الحصول على الأمان من نتائج الأخطار[٤٦].

ويرد عليه بأن عقد الحراسة ليس محل العقد فيه هو الأمان وإنما الأجير يستحق الأجرة فى مقابل القرار فى مكان معين للقيام بالحراسة وهذا هو محل العقد وهو المتحقق فى الواقع وأما الأمان فهو الهدف من العقد والباعث عليه وهذا الهدف قد يتحقق وقد لا يتحقق والأجير يستحق الأجرة بمجرد قيامه بالحراسة سواء حصل الأمان أو لم يحصل وليس عليه شىء إذا لم يفرط. فالأمان إذاً ليس محلاً للعقد وإنما هو أمر معنوى نفسى لا يمكن أن يباع ويشترى بل قد يأتى بلا ثمن وقد يدفع فى طلبه الثمن الكثير ولا يتحقق.

والحقيقة أن عقد الحراسة معاوضة معلومة من الطرفين فصاحب الشىء المحروس يدفع أجرة معلومة والأجير يقوم بعمل معين فليس هناك غرر أو جهالة فى هذا العقد.

وأما عقد التأمين ففيه جهالة العوضين وجهالة مدة العقد فلا وجه لالحاقه بعقد الحراسة المعلوم المحدد.

وهذه المقايسة لا تعد أن تكون وسوسة شيطانية الهدف منها التضليل والمغالطة.

ودعوى أن الأمان هو محل العقد فى عقد الحراسة وعقد التأمين دعوى باطلة يكذبها العقل والواقع فليس فى مقدور أحد من البشر توفير ذلك وإنما هو حقيقة بيد الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ ضمان خطر الطريق :

ضمان خطر الطريق هو فيما إذا قال شخص لآخر أسلك هذه الطريق فإنها آمنة وإن

---

(٤٦) انظر المصدر السابق ص ٤٠٤.

أصابك شيء فأنا ضامن حيث يضمن القائل عند بعض الفقهاء.

يقول الزرقاء: فإنى أجد فيه فكرة فقهية تصلح أن تكون نصاً استثنائياً قوياً فى تجويز التأمين على الأموال من الأخطار[٤٧]..

والرد على هذا أن الأصل فى ضمان خطر الطريق عند من قال به أن المغرور إنما يرجع على الغار إذا حصل الغرور فى ضمن المعاوضة أو ضمن الغار صفة السلامة للمغرور[٤٨]..

والتنظير بين هذا وبين التأمين غير صحيح فشركات التأمين لا تغر الناس ولا تضمن صفة السلامة لمن يتعاقد معها فليس هنا تغرير يشبه التغرير فى مسألة ضمان خطر الطريق عند من يقول به وعليه فلا يمكن قياس عقد التأمين على ضمان خطر الطريق.

وهنا فارق جوهرى آخر وهو أن ضمان خطر الطريق إلتزام من طرف واحد فلا يمكن أن يقاس عليه عقد التأمين وهو عقد معاوضة والتزام من الطرفين.

وأخيراً فإن السلامة شأنها شأن الأمان ليست شيئاً يباع ويشترى لأنها ليست فى مقدور البشر فالتلويح بها مغالطة ظاهرة.

وأما قول الزرقاء: «إن فقهاءنا الذين قرروا هذا الحكم فى الكفالة... لو أنهم عاشوا فى عصرنا اليوم... لما ترددوا لحظة فى إقرار التأمين نظاماً شرعياً»[٤٩]. فلا يستطيع أن يقنعنا بصدق قوله إلا أن يعيد أولئك الفقهاء فيصدقوه فيما زعم وليس بقادر، ومن جانبنا لا نظن فى أولئك الفقهاء أن يقروا التأمين نظاماً شرعياً وقد تضمن ما يقتضى بطلانه من الغرر والربا... الخ.

٤ ـ الحاق عقود التأمين بولاء الموالاة عند الحنفية :

وصفة هذا الولاء أن الرجل يوالى رجلاً آخر على أن يعقل عنه إذا جنى ويرثه إن مات وليس له وارث ويمكن أن يشترطا الارث من الجانبين وهو عند الحنفية خاصة والأرث به عندهم مؤخر عن أرث ذوى الأرحام ومن شرط هذا العقد عندهم أن يكون المعقول عنه حراً مجهول النسب وأن لا يكون عربياً وليس عليه ولاء عتاقة ولا ولاء مولاة مع أحد قد عقل عنه

---

(٤٧) انظر المصدر السابق ص ٤١٠.

(٤٨) انظر حاشية ابن عابدين ٤/ ١٧٠-١٧١.

(٤٩) أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤١٠.

وأن لا يكون عقل عنه بيت المال وأن يشترط العقل والأرث فى العقد(٥٠).

وفى صدد القول بجواز عقود التأمين ينتهى أحد الباحثين إلى أن أركان عقد ولاء الموالاة تتفق إلى حد كبير مع أركان عقد التأمين من المسئولية لأن ولاء المولاة رابطة قانونية بين شخصين بمقتضاها يتعاقدان على أن يعقل أولهما عن الآخر إذا جنى فيدفع عنه الدية فى مقابل أن يرثه مولى الموالاة إذا توفى غير مخلف وارثاً قط وهو فى هذا يناظر عقد التأمين من المسئولية(٥١).

والأصل فى عقد ولاء الموالاة قوله تعالى: ﴿ **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾(٥٢).

والجمهور على القول بعدم صحة هذا العقد فلا يحصل به توارث ولا عقل.. والحق فى هذا مع الجمهور لقول الرسول ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «إنما الولاء لمن أعتق»(٥٣). حيث أفاد حصر الولاء فى نوع واحد هو العتق لشخص واحد هو المعتق وأما الآية فهذا كان فى صدر الإسلام ثم نسخ بآية المواريث.

وقول الحنفية فى ولاء الموالاة على تقدير التسليم بصحته جدلاً لا يشبه عقد التأمين من المسئولية ذلك أن الهدف الذى بنى عليه ولاء الموالاة ليس هو الهدف الذى بنى عليه عقد التأمين.. فولاء الموالاة بنى على النصرة والحماية ولجوء الضعيف الغريب إلى القوى النسيب ولذا فهو لا يعتبر من عقود المعاوضة عند الحنفية القائلين به وإنما هو من عقود التبرع التى يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها.. أما عقد التأمين فهو عقد معاوضة ظاهرة لا يقصد منه عند إنشائه إلا الربح والاستغلال فلا يصح أن يقاس على ولاء الموالاة مع وجود هذا الفارق الجوهرى.. على أن قول الحنفية بمشروعية عقد ولاء الموالاة قول ضعيف مرجوح كما تقدم.

٥ ـ إلحاق عقد التأمين بالوعد الملزم عند بعض المالكية:

وخلاصة مسألة الوعد الملزم عندهم أن الشخص إذا وعد غيره عدة مما ليس بواجب عليه فى الأصل هل يصبح بهذا الوعد ملزماً بالوفاء؟

---

(٥٠) انظر شرح الدر المختار بحاشية ابن عابدين ٦/١٢٥-١٢٧.

(٥١) انظر بحث لأحمد السنوسى فى مجلة الأزهر ٢٥/٢٣٢، ٣٠٣.

(٥٢) سورة النساء آية ٣٣.

(٥٣) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥/١٩٠ و٣٢٦ رقم ٢٥٦٣ بترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ـ المطبعة السلفية. وصحيح مسلم ٢/١١٤١ و١١٤٢ و١١٤٣ عتق رقم ٦و٨.

من المـالكيـة من يقـول إنـه ملزم مطلقاً ومنهم من يقول إنه غير ملزم مطلقاً ومنهم من يقـول يلزم إذا ذكـر لها الـواعـد سبباً وإن لم يبـاشـر المـوعود ذلك السبب كأن يقول أريد أن أقرضك كذا لتتزوج، والراجح عندهم أنه يلزم إذا دخل الموعود فى سبب ذكر فى الوعد(٥٤).

يقـول الـزرقـاء: فإنا نجد فى قاعدة الالتزامات هذه متسعاً لتخريج عقد التأمين على أسـاس أنـه التـزام من المؤمن للمستأمنـين ولـوبلا مقـابل على سبيل الوعد أن يتحمل عنه أضرار الحادث الخطر. . . ولا يخفى أن أقل ما يمكن أن يقال فى عقد التأمين إنه إلتزام تحمل الخسـائـر عن الموعود فى حادث معين محتمل الوقوع بطريق الوعد الملزم نظير الالتزام بتحمل خسارة المبيع عن البائع مما نص عليه المالكية(٥٥).

وقـول بعض المـالكيـة فى هذه المسألـة على التسليم بصحته جدلاً لا يصح أن يقاس عليه عقد التأمين لوجود الفارق بينهما. . فالوعد الملزم عند من قال به تبرع محض لا معاوضة فيه وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى بيان حيث أن الموعود لا يلتزم بشىء مقابل وعد الواعد أما عقـد التأمـين فمعـاوضـة واضحة والتزام من الجانبين كما تقرر. . والتبرعات يغتفر فيها ما لا يغتفر فى المعاوضات كما تقرر أيضاً فلا يمكن أن تقاس المعاوضة من الطرفين فى عقد التأمين على التبرع من طرف واحد فى الوعد الملزم مع وجود هذا الفارق الجوهرى.

٦ ـ إلحاق عقد التأمين بمسألة عقل العاقلة: (٥٦)

فى هذا الصدد يقول الزرقاء: «إن نظام العواقل أصله عادة حسنة قائمة قبل الإسلام فى توزيع المصيبة المالية. . . وقد أقر الشرع الفكرة لما فيها من مصلحة. . . وجعلها إلزامية فى جنـايـة القتـل لأن فيهـا مسئـوليـة متعـديـة بسبب التناصر وذلك بعد إخراج حالة العمد منهـا. . . فما المـانـع من أن يفتح باب لتنظيم هذا التعاون على ترميم الكوارث بجعله ملزماً بطريق التعاقد والإرادة الحرة كما جعله الشرع إلزامياً دون تعاقد فى نظام العواقل؟»(٥٧).

يقـول الـزرقـاء: «يكفى فى القيـاس التشابه بين المقيس والمقيس عليه فى نقطة ارتكاز الحكم ومناطه وهى العلة وهذا ما رأيناه فى نظام العواقل الإسلامى ونظام التأمين الحديث فى بعض فروعه»(٥٨).

---

(٥٤) انظر الفروق للقرافى ٤/ ٢٢ وما بعدها.

(٥٥) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤١٠.

(٥٦) عاقلة الرجل عصبته التى تعقل عنه: أى التى تؤدى عنه دية الخطأ.

(٥٧) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤١٢.

(٥٨) انظر المصدر السابق ص ٥١٧.

وهـذا القيـاس المـزعـوم قياس باطل من أساسه لأن نظام العقل فى الإسلام إلزام من الشـارع لمجمـوعـة من النـاس تربطهم رابطة معينة بتحمل ما توجبه جنايات بعضهم وليس التزام منهم باختيارهم بتحمل شيء ما مقابل عوض كما هو الحال فى عقد التأمين فأين وجه الشبه المزعوم؟

وأيضاً فإن نظام العقل فى الإسلام مبنى على التناصر والبر بين أفراد عائلة واحدة وله أهـداف جليلة وحكمـة فأين هو من نظام التأمين المبنى على التجارة وطلب الكسب والربح واستغلال الناس؟ ومن أين للزرقاء أن يزعم مع كل ذلك أن نقطة ارتكاز الحكم ومناطه وهى العلة متفقة فى النظامين؟

والخلاصة انه لا يصح هذا القياس مع وجود هذه الفروق الأساسية فى جوهر النظامين.

٧ ـ الاحتجـاج بالمصلحـة :

وفى هذا يقول عبد الرحمن عيسى : إن التأمين التجارى يحقق مصالح اقتصادية كبيرة للمجتمع . . وبعد سرد شواهد تدل على اعتبار المصلحة فى الشرع يقول : وقد بينا بوضوح تام أن التأمين يحقق مصالح عامة هامة فيكون حكمه الجواز شرعاً إعتباراً لما يحققه من المصالح[٥٩] . .

وبناء الشريعة على مبدأ جلب المصالح ودرء المفاسد أمر معروف ومسلم به لكن المراد بالمصـالـح ما اعتـبرهـا الشرع كذلك وأما المصالح الملغاة فى الشرع فلا اعتبار لها ولو اعتبرها العقـل البشـرى مصـالح. فالأمور المنهى عنها أو التى تتضمن إرتكاب نهى لا اعتبار لما يزعم فيها من مصالح فهى على تقدير وجودها مصالح ملغاة.

ومـا يزعم فى نظـام التأمـين من مصـالـح هى ـ على تقـدير وجودها ـ مصالح ملغاة لتضمن عقـد التأمـين أموراً وردت النصوص القطعية بالنهى عنها والوعيد الشديد عليها من الغـرر والـربـا والقـمار وبيـع الـدين بالدين كما سبق فإن رأت بعض العقول البشرية فى نظام التأمين مصلحة ما فهى مصلحة مهدرة ملغاة شرعاً لما تقدم.

وجميع ما نقل عن الصحابة وفقهاء السلف من تقرير أحكام استناداً إلى المصلحة إنما

---

(٥٩) انظر المصدر السابق ص ٤٧٣ وما بعدها.

كان ذلـك فى أمـور موافقـة لمقـاصـد الشريعة ولم يرد فيها نص عن الشارع فالمصلحة المعتبرة عندهم ما فهموا من الشرع إعتباره فى إقتضاء الأحكام ولا يستقل العقل بدركه[٦٠]. .

وبهـذا يعلم يقينـاً أنـه لا اعتبـار لما يزعم فى عقـود التأمـين من مصلحة لعدم موافقتها لمقاصد الشريعة بل ولورود النص بالنهى عما تضمنته هذه العقود من غرر وربا. . . الخ.

٨ ـ الاحتجاج بأن التأمين ضرورة إقتصادية :

خلاصة الاحتجاج بالضرورة أن حاجة الناس إلى التأمين قد اشتدت وعظمت وأنه يشق عليهم تركـه خوفـاً من الكـوارث حيث أصبح التأمين ضرورة لحفظ أموالهم وإن لم يكن من ضروريات الناس فإنه من حاجياتهم التى يترتب على فقدها الضيق والمشقة حيث أنهم قد الفـوه وتغلل فى جميـع نواحى حيـاتهم فلومنعـوا منـه لوقعـوا فى حرج ومعلوم فى الشـريعة الإسلامية أن المشقة تجلب التيسير والضرورات تبيح المحظورات[٦١]. .

وتقـريـرهم للاحتجاج على النحو السابق يتضمن اعترافهم بأن عقد التأمين يشتمل على أمور محرمة.

وهـذا الاحتجـاج يدل على جهـل قائله بأصول الشريعة الإسلامية ومبادئها إذ كيف يتصور أن توجد الضرورة إلى نظام كنظام التأمين؟ قد توجد الضرورة فى حالات فردية تقدر بقدرها وتقيد بشروطها مثل اضطرار الذى يخشى الهلاك إلى أكل الميتة ومثل هذه الصورة لا تتصور فى نظام كهذا النظام.

وإذا عرفنـا أن للضـرورة حدوداً يعـرف بها ما يكون ضرورة فى واقع الأمر وما لا يكون وعـرفنـا معنى الضـرورة وأنهـا ما يترتب على تركـه تلف النفس أو العضـو فهل الحاجة إلى التأمين من هذا الصنف؟ كلا.

وإذا وجدت ضرورة فإنما تقدر بقدرها كما تقدم وتعتبر أمراً إستثنائياً يزول بزوال الحالة التى الجأت إليـه ولا يمكن أن يجعـل قاعـدة عامـة فى صورة نظـام عام فإن مثل هذا يستلزم حاجة الشريعة إلى أنظمة وعقود محرمة واعتقاد مثل هذا قد يؤدى بصاحبه إلى الكفر والعياذ

---

(٦٠) راجـع إن شئت المستصفى لأبى حامـد الغـزالى (ص ٢٥٠ ومـا بعـدهـا) تحقيق محمـد أبو العلا، الناشر مكتبة الجندى بالقاهرة. والاعتصام للشاطبى (٢/٦٦ وما بعدها) الناشر دار التحرير للطباعة والنشر.

(٦١) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٦٤ و٤٧٦ وما بعدها.

بالله لأنه يستلزم الاعتقاد بنقص الشريعة الإسلامية وتكذيب الله عز وجل القائل: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم . . .** ﴾[٦٢].

وحتى الحاجة التى تنزل منزلة الضرورة مشروطة بأن يكون قد شهد لها الشرع بالاعتبار فليس كل ما يسبب حرجاً للناس يستباح به المحظور وقد ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾[٦٣] قول العلماء: «رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع»[٦٤].

وما من شك أن من استقام على منهاج الشرع واتقى الله عز وجل فلن يجد حرجاً حين يمتنع من عقود التأمين.

والخلاصة أن الاحتجاج بالضرورة لا يصلح دليلاً لاباحة عقود التأمين إذ ليس هناك فى الحقيقة ضرورة بالمعنى الشرعى.

الاحتجاج بنظام التقاعد :

يستدل الزرقاء بموقف فقهاء الشريعة ـ كما يقول ـ من نظام التقاعد مع أنه نظام تأمينى بكل ما فى كلمة التأمين من معنى . . . يقول: فما الفرق بين هذا النظام وبين التأمين على الحياة؟ . . . ويضيف بأن الغرر والجهالة فى نظام التقاعد أعظم منها فى التأمين على الحياة ومع هذا يقره علماء الشريعة . . . فلماذا يحسن وجود هذا النظام التقاعدى بين الدولة وموظفيها ولا يجوز نظيره تعاقداً بين الناس[٦٥] . .

والرد على تساؤله هو وجود الفارق بينهما فالتأمين عقد بين طرفين مبنى على الغرر والربا مراد به الربح والكسب وأما نظام التقاعد فليس فيه تعاقد وإنما هو إلزام من طرف الدولة وحدها ليس فيه اتفاق وتعاقد مع الموظف ولا يراد به الربح والتجارة . . وحقيقة أن الراتب ومعاش التقاعد كله من الدولة وكان بامكانها أن تحسب الرواتب صافية دون الإشارة إلى حسم تقاعد وتلتزم باعاشة الموظف بعد التقاعد وهى ملزمة برعاية رعيتها وعلى الأخص الذين قضوا حياتهم فى خدمتها . . فعلماء الشريعة لم يعلنوا النكير على نظام التقاعد لأنهم لم يروا فيه صورة العقد الذى يشترط له ما يشترط للعقود وإنما هو إجراء وإلزام من جانب

---

(٦٢) سورة المائدة آية ٣.

(٦٣) سورة الحج آية ٧٨.

(٦٤) تفسير القرطبى ١٢/١٠١.

(٦٥) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤١٤ وما بعدها.

الدولة وحدها فى مجال تنظيم رواتب ومعاشات موظفيها .

وليس كلامى هنا فى مجال الحكم على نظام التقاعد من حيث جوازه أم لا وإنما كلامى يدور حول وجود الفارق الجوهرى والأساسى بين عقود التأمين وبين نظام التقاعد فلا يصح مع هذا التنظير بينهما .

١٠ ـ الاحتجاج بالتراضى :

ورد فى كلام بعضهم أن كلاً من طرفى العقد فى التأمين يتعاقد مع الآخر عن رضى تام ورغبة تامة[٦٦] . .

وهذا القول يدل على جهل فاضح فمتى كان التراضى على العقد المحرم مبيحاً له فعقد الربا المحرم بالاجماع لا يمكن أن يحله التراضى فكذلك عقد التأمين لا يحله التراضى وهو يتضمن أموراً يحرمها الشرع ، فالتراضى المعتبر فى قوله عز وجل : ﴿ **إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾[٦٧] . هو فيما أحله الله من العقود ولا اعتبار للتراضى فيما حرمه الله سبحانه وتعالى .

١١ ـ الحاق عقود التأمين بالجعالة :

زعم محمد البهى أن عقد التأمين هو عقد جعالة بين الشركة وجميع المؤمنين[٦٨] . .

ولا وجه لزعمه هذا فالجعالة إجارة على منفعة مظنون حصولها مثل مشارطة الطبيب على البرء والناشد على وجود العبد الآبق . . ويشترط فيها عند من أجازها أن يكون الثمن معلوماً وأن يكون العمل مما لا ينتفع الجاعل بجزء منه . . والأصل فيها قوله تعالى : ﴿ **ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم** ﴾[٦٩] . وما فى الأثر من أخذ الثمن على الرقية بأم القرآن[٧٠] .

فالجعالة إذاً معاوضة بين الجاعل وبين من يعمل العمل . . الجاعل يلتزم بمال معلوم والآخر يقوم بعمل معين فأين هذا من عقد التأمين بين المؤمن والمستأمن؟ وأيهما الجاعل؟ وأيهما الذى يقوم بالعمل؟ كل هذا لا ينطبق على عقد التأمين فالتأمين التزام بمال مقابل

---

(٦٦) انظر أسبوع الفقه الاسلامى ص ٤٧٣ .

(٦٧) سورة النساء آية ٢٩ .

(٦٨) انظر رأى الدين بين السائل والمجيب (ص ١٨٦ وما بعدها) .

(٦٩) سورة يوسف آية ٧٢ .

(٧٠) انظر بداية المجتهد ٢/٢٣٤ـ٢٣٥ والمغنى ٥/٧٢٢ وحديث الرقية بأم القرآن رواه البخارى ومسلم . انظر صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٤/٤٥٣ رقم الحديث ٢٢٧٦ وصحيح مسلم ٤/١٧٢٧ـ١٧٢٨ كتاب السلام حديث رقم ٦٥و٦٦ .

التزام بمال وهذا الالتزام غير معلوم المقدار وفى الجعالة يشترط أن يكون معلوماً . . والالتزام فى عقد التأمين لا يقابله عمل وإنما يقابله التزام بمال أيضاً وفى الجعالة يقابل الثمن المعلوم عمل معين فلا يمكن أن يقاس عقد التأمين على الجعالة للاختلاف الظاهر بينهما بوجود مثل هذه الفروق الجوهرية التى تمنع القياس .

وبهذا يتبين أنه ليس هنا مستند صحيح للقائلين بجواز عقود التأمين وقد أغفلت بعض أقوالهم مما لا وجه له ولا يستحق المناقشة . . وفى الحقيقة أن كل ما أثاروه لا قيمة له ولكنها وساوس وشبه أثيرت فلزم البيان .

وقد أصاب السنهورى عندما قال : لا يجوز قياس عقد التأمين على عقود أو نظم معروفة فى الفقه الإسلامى فهو لا يشبه عقد المضاربة ولا هو كفالة ولا هو وديعة بأجر ولا هو عقد موالاة ولا يدخل فى ضمان خطر الطريق ولا فى الوعد الملزم ولا فى نظام العواقل . . . وإنما التأمين عقد جديد له مقوماته وخصائصه وهو ليس بين العقود أو النظم التى عرفها الفقه الإسلامى [٧١] .

وهكذا ننتهى إلى أن عقد التأمين لا يشبه أى عقد من عقود المعاوضة فى الفقه الإسلامى وكل ما أثاروه من شبه تبين بطلان الاحتجاج بها وبهذا ننتهى إلى الجزم بتحريم عقود التأمين لتضمنها ما نهى الشرع عنه من الغرر والربا والقمار وبيع الدين بالدين . .

عقد التأمين التعاونى

لقد انتهى أكثر الباحثين فى التأمين إلى أن عقود التأمين عقود محرمة إلا أن بعضهم استظهر جواز عقد التأمين التعاونى وفرق بينه وبين التأمين التجارى معتمداً على بعض الشواهد والفروق وقالوا إنه يمكن إيجاد نظام تأمين تعاونى يتفق مع نصوص الشريعة وقواعدها [٧٢] .

وقد استدلوا لذلك بالنصوص الآمرة والمرغبة بالتعاون على البر والتقوى والتواد والتراحم والتعاطف بين أفراد المسلمين .

---

(٧١) الوسيط ١٠٨٩/٧ .

(٧٢) من هؤلاء الشيخ محمد أبو زهره فى بحثه فى أسبوع الفقه الاسلامى ص ٥٢٦ ومحمد الدسوقى فى كتابه التأمين وموقف الشريعة منه (ص ١٣٩ وما بعدها) المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة عام ١٣٨٧هـ. وحسين حامد حسان فى كتابه حكم الشريعة فى عقود التأمين (ص ١٣٦ وما بعدها) دار الاعتصام . وعباس حسنى فى كتابه عقد التأمين فى الفقه الاسلامى والقانون الوضعى (ص ٧٣) ومحمد بلتاجى فى كتابه عقود التأمين (ص ٢٠٠ وما بعدها) .

كما ذكرت بعض الشواهد الواردة فى هذا المجال وهى كالتالى :

١ ــ حديث جابر بن عبد الله أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل فامر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم فخرجنا حتى إذ كنا ببعض الطريق فنى الزاد[٧٣] فأمر أبو عبيدة بازواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله فكان مِزوَدَى تمر فكان يقوتناه كل يوم قليلاً قليلاً حتى فنى فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة . . . » الحديث متفق عليه[٧٤] .

وجمع الطعام فى السفر يدخل فى النهد والتناهد هو اخراج القوم نفقاتهم على قدر عدد الرفقة وقيده بعضهم بالسوية وبالسفر ولعل هذه أصله ــ خلط الزاد فى السفر ــ لكن قد يتفق حصوله فى الحضر[٧٥] . وقيده ابن الأثير بسفر الغزو فقال : ما تخرجه الرفقة عند المناهدة إلى العدو وهو أن يقسموا نفقتهم بينهم بالسوية حتى لا يتغابنوا ولا يكون لأحدهم على الآخر فضل ومنة[٧٦] .

٢ ــ حديث سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : خفت أزواد القوم وأملقوا[٧٧] فأتوا النبى ﷺ فى نحر ابلهم فأذن لهم فلقيهم عمر فاخبر وه فقال ما بقاؤ كم بعد إبلكم؟ فدخل على النبى ﷺ فقال يارسول الله ما بقاؤ هم بعد إبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ : ناد فى الناس يأتون بفضل أزوادهم فبُسط لذلك نِطع وجعلوه على النطع فقام رسول الله ﷺ فدعا وبرك عليه[٧٨] ثم دعاهم باوعيتهم فاحتثى[٧٩] الناس حتى فرغوا . . . » الحديث متفق عليه[٨٠] .

٣ ــ حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : إن الأشعريين إذا أرملوا[٨١] فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم» متفق عليه[٨٢] .

---

(٧٣) أى كاد يفنى .

(٧٤) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥/١٢٨ رقم ٢٤٨٣ ومسلم ٣/١٥٣٧ صيد رقم ٢١ واللفظ للبخارى .

(٧٥) انظر فتح البارى ٥/١٢٩ .

(٧٦) النهاية فى غريب الحديث والأثر (٥/١٣٥) تحقيق الطناحى طبعة عيسى الحلبى .

(٧٧) أملقوا : أى افتقروا .

(٧٨) برك عليه : أى دعا بالبركة .

(٧٩) إحتثى : من الحثى وهو الأخذ بالكفين .

(٨٠) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥/١٢٨ رقم الحديث ٢٤٨٤ وصحيح مسلم ٣/١٣٥٤-١٣٥٥ لقطة رقم الحديث ١٩ وروى نحوه عن أبى هريرة ١/٥٥-٥٦ كتاب الإيمان رقم الحديث ٤٤ .

(٨١) أرملوا : أى فنى زادهم وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل من القلة كما قيل فى قوله تعالى : ﴿ ذا متربة ﴾ البلد/١٦ .

(٨٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ٥/١٢٨-١٢٩ رقم ٢٤٨٦ ومسلم ٣/١٩٤٤-١٩٤٥ فضائل الصحابة رقم ١٦٧ .

والأحاديث فى هذا الباب تدل على أنه لا يتقيد بالتسوية إلا فى القسمة(٨٣) وأما فى الأكل فلا تسوية لاختلاف حال الآكلين ولأن الذى يوضع للأكل سبيله المكارمة لا التشاح . . . وقد اغتفر الربا فى النهد لثبوت الدليل على جوازه(٨٤) وذلك أن الشخص قد يأكل أكثر أو أقل مما أخرج وكذلك فى القسمة قد يكون ما يقسم للشخص أكثر أو أقل ما أخذ منه لكنه اغتفر هذا الفضل للدليل الدال على جوازه .

وما حصل فيما ذكر لم يتم عن طريق التعاقد والإلتزام بين أطراف فى هذا التعاقد بدفع شىء معين أو غير معين مقابل إلتزام آخر وإنما يتم عن طريق المواساة فى أوقات الحاجة والمجاعة .

وكذلك ليس فيما ذكر إرادة المبايعة والبدل وإنما يفضل بعضهم بعضاً بطريق المواساة . . فما ذكر فى هذه الأحاديث إنما هو خلط الزاد فى السفر والإقامة من باب الإيثار والمواساة وطلب البركة(٨٥) فلا يصلح أن يستدل بها لانشاء عقد تأمين بدعوى أنه تعاونى وليس تجارى .

والذى يظهر أن ما ورد فى هذا إنما هو حالة إستثنائية خاصة فيمكن أن يطبق حكمها على ما يماثلها فقط ولا يصح أن تجعل قاعدة عامة يبنى عليها تنظيم عام وهذا ما يدل عليه تقييد العلماء للنهد بما تقدم كما يدل عليه الحالات التى حصلت فيها الشواهد المذكورة .

ثم إنه لا عبرة بتسميته تأمين تعاونى وإنما العبرة بالكيفية التى يتم بها هذا الشىء فان كان على سبيل التبرع والإحسان بحيث لا يلزم أحد بدفع أقساط معينة بل كل يدفع ما شاء متى شاء وكذلك لا يلتزم له بدفع تعويض عن خطر ما وإنما يواس ويجبر دون التزام له بذلك فإن كان بمثل هذه الكيفية فلا بأس به إن شاء الله و(ما على المحسنين من سبيل) ويغتفر فى التبرعات ما لا يغتفر فى غيرها .

وأما إن كان عن طريق التعاقد بان يلتزم كل واحد بدفع أقساط معينة ويلتزم له

---

(٨٣) فى حديث سلمة لم يذكر فيه التسوية فى القسمة إلا أن يقال إن مثل هذا داخل فى موضوع المعجزات فلا يستدل به لهذا الباب أصلاً وهذا هو الظاهر.

(٨٤) انظر فتح البارى ٥/١٢٩ وعمدة القارى شرح صحيح البخارى (١٣/٤٠و٥٠) للعينى الناشر دار الفكر.

(٨٥) يدل لهذا ما رواه أبو عبيد فى الغريب عن الحسن قال: «أخرجوا نهدكم فإنه أعظم للبركة وأحسن لأخلاقكم» انظر فتح البارى ٥/١٢٩ وقال العينى: وحكى عن عمرو بن عبيد عن الحسن فساقه وزاد «وأطيب لنفوسكم» عمدة القارى ١٣/٤٠ والله أعلم بالصواب.

بتعـويض لما يصيبـه فهـذا لا يخرجـه عن صورة العقد المحرم كونه يراد منه التعاون والتكافل وكـذا لا يغـير من الحقيقـة شيئاً تسميتـه عقـد تأمين تعاونى أو إسلامى أو غير ذلك فالعبرة بجوهره وحقيقته وهى هنا التزام بما لا يلزم ومشتمل على شبهة المحاذير السابقة .

والـذى يظهـر من كلام المجـوزين للتأمـين التعاونى أنهم يريدون إنشاء تعاقد فى هذا المجال يدل على هذا تسميته عقداً حيث يوحى بأنه التزام كما يدل عليه أيضاً وصفهم له بأنه تبـادلى . يقـول الـدكتـور محمـد بلتـاجى : لابـد أن يكون تعاونياً . . . وتبادلياً لأن لكل من المشـتركـين فيـه أصـلاً نفس الحقـوق والـواجبـات»[٨٦] فوصفه بأنه تبادلى يقتضى أنه عقد معاوضة لأن البيع هكذا أصله مبادلة مال بمال[٨٧] .

ومن ذلك أيضاً ما يرد فى كلامهم عن التأمين التعاونى من قولهم : «أطراف التعاقد» . «نظـامـاً تعـاقـديـاً» . «ومن ثم يتفقون فيما بينهم على قسط الاسهام ونوع الخطر المؤمن منه ومبلغ التأمين»[٨٨] .

يقـول محمـد بلتـاجى : «يصبـح الاتجاه إلى تكون التعاونيات الإسلامية أمراً مطلوباً ليس لأنه بديل عن الزكاة والصدقات والتزام بيت المال بل هو يؤازرها بتعاقدات اختيارية»[٨٩] .

ويقول : «فهل هناك مانع من قيام نظم تعاقدية اختيارية تؤازر هذا النظام؟ إن ذلك فيما نرى أمر مطلوب . . . »[٩٠] .

فكل هذه التعبيرات وغيرها تدل على أنهم يعنون بالتأمين التعاونى ما يتم عن طريق التعاقد الذى يلتزم فيه المستأمن بدفع أقساط معينة ويلتزم له بدفع تعويض عن آثار خطر ما وهـو بهذه الكيفيـة لا يخرج عن صورة عقـد التأمـين الممنوع ولا يفيد كونه يراد منه التعاون أو يسمى تعـاونيـاً كما لا يفيـد أيضـاً وصفـه بأنـه اختيـارى فما يسمونه عقد تأمين تجارى يكون اختيـاريـاً وهم لا يجوزنـه فكـذلـك ما يسمـونـه تعـاونياً بل إن عقد الربا يكون اختيارياً بين أصحابه ولا يحله ذلك وبهذا يتبين أن مثل قولهم «تعاقدات اختيارية» لا معنى منه .

---

(٨٦) عقود التأمين ص ٢١٥ .

(٨٧) انظر المصباح المنير ١/٧٧ طبعة مصطفى الحلبى .

(٨٨) عقود التأمين من وجهة الفقه الاسلامى ص ٢٢٣ .

(٨٩) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٩٠) المصدر السابق ص ٢٤١ .

وأما دعوى قيام الحاجة إلى مثل هذا العقد[٩١] فهى فى ظل الإسلام لا تعد أن تكون خرافة لا أساس لها فعند التطبيق الكامل للإسلام لن يكون هناك حاجة إليها أبداً والذين يدعونها ينطلقون فى تقديراتهم من واقع مجتمعات لا تطبق الإسلام فى الأموال فلو طبق لما قامت الحاجة المدعاة كما لم تقم هذه الحاجة فى الماضى عندما كان يطبق نظام الإسلام كاملاً .

هذا ما انتهيت إليه فيما يسمى التأمين التعاونى مع التسليم بأن التبرعات يغتفر فيها ما لا يغتفر فى المعاوضات إلا أن التبرعات تتم من طرف واحد دون التزام من الطرف الآخر وكذا ما يتم بطريق المواساة فى أوقات المجاعة كما فى الأحاديث المتقدمة وما لم ير فيه المسلمون بأساً من النهد لأن ما يقدم للأكل مبنى على المكارمة لا التشاح فكل ذلك يدل على جواز ما يتم من طريق التبرع والإحسان والمواساة والمكارمة ـ وخلط الازواد فى السفر لأجل ذلك وطلباً للبركة ـ لكن لا يدل هذا على جواز إنشاء عقود تبادلية فيها التزامات من أطراف العقد ولو كان القصد منها التعاون لأن جوهرها فى الحقيقة معاوضة مادامت مبنية على تعاقد والتزام من أطراف التعاقد وهو إلتزام بما لا يلزم وترد عليه شبهة المحاذير السابق بيانها . . . والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله . .

(٩١) انظر المصدر السابق ٢٣٢ .

البدع وآثارها السيئة

للشيخ عبد الكريم مراد
أستاذ مشارك بكلية الشريعة بالجامعة

الحمد لله الذى أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته ورضى لنا الإسلام دينا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ورسوله المجتبى المبعوث رحمة للعالمين ، فتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوبا غلفا ، ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

وبعـد فقد صدق النبى ﷺ : بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فإن البدع قد فشت ومدت أعناقها حتى أصبحت سننا ثابتة وشرائع مقررة حسبها العامة والجمهور دينا لا يرون الحق غيره . والمتمسك بمحض السنة عندهم كالخارج عنها . ولقد صدق حذيفة رضى الله عنه : والله لتفشون البدع حتى إذا ترك شىء منها قالوا : تركت السنة . والمؤمن المتبصر فى أمر دينه لا يشك فى أن اتباع البدع خروج عن الصراط المستقيم ورمى فى عماية وضلالة . أعاذنا الله منها .

وهذه كلمة موجزة منتخبة من كلام أئمة الإسلام مثل شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام أبى إسحاق الشاطبى وغيرهما رحمهم الله فى معنى البدعة شرعا وذمها وسوء منقلب أهلها مع إلقاء وضح وضوء على الاستحسان الفقهى والاستدلال المرسل المسمى بالمصلحة المرسلة حتى يتبين أن البدع ليست من هذين الأصلين الفقهيين فى ورد ولا صدر ولا تبقى لأحد شبهة فى أنه ليس فى البدع مستحسن وفى أن كل بدعة ضلالة .

معنى البدعــة :

أصل مادة «بدع» معناه الاختراع على غير مثال سابق .

ومنه قوله تعالى : ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أى مخترعها لا عن مثال سابق متقدم . والبِدْع : الشيىء الذى يكون أولاً ، يقال : فلان بدع فى هذا الأمر أى أولٌ لم يسبقه

أحـد. ومنـه قولـه تعالى: ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ أى ما كنت أول رسول أرسل قد أرسل قبلى كثير ون[1].

ومن هذا المعنى سميت البـدعـة بدعـة، فإحـداثها واستجراحها للسلوك عليها هو: الابتداع، وكيفيتها وهيئتها هى: البدعة.

وقد يسمى العمل المعمول على هذا الوجه أيضا بدعة.

تعريف البدعـــــة:

البدعة شرعا: هى طريقة مخترعة فى الدين تضاهى الطريقة الشرعية يقصد بالسلوك عليها التعبد لله تعالى.

شرح التعـريف: «طـريقة» الطريقة والطريق والسبيل والصراط والسنة ألفاظُ معناها واحد وهو: مارسم للسلوك عليه.

«مخترعة فى الدين» محدثة فيه على غير مثال سابق من الشرع. خرج بهذا القيد كل ما يظهر لبادىء الرأى أنه مخترع مما له أصل فى الشرع كجمع القرآن وتدوين السنن.

وإنـما قيـدت بالـدين لأن البدعة تحدث فى الدين وإليه يضيفها صاحبها وهو المبتدع، فلو كانت مخترعة فى الأمور الدنيوية على الخصوص لم تسم بدعة كالمخترعات الحديثة وسائر مالا عهد به فيما تقدم من الزمان.

«تضـاهى الطـريقـة الشـرعيـة» أى تشابهها يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية وهو: التعبد لله تعالى وفى الحقيقة هى مخالفة لظاهر الشريعة من جهة ضرب الحدود وتعيين الكيفيات والتزام الهيئات الخاصة أو الأزمنة المعينة مع الدوام ونحو ذلك كالذكر بهيئة الاجتـماع على صوت واحـد ورفـع الأيـدى فى الـدعـاء جماعيا بعد الصلوات الخمس على الدوام واتخاذ يوم ولادة النبى ﷺ عيدا مضاهاة للنصارى فى عيد ميلاد عيسى عليه السلام، وقـد أحـدث عيـد الميلاد هذا فى الإسلام بعد المائة السادسة من الهجرة ولم يفعله السلف مع قيـام المقتضى له وعـدم المـانـع منـه ولو كان هذا خيرا محضا أو راجحاً لسبق إليه السلف من الصحـابـة والتـابعين رضى الله عنهم فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا وهم على الخـير أحـرص وإنـما كمال محبتـه ﷺ وتعظيمـه فى متابعته وطاعته وهى طريقة السابقين الأولـين من المهـاجـرين والأنصار والذين تبعوهم بإحسان[2]. وكذلك صوم يوم النصف من

---

(١) لسان العرب.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٩٤.

شعبان وقيام ليلته. والحديث الذى رواه ابن ماجه فى ذلك ضعيف جدا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فضل ليلة النصف من شعبان مختلف فيه بين أهل العلم من السلف والخلف وأما صوم يوم النصف مفردا فلا أصل له وكذلك ما أحدث فى ليلة النصف من الاجتماع العام للصلاة الألفية فى المساجد الجامعة ومساجد الأحياء مكروه لم يشرع. والحديث الوارد فى الصلاة الألفية موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث. وسميت بالصلاة الألفية لقراءة سورة الإخلاص فيها ألف مرة.

وكذلك صوم يوم أول خميس من رجب وقيام ليلة تلك الجمعة والصلواة فيها المعروفة عند الجهال بصلاة الرغائب المحدثة فى الإسلام بعد المائة الرابعة من الهجرة. والحديث فى ذلك أيضا موضوع.

والبدعة لو كانت لا تضاهى الأمور الشرعية ولا تشابهها لم تكن بدعة شرعا بل تصير من باب الأفعال العادية. «يقصد بالسلوك عليها التعبد لله تعالى» هذا إتمام لمعنى البدعة إذ هو المقصود بابتداعها.

خرج بهذا القيد العاديات، فكل ما أحدث مما لم يقصد به التعبد لا يسمى بدعة شرعاً. ومن سمى ذلك بدعة فهو إما ملبس على غيره أو جاهل بمواقع السنة والبدعة فلا يكون قوله معتدا به ولا معتمدا عليه.

والتعريف يشمل البدع التَركية فإن من ترك شيئا من المطلوبات الشرعية تدينا فهو مبتدع قطعاً حيث تدين بضد ما شرعه الله تعالى.

وأما الترك إذا كان لغير التدين من كسل أو تضييع أو نحو ذلك من الدواعى النفسية فلا يكون بدعة بل هو عائد إلى المخالفة للأمر فيكون التارك عاصياً لمخالفة ما أمر الله تعالى به.

كل بدعة ضلالة:

ذم البدع والمحدثات فى الدين عام لا يخص محدثةً دون محدثةٍ. والأدلة الشرعية تدل على العموم من وجوه:

الأول: أنها جاءت مطلقة عامة على كثرتها لم يقع فيها استثناء البتة ولم يأت ما يقتضى أن من البدع ما هو هدى، فلو كان هنالك بدعة يقتضى النظر الشرعى فيها الاستحسان لأشير إلى ذلك فى آية أو حديث لكنه لا يوجد.

فدل ذلك على أن تلك الأدلة بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية والعموم

لا يتخلف عن مقتضاها فرد من أفراد البدعة .

الثاني: أنه قد تقرر أن كل قاعدة كلية ودليل شرعى إذا تكررت فى مواضع كثيرة ولم يقترن بها تقييد ولا تخصيص مع تكرارها فذلك دليل على بقاء تلك القاعدة على مقتضى ظاهر لفظها من العموم مثل قوله تعالى : ﴿**ولا تزر وازرة وزرأخرى**﴾ . وقوله : ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**﴾ وما أشبه ذلك .

وما نحن بصدده من هذا القبيل إذ جاء فى الأحاديث المتعددة والمتكررة فى أوقات شتى وبحسب الأحوال المختلفة أن كل بدعة ضلالة وأن كل محدثة بدعة ، ونحو ذلك من العبارات التى تدل على عموم ذم البدع والمحدثات فى الدين ولم يأت فى آية ولا حديث تقييد ولا تخصيص ولا ما يفهم منه خلاف ظاهر العموم والكلية فيها .

فدل ذلك دلالة واضحة على أن تلك الأحاديث على ظاهرها من العموم والإطلاق .

الثالث: إجماع السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان على ذم البدع بدون استثناء والهروب عنها وعن أصحابها .

فهذا بحسب الاستقراء إجماع ثابت يدل على أن كل بدعة مذمومة .

الرابع : أن معنى البدعة ومفهومها يقتضى عموم ذم البدع كلها بدون استثناء لأنه باب مضادة الشارع واطراح للشرع ، وكل ما كان كذلك فممتنع أن ينقسم إلى : حَسن وقبيح وأن يكون منه ما يمدح ومنه ما يذم إذ لا يصح فى معقول ولا منقول استحسان مشاقة الشارع ومخالفته(١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى اقتضاء الصراط المستقيم (٢٦٨) بعد الكلام على أعياد الكفار والمشركين: ومن المنكرات فى هذا الباب سائر الأعياد والمواسم المبتدعة لما في ذلك من المشابهة للكفار ولأنها من البدع .

وهذه المواسم إنما نهى عنها لما حدث فيها من الدين الذى يتقرب به إلى الله تعالى . فما أحدث من المواسم والأعياد فهو منكر وإن لم يكن فيه مشابهة لأهل الكتاب والمشركين لأن ذلك داخل فى مسمى البدع والمحدثات فيدخل فى عموم قول النبى ﷺ : وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وفى رواية النسائى : وكل ضلالة فى النار، وفى حديث العرباض ابن سارية الصحيح : وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . رواه أبو داوود وغيره .

---

(١) الاعتصام للشاطبى .

وقوله: من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد متفق عليه ولمسلم: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد.

واعلم أن هذه القاعدة وهى الاستدلال بكون الشيىء بدعة على كراهته سواء بلغت الكراهة التحريم أو لم تبلغه هى قاعدة عظيمة دل عليها السنة والإجماع مع مافى كتاب الله من الدلالة عليها أيضاً.

وأما ما ثبت حسنه بدليل شرعى فليس من البدع الشرعية فيبقى العموم محفوظاً لا خصوص فيه إذ البدعة شرعا: ما لم يدل عليه دليل شرعى.

تقسيم البدعة إلى: حسنة وسيئة تقسيم محدث لايدل عليه دليل شرعى

فإن قيل إن غير واحد من العلماء قسم البدعة إلى قسمين: بدعة حسنة وبدعة سيئة مثل النووى وملا على القارى وغيرهما بدليل قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صلاة التراويح: نعمت البدعة هذه، وبدليل أشياء من الأقوال والأفعال أحدثت بعد عهد رسول الله ﷺ وهى ليست مكروهة بل حسنة للأدلة الدالة على ذلك من الاجماع أو القياس وقد بسط القول فى ذلك أبو العباس شهاب القرافى من المالكية فقال: اعلم أن الأصحاب فيما رأيت متفقون على إنكار البدع نص على ذلك ابن أبى زيد وغيره والحق التفصيل وأنها خمسة أقسام:

الأول: واجب وهو ما تناولته أدلة الوجوب وقواعده من الشرع كجمع القرآن وتدوين الشرائع إذ خيف عليها الضياع.

الثانى: محرم وهو ما تناولته أدلة التحريم وقواعده من الشرع كالمكوس والمحدثات من المظالم.

الثالث: مندوب وهو ما تناولته أدلة الندب وقواعده من الشرع كصلاة التراويح فى المسجد جماعة.

الرابع: مكروه وهو ما تناولته أدلة الكراهة وقواعدها من الشرع كتخصيص بعض الأيام أو الليالى بنوع من العبادات. والزيادة فى المندوبات المحدودة من هذا الباب والزيادة فى الواجب أو عليه أشد فى المنع.

الخامس: مباح وهو ما تناولته أدلة الإباحة وقواعدها من الشرع مثل اتخاذ المناخل للدقيق وغسل اليدين بالأشنان.

قال : فالبدعة تعرض على قواعد الشرع وأدلته فأى شيىء تناولها من الأدلة ألحقت به من ايجاب أو تحريم أو غيرهما .

وقد قسم البدعة قبل القرافى شيخه عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام إلى الأحكام الخمسة . وملخص الإيراد والمعارضة : ليست كل بدعة ضلالة .

أقــول : قد تقـدم الجـواب عن ذلـك فى كلام الشـاطبى وأشـير إليـه فى كلام شيـخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله وأعيد الجواب موجزاً لمسيس الحاجة إلى ذلك .

فأقول : إن هذا تقسيم محدث لا يدل عليه دليل شرعى بل هو تقسيم فى نفسه متدافع منهار لا أساس له لأن البدعة الشرعية هى ما لم يدل عليه دليل شرعى فإذا دل دليل شرعى على وجوب أمر أو ندبه أو نحو ذلك لم يكن بدعة .

فالجمـع بين عد بعض الأشيـاء من البـدع وبـين كون الأدلة تدل عليها من وجوب أو تحريم أو غيرهما جمع بين المتنافيين(١) .

قال فى الـدين الخـالص : إن الله تعالى ورسوله ﷺ لا يرضيان بدعة أى بدعة كانت . فلو كانت بدعـة حسنـة لما قال النبى ﷺ : كل محدثـة بدعة وكل بدعة ضلالة . يالله العجب من أمثال هذه المقالة ، ألم يعلموا أن فى إشاعة البدع إماتة السنن وفى إماتتها إحياء الدين وعلومه .

والذى نفسى بيده إن دين الإسلام كامل تام غير ناقص لا يحتاج إلى شيىء في إكماله وإتمامه . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن قول رسول الله ﷺ : فإن شر الأمور محدثاتها وإن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة ، نص من رسول الله ﷺ فلا يحل لأحد أن يدفع دلالته على ذم البدع ، ومن نازع فى دلالته فهو مراغم . وقال : لا يحل لأحد أن يقابل هذه الكلمة الجـامعـة من رسـول الله ﷺ الكليـة وهى : قوله : كل بدعة ضلالة ، بسلب عمومها وهو أن يقال : ليست كل بدعة ضلالة . فإن هذا إلى مشاقة الرسول ﷺ أقرب منه إلى التأويل .

وقال : وقصد التعميم المحيط ظاهر من نص رسول الله ﷺ بهذه الكلمة الجامعة فلا يعدل عن مقصوده بأبى هو وأمى ﷺ .

والمجـادلـة المحمـودة إنـما هى بإبـداء المدارك وإظهار الحجج التى هى مستند الأقول والأعـمال من الأدلـة الشـرعيـة من الكتـاب والسنـة والإجمـاع نصـا أو استنباطاً . وأما إظهار

---

(١) الاعتصام للشاطبى .

الاعتماد على ما ليس هو المعتمد فى القول والعمل فليست هى طريقة أهل العلم بل هو نوع من النفاق فى العلم والجدل والكلام والعمل.

قال: وأما صلاة التراويح فليست بدعة بل سنة بقول رسول الله ﷺ: إن الله فرض عليكم صيام رمضان وسننت لكم قيامه.

وكذلك صلاتها جماعة فى المسجد ليست بدعة بل سنة صلاها رسول الله ﷺ في أول الشهر ليلتين بل ثلاثا وصلاها فى العشر الأواخر مرات ثم تركها وقال لهم فى الليلة الثالثة أو الرابعة لما اجتمعوا: إنه لم يمنعنى أن أخرج لكم إلا كراهة أن يفرض عليكم، فعلل الترك بخشية الافتراض على الأمة.

وأما الجواب عن قول عمر رضى الله عنه (نعمت البدعة هذه) ففى قول الصحابى الذى لم يخالف فيه قولان لأهل العلم:

أحدهما: حجة يقدم على القياس ويخص به العموم وهذا قول مالك والقديم للشافعى ورواية عن أحمد وقول بعض الحنفية.

والثانى: ليس بحجة لأن الصحابى لم تثبت عصمته يجوز عليه الخطأ والغلط.

وهذا قول عامة المتكلمين والجديد للشافعى واختاره أبو الخطاب(١). وعلى القولين لا تصلح ولا تصح معارضة الحديث بقول الصحابى. وهو ظاهر. نعم أكثر ما في هذا هى تسمية عمر تلك بدعة.

وهذه تسمية لغوية لا شرعية وذلك أن البدعة فى اللغة تعم كل ما فعل ابتداء من غير مثال سابق.

فلما كانت صلاة التراويح فى عهد عمر بهذه الهيئة وهى اجتماعهم فى المسجد على قارىء واحد مع إسراج المسجد عملا محدثا لم يعهد من قبل سماه بدعة.

فإذا دل نص رسول الله ﷺ على استحباب شيىء أو إيجابه بعد موته أو دل على ذلك مطلقا ولم يعمل بذلك إلا بعد وفاته ﷺ صح أن يسمى بدعة فى اللغة لأنه عمل مبتدأ كما أن نفس الدين الذي جاء به ﷺ يسمى بدعة ومحدثا فى اللغة كما قالت رسل قريش للنجاشى عن المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب النبى ﷺ: إن هؤلاء خرجوا من دين آبائهم ولم يدخلوا فى دين الملك وجاءوا بدين محدث لا يعرف(٢).

---

(١) الروضة لابن قدامة.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم.

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله : البدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه ، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة فقوله ﷺ : كل بدعة ضلالة ، من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيىء . وهو أصل عظيم من أصول الدين .

وأما ما وقع فى كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك فى البدع اللغوية لا الشرعية فمن ذلك قول عمر رضى الله عنه فى التراويح : نعمت البدعة هذه ، وروى عنه : إن كانت بدعة فنعمت البدعة(١) .

من آثار البدع السيئة :

من شؤم البدعة وآثارها السيئة أنها لا يقبل معها عمل من صلاة ولا صيام ولا صدقة وغيرها من القربات ، وهى مانعة من الورود على حوض النبى ﷺ ومانعة من شفاعته ، وعلى المبتدع إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة ، وليس له توبة .

وقد تبرأ منه النبى ﷺ والمؤمنون ، ويخاف عليه من سوء الخاتمة والعياذ بالله والبدعة لا يقبل معها عمل إما أن يراد بذلك عدم القبول مطلقا على أى وجه وقع عمل المبتدع وافق السنة أو خالفها أو أن يراد منه أنه لا يقبل ما ابتدع فيه من الأعمال خاصة دون مالم يبتدع فيه .

فأما الأول وهو أن المبتدع لا تقبل أعماله مطلقا سواء داخلتها بدعة أم لا ، فيدل على ذلك أدلة :

منها ما صح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى القدرية وهو قوله : فوالذى يحلف به عبد الله بن عمر لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما تقبله الله حتى يؤمن بالقدر ثم استشهد بحديث جبريل الذى رواه مسلم .

ومنها مافى حديث الخوارج وهو قوله ﷺ : يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، بعد قوله : تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم ، الحديث . ومنها حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه المشهور بحديث الصحيفة المتفق عليه وفيه قوله : المدينة حرم ما بين عير وإلى ثور ، من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب .

والحديث عام يشمل كل حدث ينافى الشرع والبدع أقبح المحدثات وهو وإن كان خاصاً بمدينة الرسول ﷺ فغيرها داخل فى المعنى ، وهذا الحديث من أشد ما يكون على أهل البدع .

وأما الاحتمال الثانى وهو أن يراد عدم قبول ما داخلت البدعة من الأعمال خاصة فذلك ظاهر جدا يدل عليه قول النبى ﷺ : من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد متفق عليه ولمسلم : من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد .

وقوله : كل بدعة ضلالة .

والبدعة مانعة من الورود على حوض النبى ﷺ ومن شفاعته فذلك للحديث الصحيح : فليذادن رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضال وفى رواية : أنا على الحوض أنتظر من يرد علىّ منكم فيؤخذ أناس دونى فأقول يارب منى ومن أمتى فيقال : أما شعرت ما عملوا بعدك؟ وفى رواية : ما تدرى ما أحدثوا بعدك؟ فأقول : سحقا سحقا .

والمبتدع عليه إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة فذلك لقول الله تعالى : ﴿**ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم**﴾ الآية وقوله ﷺ : من سن سنة سيئة فعمل بها بعده كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . فما من بدعة يبتدعها أحد فيعمل بها من بعده إلا كتب على مبتدعها إثم من عمل بها زيادة على إثم ابتداعه أولا ثم عمله ثانيا .

وأيضاً فإذا كانت كل بدعة تستلزم رفع السنة التى تقابلها كان على المبتدع إثم ذلك زائدا على إثم الابتداع .

والتوبة محجوبة عن صاحب البدعة فيدل على ذلك حديث أنس رضى الله عنه المرفوع : إن الله حجز أو قال حجب التوبة عن كل صاحب بدعة . رواه ابن أبى عاصم فى السنة وقال الألبانى : صحيح بشواهده .

ويدل عليه ما فى حديث الخوارج وهو قوله : يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه .

ويدل على ذلك قوله فى حديث الفرق : وإنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، وعدم قبول التوبة من المبتدع يقتضى ظاهر الحديث عموم ذلك فهو محمول على العموم العادى لأن الغالب عادة فى الواقع الإصرار من المبتدعة على البدع .

وأما براءة النبى ﷺ والمؤمنين من أهل البدع فيدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيىء**﴾ الآية وقوله ﷺ : من رغب عن سنتى فليس منى .

وقول ابن عمر رضى الله عنهما فى أول فرقة من أهل البدع فى الإسلام وهم القدرية : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى بريء منهم وهم براء منى .

والآثار عن السلف فى التحذير عن أهل الأهواء والبدع والابتعاد عن مجالستهم كثيرة .

والمبتدع يخاف عليه من سوء الخاتمة وذلك أن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، والحمد لله على ذلك وإنما يكون سوء الخاتمة لمن له فساد فى العقل أو اصرار على الكبائر أويكون مستقيما فى أول أمره ثم تغيرت حاله وأخذ فى طريق غير طريق الاستقامة فيكون عمله ذلك سببا لسوء عاقبته وخاتمته والعياذ بالله .

قال تعالى : ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ الآية . وقال سبحانه : ﴿**أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون**﴾ . والمكر جلب السوء من حيث لا يفطن له وسوء الخاتمة من مكر الله إذ يأتى الإنسان من حيث لا يشعر .

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدنيا والآخرة .

الفرق بين البدع وبين المصالح المرسلة والاستحسان

لما كان هذا المقام مزلة قدم لأهل البدع ومشتبها عليهم حتى استدلوا على البدع من جهته كان لابد من بيان الفرق بين البدع وبين الاستدلال المرسل المسمى بالمصالح المرسلة والاستحسان الفقهى حتى يتبين أن البدع ليست من المصالح المرسلة ولا من الاستحسان .

فأقول أولا : إن المصالح المرسلة لابد فيها من اعتبار أمور:

الأول: الملائمة لمقاصد الشرع بحيث لا تتنافى مع أصل من أصوله ولا دليل من أدلته .

الثانى: أن النظر المصلحى إنما يكون فيما عقل معناه وجرى على المناسبات المعقولة التى إذا عرضت على العقول تلقتها بالقبول .

فلا مدخل للمصالح المرسلة فى الأمور التعبدية ولا ماجرى مجراها لأن العبادات

لا يعقل لها معنى على وجه التفصيل مثل الوضوء والتيمم والصلاة والصوم والحج وسائر العبادات .

ألا ترى أن الطهارات على اختلاف أنواعها قد اختص كل نوع منها بتعبد مخالف جدا لما يظهر لبادىء الرأى فإن البول والبراز خارجان نجسان يجب فيهما تطهير أعضاء الوضوء دون الاكتفاء على تطهير المخرجين فقط .

والتطهير من ذلك واجب مع نظافة الأعضاء وغير واجب فى قذارتها بالأدران والأوساخ إذا فرض عدم وجود الحدث .

ثم التراب من شأنه التلويث يقوم مقام الماء الذى من شأنه التنظيف .

وأوقات الصلوات الخمس لا توجد فيها مناسبة تعقل لإقامة الصلوات فيها دون غيرها من الأوقات .

والصيام والحج نجد فيهما من التعبدات غير المعقولة شيئا كثيرا .

وهكذا توجد سائر العبادات إلا قليلا منها ظهر فيه معنى مناسب فهم من الشارع فاعتبر به .

لقد صدق على رضى الله عنه : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه .

لذلك التزم الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى العبادات عدم الالتفات إلى المعانى وإن ظهرت لبادىء الرأى وقوفا منه رحمه الله مع ما فهم من مقصود الشارع فى التعبدات من التسليم لها على ماهى عليه بخلاف العاديات فهى جارية على المعانى المناسبة الظاهرة للعقول فإن مذهب مالك فيها الرجوع إلى المصالح المرسلة والاستحسان .

الأمر الثالث : أن المصالح المرسلة ترجع إلى : حفظ ضرورى من الضروريات فهو من باب الوسائل ومالا يتم الواجب إلا به .

أو ترجع إلى دفع جرح لازم فهو من باب التخفيف .

فإذا تقرر ذلك علم أن البدع مخالفة للمصالح المرسلة لأن موضوع المصالح المرسلة : ما عقل معناه على التفصيل مثل الأمور العادية فلذا كانت مظنتها بخلاف العبادات فليس حكمها حكم العادات لاهتداء العقول لها فى الجملة وعدم اهتدائها لوجوه التقربات إلى الله تعالى . فلذا لا يقدم على اختراع عبادة لا أصل لها فى الشرع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إن أعمال العباد تنقسم إلى : عبادات يتخذونها دينا ينتفعون بها فى الآخرة أو فى الدنيا والآخرة، وإلى عادات ينتفعون بها فى معاشهم .

فالأصل فى العبادات أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله تعالى .

والأصل فى العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظر الله تعالى[1] .

ونكرر ونقول : إن المصالح المرسلة مرجعها إما حفظ ضرورى فهو من باب الوسائل لا من المقاصد . أو رفع جرح لازم فهو راجع إلى التخفيف لا إلى التشديد .

فلا يمكن إذاً إحداث البدع من جهة المصالح المرسلة لأن البدع متعبد بها فليست وسائل بل هى من المقاصد عن أصحابها ، ولأن البدع زيادة فى التكليف فهى منافية للتخفيف ، فلا حجة لأهل البدع فى المصالح المرسلة أصلا .

وبذلك كله يعلم من قصد الشارع أنه لم يكل شيئا من التعبدات إلى آراء العباد فلم يبق إلا الوقوف عند ما حده فى العبادات والزيادة عليه بدعة كما أن النقصان منه بدعة .

وثانيا أن الاستحسان أيضا مظنة شبهة لمن أراد أن يبتدع فقد يقول : إن استحسنت كذا وكذا ففلان من العلماء قد استحسن .

لذلك كان لزاما من بيان معنى الاستحسان عند من اعتبره فى الأحكام من أهل العلم حتى لا يغتر به جاهل ولا يحتج به مبتدع .

فنقول : قد اعتبر الاستحسان الامامان : أبو حنيفة ومالك رحمهما الله والذى يُستقرى من مذهبهما أن مرجع الاستحسان هو العمل بأقوى الدليلين كما قال ابن العربى المالكى ويشعر به قول الكرخى من الحنفية حيث يقول : إن الاستحسان هو العدول عن الحكم فى المسألة بحكم نظائرها إلى خلافه لوجه أقوى .

وعرفه ابن العربى فقال : إنه ايثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخص لمعارضته ما يعارض به فى بعض مقتضياته .

وقسمه إلى عدة أقسام وذكر منها : ترك الدليل للعرف وتركه للمصلحة وتركه فى اليسير لرفع المشقة ومثل لذلك .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢٦٩ .

وعرفه ابن رشد المالكى بقوله : الاستحسان طرح للقياس وعدول عنه فى بعض المواضع لمعنى يؤثر فى الحكم يختص ذلك الموضع . والاستحسان على هذه التعريفات ليس بخارج عن الأدلة . والأدلة يقيد بعضها ويخصص بعضها بعضاً .

فلا حجة فى الاستحسان لمبتدع ولا يمكن أن يتمسك به من أراد أن يستحسن بغير دليل أصلا .

وأما تعلق أهل البدع بالاستحسان على قول من عرفه بأنه : ما يستحسنه المجتهد بعقله ويميل إليه برأيه أو أنه : دليل ينقدح فى نفس المجتهد ولا تساعده العبارة عنه ولا يقدر على إظهاره .

فلم يعرف التعبد بذلك لا بضرورة ولا بنظر ولا بدليل من الشرع قاطع ولا مظنون .

والاستحسان بهذا المعنى مصداق قول الإمام الشافعى رحمه الله : من استحسن فقد شرع .

ومعلوم أن الصحابة رضى الله عنهم قد حصروا نظرهم فى الحوادث والوقائع التى لا نصوص فيها فى الاستنباط والرد إلى ما فهموه من الأصول ولم يقل أحد منهم : إنى حكمت فى كذا لأن عقلى استحسنه أو طبعى مال إليه .

وختاما نستعصم اللهم من البدع وأهلها وأنت المسؤل المرجو الإجابة ان تمتعنا بالإسلام والسنة والعافية بمنك وكرمك .

وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه .

القرآن الكريم مصدر للتاريخ

للدكتور بشير كوكو حميدة
أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة

القرآن الكريم، كتاب الله المبين، والتنزيل الحكيم، لم ينزل ليكون سفرا فى التاريخ أوفى العلوم أوفى الأدب أوفى غيرها من المعارف الإنسانية، وإنما جاء لهداية البشرية جمعاء. فهذه هى طبيعة القرآن التى ينبغى علينا أن نعيها. مصداقا لقوله تعالى فى أول سورة البقرة المباركة: ﴿**الـم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**﴾. فهو هداية الله وهديته إلى خلقه[1] قال تعالى: ﴿. . . **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾. (المائدة **١٥-١٦**). ومن هنا فإن القرآن الكريم كتاب دين وليس كتاب علم أرضى بمعنى انه لا يشرح نظريات الهندسة أو قوانين الطب[2]، ولنا أن نتساءل إذن عن مدار البحث الرئيسى فى هذا الكتاب الحكيم، وعن موضوعه.

حقيقة الأمر أن موضوع القرآن هو **أولاً**: الإنسان وحياته التى تفضى به اما إلى عيشة راضية أو إلى نار حامية. **وثانيا**: فإن بحثه هو إجلاء الحقيقة ودعوة البشر إليها. **وثالثا**: فإن هدفه دعوة الإنسان إلى الحق المبين والنهج القويم[3].

على أن القرآن يحوى بين دفتيه الكثير من العلوم والمعارف المختلفة. قال تعالى: ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شىء**﴾. (الأنعام: **٣٨**) وقال جل شأنه: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء**﴾. (النحل: **٨٩**) وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[4]. وفيما أخرج البيهقى عن الحسن أنه قال:

---

(١) الدكتور عبد المنعم النمر: علوم القرآن الكريم. (دار الكتاب المصرى. القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م). ص٣.

(٢) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن. «الجزء الأول». (القاهرة ١٤٠١هـ/١٩٨١م). ١٩٧-٨.

(٣) أبو الأعلى المودودى: تفهيم القرآن. «الجزء الأول». تعريب أحمد يونس (دار القلم. الكويت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م). ص١١-١٢.

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن. جـ٢. (بيروت ١٩٧٣م). ص١٢٦.

«أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان»[٥]. إذن فالقرآن العظيم هو الجامع الشامل لكامل الدين. قال تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى...**﴾ (الشورى: **١٣**).

وفى تقديرى... أنه ليس على المؤرخ حرج فى أن يستنبط حقائق التاريخ من آيات الله البينات. فالقرآن مأدبة الله، وهو أدسم الموائد قاطبة. ويمكن لكل من أوتى حظا من العلم أن يتناول ما يناسبه من هذه المائدة الدسمة علما بأن فريقا من العلماء قد جوز استعمال بعض آيات القرآن فى التصانيف والرسائل والخطب[٦]. والتاريخ علم ويمكن أن نأخذه من القرآن. وعلى حد تعبير الزركشى: «وكل علم من العلوم منتزع من القرآن، وإلا فليس له برهان»[٧].

وفى المبتدأ ينبغى لى أن أثبت حقيقة ناصعة لا تقبل الشك ألا وهى أن ما ورد فى القرآن الكريم من التاريخ حق لا ريب فيه. وآية ذلك أن القرآن كتاب عزيز: ﴿**لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾. (فصلت: **٤٦**). فلم يتصد للقرآن بالنقد والرفض فى مطلع الدعوة الإسلامية إلا المشركون من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بآيات الله سبحانه وتعالى وهى القرآن ومحمد ﷺ، فقالوا إن محمداً كان يتلقى القرآن من قين (حداد) نصرانى كان النبي عليه الصلاة والسلام يدخل عليه[٨]. علماً بأن ذلك النصرانى كان اعجميا لا يعرف العربية أو على الأقل لا يجيدها وفى هذا الصدد يقول الله تعالى: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**﴾. (النحل: **١٠٣**).

ولا نزاع فى أن زعماء المشركين بمكة كانوا يعلمون أن ما جاء به النبي الكريم ﷺ حق قال تعالى: ﴿... **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾. (الأنعام: **٣٣**). فهاهو أبو جهل - أحد صناديد قريش وسادتها - يقول قولته المشهورة حينما سئل عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فقال: «والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط

---

(٥) المصدر السابق.

(٦) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى: البرهان فى علوم القرآن. «الجزء الأول». (القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م). ص٤٨١.

(٧) الزركشى: المصدر السابق. جـ١. ص٨.

(٨) تفسير الجلالين: ص٣٦٦.

ولكن إذا ذهبت بنـو قصى باللواء والسقـاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟»[٩].
إذن فإن أبا جهل إنما كان ينطلق من منطلق النعرة الضيقة والتفاخر بين الاسر القرشية . فلم يعجب بعض القرشيين أن يكون من الهاشميين نبى يأتيه الوحى من السماء ، وهم لا يدركون ذلـك . فأقسمـوا بالله ألا يؤ منـوا بالنبي ﷺ ولا يصـدقـوه[١٠]. هذا بالطبـع أحـد الأسباب الأخرى التى جعلت المشركين يقفون موقف العداء من الدعوة الإسلامية .

أمـا فى العصـر الحـديث فقـد تصـدى للقـرآن ونبي الإسـلام بعض المستشرقين ومن ورائهم الكنيسـة التى أشـاعت بين الأوروبيين أن القرآن لم يأت بغير أساطير أستمد أصولها من المـدراش والتلمـود وبعض ما ذهب إليـه الفكـر المسيحى . بل ان التحـريف قد أصاب القـرآن فى أكثـر من موضـع !![١١]. بيـد أن الكنيسـة التى أعـماهـا التعصب ضد الإسـلام والبغض له ، لم تستطـع أن تبـين موقفـا واحـدا حدث فيـه تحريف أوتغيـير فى القـرآن ، ولن تستطيع أن تفعل ذلك لأن القرآن محفوظ بعناية الله وما ينبغى لبشر أو شيطان أن يعبث فيه . وكـان حريـا بالكنيسـة أن تتذكر أن التوراة والإنجيل هما اللذان أصابهما التحريف . وفى هذا الصـدد يقـول الطبيب الفرنسى والعالم المستشرق موريس بوكاى فى كتابه «التوراة والإنجيل والقـرآن والعلم فى ضوء المعـارف الحـديثة» ما نصه : «لا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصـوص الأصليـة ، ومـا نصيب الخيـال والهـوى فى عمليـة تحريرها أوما نصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص أوما نصيب التعديلات غير الواعية التى ادخلت على الكتب المقدسة»[١٢].

أمـا أعـداء الله من المستشـرقـين الـذين هاجموا القرآن فمنهم من البر يطانيين : الفرد جيـوم (A. Geom) وهـ . أ . ر . جِبْ (H.A.R. Gibb) ومن الفـرنسيـين : لوى ماسينيـون ، ومن المجريين : جولد تسيهر وهو يهودى أصلا ، ومن الإمريكيين : كينيت كراج . ثم يأتى أعداء الإسـلام من العـرب المسيحيين أمثال : فيليب حتى المؤرخ اللبنانى ، وعزيزعطية سوريال المصرى ، ومجيد قدورى العراقى . وكل أولئك قد تميزوا بحقدهم على الإسلام والمسلمين .

---

(٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم . جـ٣ . (بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م) . ص١٨ .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) أحمد البشبيشى : «المستشرقـون والإسـلام على ضوء التـراجم» مجلة الـوعى الإسـلامى ، السنة الثانية عشرة . العدد «١٣٧» . غرة جمادى الأولى ١٣٩٧هـ أيار ١٩٧٦م . ص٢٥ .

(١٢) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم فى ضوء المعارف الحديثة . ترجمة دار المعارف . (دار المعارف . القاهرة ١٩٧٨م) . ص١٣ .

ويتبع هذه القائمة تلاميذ المستشرقين من المسلمين الضالعين فى ركابهم الآكلين من فتات موائدهم وعلى رأس هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه «الشعر الجاهلى» «مسألة الانتحال والوضع فى الشعر الجاهلى» تأكيداً لنظرية الشك فى كل ما جاء بالعربية من شعر ونثر ومن ذلك القرآن الكريم. فهو يرى أنه يتعين على الباحث أن يخضع كل ما ورد من أخبار الأمم السابقة وقصصهم فى القرآن إلى هذا المنهج وهو الشك ويخلص من ذلك إلى أن القرآن ليس وحيا الهيا ! وبذلك حقق هدفا من أهداف الاستشراق وهو أن القرآن موضوع وليس وحيا من الله سبحانه وتعالى ![13]. وفى هذه الضلالة التى تردى فيها طه حسين زعم أنه كان يحكم منهج ديكارت الفيلسوف الفرنسى. فضل الطريق وضلل تلاميذه[14]. وجدير بالذكر أن الإمام الغزالى قد سبق ديكارت لهذا المذهب. وما قرره ديكارت هو أنه يجب علينا ألا نقول عن شيىء أنه حق إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك. ومن الحقائق التى وصل إليها ديكارت فى فلسفته : «ان ما وجد فى الدين واضحا جليا فهو حق يجب ان يسلم به تسليما»[15] .

ومن هنا نستطيع القول بأن طه حسين لم يكن دقيقا فيما ذهب إليه عن مذهب ديكارت. وقد تبين لبعضهم أن الدكتور طه حسين كان واقعا تحت عبودية فكرية تمثلت فى كتابه «الأدب الجاهلى» الذى كان ترديدا لآراء غلاة المستشرقين المتعصبين ضد العرب والإسلام أمثال : مرجيليوث الذى نقل طه حسين آراءه كلها فى كتابه الأدب الجاهلى ونسبها إلى نفسه[16]! ، وكتاب مرجليوث هذا هو «أصل الشعر العربى» .

هذا، وقد رميت من هذا الاستطراد إلى أن القرآن حق لا يتطرق إليه الشك. وأن ما ذكره المستشرقون ومن سار فى ركابهم لا يمس كتاب الله فى قليل أو كثير على حد قول الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وعلى ذلك فما على المؤرخ إلا أن يعد عدته ويأخذ من القرآن ما يحتاج إليه فى تدوين

---

(١٣) إبراهيم خليل أحمد : المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى. (القاهرة ١٩٦٤م). ص٨٣.

(١٤) عبد الجواد محمد الخضرى : (الرافعى : تاريخ لن ينسى وذكرى لن تموت). مجلة الوعى الإسلامى. العدد «٢٠٦» صفر ١٤٠٢هـ - ديسمبر ١٩٨١م. ص١١٣-١١٤.

(١٥) أنور الجندى : نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفى فى كتاب الأدب الجاهلى مجلة منار الإسلام. العدد الثامن. السنة الثامنة. شعبان ١٤٠٣هـ - مايو - يونيو ١٩٨٢. ص٨٥ -٨٦.

(١٦) الدكتور مصطفى السباعى : الاستشراق والمستشرقون. (مكتبة دار البيان. الكويت ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م). ص١٠

الأحداث التاريخية موقنا بأن هذا الكتاب أصدق وثيقة على وجه الأرض، وأنه قد سما بنظراته العلمية والتاريخية عن الارتباط بحوادث تاريخية أو قضايا علمية مشكوك فى صحتها[١٧].

على أن القرآن لم يفصل كثيرا من الحقائق عن المسائل الشرعية إذ ترك مسألة التفاصيل للرسول ﷺ ليوضح ما غمض، وليفصل ما أجمل وليحلل ما أوجز. ومن هنا تأتى أهمية السنة المطهرة فى التشريع الإسلامى. فإذا كانت هذه هى حال القرآن تجاه الأمور الشرعية، فمن الأولى أن يكون ذلك كذلك بالنسبة للتاريخ.

ولنا أن نتساءل لماذا لم يتناول القرآن الأحداث التاريخية بالاسلوب التاريخى المعهود؟ وفيما قدمت آنفا فإن من أهداف التنزيل دعوة البشرية إلى الحق وإلى سلوك النهج القويم. فالقرآن يتناول الأحداث بأسلوب إجمالى لاغراض الدعوة والانذار والتبشير. ويتبع نفس الاسلوب وهو الإشارات الإجمالية فى ذكر آيات الكون التى تشير إلى حكمة الله وراء خلق العالم[١٨].

هذا ويمكن أن نقسم هذا الموضوع إلى فترتين متميزتين: الأولى عن القرآن وتاريخ الأمم السابقة، والثانية عن القرآن والحقبة الإسلامية. ولأن الحقبة الإسلامية قريبة منا نسبيا إذا ما قارناها بتاريخ الحضارات السابقة، وأن تاريخها قد سجل فى كتب السيرة وكتب التاريخ الإسلامى عامة، فإنى سأكتفى بالحديث فى هذا المقام بما تيسر لى عن العهود القديمة السابقة للإسلام.

أما عن الفترة الأولى فإن القرآن الكريم، فيما نعلم، قد تضمن قصص الأنبياء وأشار إلى أخبار الأمم السابقة. ويطلق بعضهم على هذا الجزء «أيام الله»[١٩]. وتعنى عند بعض المفسرين وقائع الله بأعدائه[٢٠]. وعند آخرين معناها «نعم الله»[٢١]. ومهما يكن من شيىء فإن تلك الأحداث والوقائع التاريخية عن الماضين من الأمم لتثبت أن للكون إلها واحدا أرسل رسله بالهدى ودين الحق. وهو الذى يحدد مصير الشعوب وأقدار الحضارات[٢٢].

---

(١٧) الدكتور السيد الدرش: سبأ فى القرآن «مجلة المسلمون» العدد ٤٢، ٢٤. شوال ١٤٠٢هـ - ١٣ (آب) أغسطس ١٩٨٢. ص٦٨.

(١٨) وحيد الدين خان: «نحو علم كلام جديد». مجلة الاعتصام. العدد ٩. شعبان ١٣٩٨هـ - يوليو ١٩٧٨م. ص١٧.

(١٩) وحيد الدين خان: نحو علم كلام جديد، المصدر السابق. ص١٧. أنظر سورة الجاثية: الآية ١٤.

(٢٠) محمد فريد وجدى: المصحف المفسر. (القاهرة ١٣٧٧هـ). ص٦٦٢.

(٢١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم. الجزء الرابع. ص١٠٩.

(٢٢) وحيد الدين خان: نحو علم كلام جديد. المصدر السابق. ص١٧.

وهذه الأحداث التاريخية أهميتها إذ بين الله القرآن بأخبار الأمم الماضية وما فعله بها لكى يفهموا أمر الله وتوحيده(٢٣).

ولعله من المهم فى عصرنا هذا تدوين علم الآثار القرآنى بصورة أكبر لتصبح الرؤ ية بالنسبة للباحثين والدارسين واضحة. فالمؤرخون القدامى لم يستطيعوا تسجيل الأحداث بأسلوب التدوين التاريخى السليم. والآن، وبعد أن تم أكتشاف سجلات ووثائق كثيرة عن تلك الأحداث بدراسة الآثار ونتائج الحفريات، أضحى من اليسير شرح الإشارات القرآنية حول أيام الله وتوثيقها تاريخيا، وبالتالى تدوين الدعوة القرآنية بلغة التاريخ(٢٤).

إذا التفتنا بعد ذلك إلى تاريخ الأمم السابقة للإسلام فى القرآن وبدأنا بالحضارة العربية فى اليمن، ألفينا القرآن يشير إلى مملكة سبأ فى سورة سبأ المباركة حيث يقول تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿**لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور**﴾ (سبأ: ١٥)

وبالرجوع إلى التفسير يتبين لنا أن سبأ أرض باليمن. ويقال انها كانت قبيلة سميت باسم جدها من العرب(٢٥). ويقال انها سميت بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان(٢٦).

ومهما يكن من شيىء فإن أقدم الحضارات بالجزيرة العربية قد وجدت - فيما يبدو - باليمن حيث قامت الدولة المعينية وحاضرتها معين (١٣٠٠-٦٥٠ق.م) ثم ورثتها الدولة السبئية (٩٥٠-١١٥ق.م) وعاصمتها مأرب. وكان للسبئيين أعمال عمرانية منها السدود كسد مأرب الذى بنى من الحجارة، وهو أعظم سد فى الجزيرة العربية. وكان أشبه بخزان عظيم لمياه السيول التى تتكون من الأمطار الساقطة من الجبال. وثمة «قناطر وسدود وأحواض تدل على نبوغ أهل اليمن فى فن العمارة وهندسة المبانى ومعرفتهم بأنظمة الرى»(٢٧). فلا غرو فقد أشار القرآن الكريم إلى «الجنتين» ويعنى بذلك البساتين التى كانت تحف جانبى الطريق أو عن يمين واديهم وشماله. وهما رمز الخصوبة والنماء. فقد وجدت فى آثار سبأ لوحات وتماثيل من المرمر والرخام والبرونز لسنابل القمح والبقر

---

(٢٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. (بيروت. غفل من التاريخ) ص١١١.

(٢٤) وحيد الدين خان: نحو علم كلام جديد. المصدر السابق. ص١٧.

(٢٥) تفسير الجلالين: ص٥٧٦.

(٢٦) عفيف عبد الفتاح طبارة: مع الأنبياء فى القرآن الكريم. (بيروت ١٩٨٠م). ص٢٨٩.

(٢٧) الدكتور ناجى معروف: اصالة الحضارة العربية. (بيروت ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م). ص٨٦-٨٧.

والخيل[٢٨]. فضلا عن نقاء هواء سبأ الذى بينه القرآن فى قوله تعالى : **﴿بلدة طيبة﴾**. ووفق تفسير الجلالين فإن معنى طيبة «أنه ليس فيها سباخ ولا بعوضة ولا ذبابة ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ويمر الغريب وفى ثيابه قمل فيموت القمل لطيب هوائها»[٢٩].

ولم يكن اقتصاد سبأ زراعيا فحسب، بل كانت منفتحة على العالم الخارجى ومزدهرة تجاريا إذ كان من أهم أعمال السبئيين الملاحة فى المحيط الهندى والبحر العربى حيث كانوا يسيرون سفنهم فيها حسب الرياح الموسمية[٣٠].

وعلى الرغم من كل هذه النعم التى تمثلت فى أوجه التطور المتعددة، والرخاء، وهناءة العيش إلا أن مدن سبأ وقراها كفرت بأنعم الله ولم تستجب لدعوة أنبيائه الذين بعث بهم إليها، والذين بلغت عدتهم ثلاثة عشر نبيا دعوا أهل سبأ لتوحيد الله الواحد الأحد الفرد الصمد. ولكنهم أعرضوا عن الإيمان وإجابة الرسل، ولم يشكروا لله أنعمه[٣١]. وآية ذلك إنهم كانوا يصرون على عبادة آلهتهم المتعددة ومنها عثتر (الزهرة) وذات حميم (الشمس) وذات بعدان (القمر). قال تعالى على لسان هدهد سليمان عليه السلام عن بلقيس ملكة سبأ : **﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾**. (النمل : ٢٤).

ومما يفسر إشارات الله تعالى هنا ما اكتشفه علماء الآثار عن هذه المعابد الكثيرة التى مازالت آثارها باقية تدل عليها بمأرب وغيرها[٣٢].

على أن بلقيس، ملكة سبأ، قد آمنت بالله وبرسوله سليمان عليه السلام. وحين آبت من أورشليم إلى بلادها شيدت هيكلا بمدينة مأرب لعبادة الله وحده. وقد أطلق عليه «هيكل سليمان» وترى منه الآن أعمدته الجرانيتية الضخمة وأسس من بقاياه مسجد يعرف الآن بمسجد سليمان عليه السلام بمدينة مأرب الحديثة التى تشغل الآن جانبا من المدينة الأثرية القديمة.

وأكبر الظن أن السبئيين لم يواصلوا عبادة الله على دين سليمان عليه السلام، بل

---

(٢٨) توجد هذه اللوحات والتماثيل فى متحفى مأرب وصنعاء. وهى مصورة فى كتاب المعالم الأثرية فى البلاد العربية الذى أصدرته جامعة الدول العربية. جـ١. (القاهرة ١٩٧٠م). ص٢٦١-٢٧٧- ٢٧٩-٣٠٥.

(٢٩) تفسير الجلالين : ص ٥٦٧.

(٣٠) الدكتور ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية. ص٨٨.

(٣١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس. ص٣٦٠.

(٣٢) أنظر كتاب المعالم الأثرية فى البلاد العربية : المصدر السابق جـ١. ص٢٢١، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٥.

ارتدوا إلى تقديس آلهتهم المتعددة القديمة وكان من الطبيعى أن يلقوا الجزاء وفاقا على كفرهم وصدهم عن سبيل الله إذ أرسل إليهم سيل العرم . فجرف ديارهم وجناتهم وبدلهم أشجارا ذوات ثمر مر لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ومن ذلك المخمط وهو الأراك ، والأثل وهو نبات الطرفاء والسدر. قال تعالى : ﴿**فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيىء من سدر قليل . كذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور**﴾ . (سبأ : ١٦-١٧) .

وبعد أن تصدع بناء سد مأرب فى القرن الثانى من الميلاد ، بعد اثنى عشر قرنا من الزمان ، حلت الكوارث بالبلاد ، وأصبح من العسير العيش فيها ، فلم يملك الناس إلا أن يهاجروا إلى بلاد أخرى ويتفرقوا أيدى سبأ[٣٣] . وقد نظمت أشعار فى هذا الحدث التاريخى الكبير أذكر منها قول الأعشى :

وفى ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير إذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزرع وأعنابها على سعته ماؤهم إذ قسم
فصاروا أيادى ما يقدرون منه على شرب طفل فطم[٣٤]

تلك إذن كانت حال الجنوب العربى فيما يتعلق بمعتقدات الناس .

أما فى شمالى الجزيرة العربية فقد وجدنا ثمود - قوم صالح عليه السلام - بوادى القرى الذى ذكر فى الشعر حيث يقول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بوادى القرى إنى إذن لسعيد

ويسمى ذلك الوادى وادى الحجر الذى ورد فى القرآن الكريم قال تعالى : ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾ . (الفجر: ٩) ، ويقع فى شمال غرب المدينة المنورة بين خيبر وبحر القلزم . وفيه ديار ثمود[٣٥] . وفى قرية الحجر بئر ثمود التى مر بها النبي ﷺ مع أصحابه فى طريقه إلى غزوة تبوك (رجب سنة ٩ هجرية) فنهى أصحابه عن شرب مائها والوضوء منه للصلاة . وما كان من عجين عجنوه أمرهم أن يعلفوه الإبل ولا يأكلوا منه شيئا[٣٦]ومن البين

(٣٣) المعالم الأثرية فى البلاد العربية . جـ١ . ص٢٠٦ و٢١٢ .
(٣٤) سيرة ابن هشام الجزء الأول . (القاهرة ١٣٨٣هـ -١٩٦٣م) . ص٧ .
(٣٥) تفسير الجلالين : ص ٣٤٩ .
(٣٦) سيرة ابن هشام : جـ٤ . ص٩٤٨ .

أن الرسول ﷺ خشى أن تحل لعنة ثمود على المجاهدين فى سبيل الله فأمرهم بقوله : «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم»(٣٧).

وفيما ورد من أخبار ثمود أنهم ورثوا أرض عاد التى أهلكها الله بذنوبها فعمروا الأرض، وفجروا العيون، وغرسوا الحدائق والبساتين، وشادوا القصور فى السهول (للصيف)، ونحتوا من الجبال بيوتا للشتاء، وتمتعوا بسعة العيش. بيد أنهم لم يحمدوا الله فضله عليهم، إذ أشركوا به، وعبدوا الأوثان(٣٨). ومن أصنامهم ود، وشمس، ومناف، واللات وغيرها(٣٩). وكما نعلم أن قريشا وغيرها كانت فى الجاهلية تعبد بعض هذه الأصنام. وقد أرسل الله تعالى نبيه صالحا إلى ثمود ليوحدوا الله ولا يشركوا به شيئا. قال تعالى : ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا، قال ياقوم أعبدوا الله مالكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم**﴾. (الأعراف : **٧٣**)

غير أن أصحاب الحجر قد كذبوا رسولهم صالحا، وأعرضوا عن آيات الله وهى الناقة وغيرها. بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم. فما هى إلا أن أهلكهم الله بذنوبهم. قال تعالى : ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾. (الأعراف : ٧٨).

ويهمنا الآن أن آثار ثمود المتمثلة فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال مازالت باقية إلى يومنا هذا ماثلة للعيان وهى تتفق مع ما ورد فى كتاب الله الكريم حيث يقول تعالى : ﴿**وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين**﴾. (الحجر : ٨٢). ويطلق على هذه الآثار اليوم «مدائن صالح». بيد أن قصورهم التى شادوها فى السهول ظلت مطمورة تحت اطباق الثرى بعد أن مرت عليها الدهور الطويلة .

والمأمول اليوم فى الأوساط العلمية أن يوجه المسؤولون من العرب عنايتهم ويستثمروا جزءا من أموالهم فى عمليات التنقيب عن آثار ثمود وغيرها سيما وأن صالحا عليه السلام وقومه كانوا عربا. فصالح أحد أنبياء العرب الأربعة وهم هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام(٤٠). وتحضرنى بهذه المناسبة حقيقة وهى أن قصة هود عليه السلام وقومه، قبيلة عاد

(٣٧) من حديث ابن عمر، وأخرجه البخارى ومسلم .

(٣٨) محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البجاوى، وسيد شحاته : قصص القرآن. (القاهرة ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م). ص٢٥.

(٣٩) عفيف عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء فى القرآن الكريم : المصدر السابق ص٩٢.

(٤٠) عبد الحميد كشك : مصارع الظالمين. (القاهرة. بلا تاريخ). ص١٥.

التى وردت فى القرآن (الأعراف وهود والشعراء) قد صدقتها المكتشفات الأثرية الحديثة فى منطقة الأحقاف[41]. التى تقع فى شمال شرق حضرموت قرب البحر العربى .

ومن القصص القرآنى قصة قوم لوط عليه السلام - أهل سدوم - القرية التى كانت تعمل الخبائث وعلى رأسها ممارسة اللواط، ذلك الشذوذ الجنسى الذى لم يسبقهم أحد على مدار التاريخ الماضى إلى ممارسته. ولم تكن أفعالهم الخبيثة مقصورة على تلك الفاحشة فحسب، بل كانوا يفعلون المنكر علانية فى ناديهم فلا يستترون. فلا غرو فقد تفشت فيهم الموبقات[42]. وما هى إلا أن أوحى الله إلى لوط عليه السلام أن يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ارتكاب الكبائر حتى صموا آذانهم، واستكبروا، وتحدوه أن يأتيهم بالعذاب من الله إن كان صادقا، بل توعدوه بالنفى من بلدهم[43]. فما كان من لوط إلا أن سأل ربه أن يوقع بهم العذاب الأليم على كفرهم وفجورهم. فسلط الله على مدنهم زلزالا جعل عاليها سافلها، وأتبع ذلك بوابل من الحجارة دمرتها تدميرا. قال تعالى :

﴿لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون. فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين﴾. (الحجر: ٧٣-٧٥)

ويعتقد بعضهم أن البحر الميت، المعروف الآن ببحر لوط وبحيرة لوط لم يكن موجودا قبل الزلزال الذى دمر سدوم وغيرها حتى صارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر! وقد جاءت الأخبار فى السنين الماضية بأن المهتمين بالحفريات فى الأردن قد اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت[44]. وليس ذلك بمستغرب فالله سبحانه وتعالى قد بين فى كتابه العزيز أن تلك المدن تقع فى طريق دائم يمر عليها الناس، حيث يقول : **﴿وانها لبسبيل مقيم﴾**. (الحجر: ٧٦)

ولا نزاع فى أن هذا الاكتشاف العظيم الذى قام به المهتمون بالآثار فى الأردن حديثا يؤيد ما ورد فى القرآن الكريم عن المؤتفكات أو المنخسفات وهى مدن قوم لوط. ولعل أعمال الحفر والتنقيب تسير قدما فى هذا الحقل حتى تميط اللثام عن كثير من الحقائق التى أشار

---

(٤١) الدكتور محمد رجب البيومى : «رسول معجزته البيان»، مجلة الوعى الإسلامى. السنة الثانية عشرة. العدد ١٣٧. غرة جمادى الأولى ١٣٩٦هـ - أيار ١٩٧٦م. ص٥٥.

(٤٢)، (٤٣) أحمد جاد المولى : قصص القرآن. المصدر السابق. ص٦٤-٦٥.

(٤٤) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء. (بيروت ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م). ص١١٣.

إليهـا الله تعـالى فى كتـابـه المبـين، فتقنـع المـرتابين المتشككين فى آيات الله البينات، وتزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم .

بعـد هذه الإلمـامـة بشيىء عما ورد فى القـرآن الكـريم من إشـارات عن تاريخ جزيرة العـرب والشـام، نتجـه شطـر العراق القديمة لنقف على بعض الإشارات القرآنية الخاصة بذلك البلد . والحديث عن العراق القديمة يجرنا بالضرورة إلى أن نتطرق إلى قصة إبراهيم عليه السلام .

فالخليل عليه السلام من أرض بابل . وبلدة أورالكلدانية التى تقع بين دجلة والفرات والتى تعـرف اليـوم باسم مغـير هى مهـده[٤٥] . وكانت أور أعظم مدن السومريين وقد وجد علماء الآثار بها بقايا مملكة ازدهرت حول عام **٢٩٠٠**ق . م . وقد اكتشفوا من الكنوز والنفائس ما يرقى إلى مستوى المدنية المصرية القديمة . ومما يؤكد أن إبراهيم نشأ بأور أن المستر وولى المبعـوث من قبـل المتحف الـبريطـانى فى الأعـوام **١٩٢٢-١٩٣٤**م قد وجـد رقيـما طينيا فى حفـريـاته بإحدى دور السكن بأور مكتوبا عليه اسم إبراهيم، فسمى الشارع باسم إبراهيم الذى يقال إنه نشأ فى ذلك الحى سنة **٢٠٠٠**ق . م[٤٦] .

ولعل فى هذا الاكتشاف، وهو برهان مادى، عن نشأة إبراهيم عليه السلام فى مدينة أور ما يكفى للرد على تشكك الدكتور طه حسين وإلى ما ذهب إليه فى كتابه الأدب الجاهلى حيث قرر أنه لم يقم دليل تاريخى وفق الطرق الحديثة بوجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقصـة هجـرتـه إلى مكـة وبنـاء الكعبـة . حيث يقـول : «للتـوراة أن تحدثنـا عن إبـراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما . ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبـات وجـودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة»[٤٧] . ويخلص الدكتور طه حسين إلى نتيجـة عبر عنهـا فى ما نصـه : «أمـر هذه القصة إذن واضح فهى حديثة العهد، ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى»[٤٨] .

وكـان قوم إبـراهيم عليـه السـلام أهـل أوثـان وكـان أبـوه آزر نجـارا ينحت الأصنام ويبيعهـا . أمـا إبـراهيم فقـد أنـار الله بصـيرته وهداه إلى صراط مستقيم[٤٩] . قال تعالى :

---

(٤٥) عفيف عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء فى القرآن الكريم . المصدر السابق . ص١٠٧ .

(٤٦) المعالم الأثرية فى البلاد العربية . جـ١ . ص٤٧ .

(٤٧) نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفى فى كتاب الأدب الجاهلى، مجلة منار الإسلام العدد الثامن . السنة الثامنة شعبان ١٤٠٣هـ - يونيو١٩٨٣م . ص٨٩ .

(٤٨) المصدر السابق .

(٤٩) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء، المصدر السابق . ص٧٩ .

﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين﴾ . (الأنبياء : ٥١-٥٤)

هذا ولعله من الأوفق أن نرجع مرة أخرى للذين فى قلوبهم مرض ، والذين لا يؤمنون بما جاء فى القرآن العظيم إلا بعد ثبوت الدليل التاريخى القاطع . فنقرر أن بلاد ما بين النهرين القديمة بابل ، وأور ، ونينوى ، وآشور ، ونمرود وغيرها لتزخر بالمعابد التى خصصت لعبادة آلهة متعددة كالاله شمش وهو الشمس ، والقمر (نانار) ، والزهرة (عشتار) ، والمريخ (مردوخ) ونابو (إله الكتابة) وغيرهم[٥٠] . وكل هذه المعابد كانت تزخر بالأوثان وهى التماثيل التى كان الناس يعكفون لها ويقدسونها . الشىء الذى دفع إبراهيم عليه السلام ليحطم بعضها وفق ما ورد فى القرآن الكريم . قال تعالى : **﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾** . (الأنبياء : ٥٧-٥٨) .

وفيما نعلم أن إبراهيم عليه السلام كان يغتنم الفرص ويحاور قومه ويجادلهم فى معبوداتهم ليصل بهم إلى حقيقة أو نتيجة هى أن المعبود بحق هو الله وحده لا شريك له . فقد جاء فى القرآن :

﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ . (الأنعام : ٧٥-٧٩)

وهكذا تبرأ إبراهيم من شرك قومه بعد أن قال لهم إن الكوكب ثم القمر ثم الشمس ربى . قال ذلك على معنى الاستهزاء لهم لأنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنجوم . فأنكر عليهم ، فاستهزأ بهم ، وقال لهم : أمثل هذا يكون الرب ؟[٥١] .

ومن آثار العراق القديمة التى وردت الإشارة إليها فى كتاب الله الكريم تل النبى يونس بن متى ، ذى النون ، صاحب الحوت عليه السلام . وهذا التل الذى يطلق عليه الآن «تل التوبة» يقوم اليوم فى داخل أسوار مدينة نينوى القديمة من أرض الموصل ، وهى

(٥٠) المعالم الأثرية فى البلاد العربية . جـ١ ص٣٤ ، ٥٥ ، ٧٨ ، ٨٤ .

(٥١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : المصدر السابق . ص١١٣ .

العاصمة الثانية بعد آشور[٥٢]. ولعلنا نذكر ما ورد فى سيرة النبي محمد ﷺ أنه سأل عداسا النصرانى، غلام بنى ربيعة بالطائف الذى أحضر له قطفا من العنب حين جلس يستريح فى ظل حائط مما عاناه من آلام الضرب بالحجارة من سفهاء الطائف وصبيانها وعبيدها. من أى البلاد هو؟ فقال عداس من نينوى. فقال عليه الصلاة والسلام: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يدريك ما يونس؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخى يونس كان نبيا وأنا نبى»[٥٣].

ولعل آخر ما هدى إليه البحث الأثرى فى أيامنا هذه ما وافق القرآن الكريم فى سورة الكهف. وقصة أهل الكهف معروفة. فأولئك الفتية الذين آمنوا بربهم ووحدوه، نأوا بأنفسهم عن قومهم المشركين الذين عبدوا آلهة متفرقة، وآووا إلى ذلك الكهف. قال تعالى: وهو اصدق القائلين:

﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذا أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا﴾. (الكهف: ٩-١٠).

وفى هذه السورة المباركة يقول تعالى:

﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾. (الكهف: **٢٢**).

وفى تفسير هذه الآية قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «أنا من القليل هم ثمانية سوى كلبهم»[٥٤]. وقد ثبت بالدليل القاطع صحة هذا الرأى إذ كشف الدكتور معاوية إبراهيم، عميد كلية الأداب بجامعة اليرموك بالأردن، فى حفريات جامعة الأردن، كشف أهل الكهف فى مدينة أفسوس القديمة حيث عثر فى كهف قديم على ثمانية هياكل بشرية ومعها هيكل كلب، وهو كلبهم قطمير! وقد تم هذا الكشف العظيم منذ خمس أو ست سنين. ولعل الدكتور معاوية إبراهيم يستقصى كل ما يمكن استقصاؤه فى هذا الشأن، ومن ثم ينشر نتيجة اكتشافه هذا فى الاوساط العلمية العالمية، فيلقى بذلك ضوءاً ساطعا على هذا الموضوع.

هذا... ومن تحصيل الحاصل أن أقرر أن القرآن العظيم أدق وثيقة على وجه

---

(٥٢) المعالم الأثرية فى البلاد العربية. جـ١، ص٥٤ - ٥٥.

(٥٣) محمد الغزالى: فقه السيرة. (القاهرة ١٩٧٦م). ص١٣٣.

(٥٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ص ٢٤٥.

البسيطة. فلا يرقى التوراة والإنجيل إلى دقة القرآن. وآية ذلك أن هذين الكتابين قد عهد الله بحفظهما للبشر. وهؤلاء إما نسوا حظا مما ذكروا به، وإما كتموا بعض ما لم ينسوه، أو حرفوا فيه، وزعموا أنه من عند الله تعالى(٥٥). فالرسل السابقون كانوا يتلقون الكتب السماوية وهى التوراة والإنجيل والزبور فى حالة الوحى معانى، ويعبرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشرية بكلامهم المعتاد لهم. ولذلك لم يكن فيها اعجاز(٥٦). أما القرآن فقد تكفل الله تعالى بحفظه حيث يقول: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. (الحجر: ٩). ولا نزاع فى أن القرآن قد مزق حجاب الماضى وروى لنا تاريخ الرسل، وحوادث الأمم السابقة(٥٧). بل أكد القرآن صدق القصص القرآنى، وأنه رواية لأخبار حدثت فى الواقع دون إضافة أى خبر لم يحدث بقوله تعالى: ﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾. (يوسف: ١١١)

ومادام القرآن قد تفرد بهذه الصفات العظيمة فإن ما جاء فيه من قصص الأولين أمما وأفرادا، تاريخ لا يتطرق إليه الشك، وإن هدف من ذلك إلى الاعتبار والاتعاظ عسى أن يتطهر الناس من الارجاس والفساد(٥٨). فضلا عن أن الله سبحانه وتعالى اتخذ من أنباء الغيب وأخبار الرسل والصالحين من عباده وأحاديث الأقوام الغابرين وسائل لشرح عقيدة التوحيد التى هى جوهر الدين، وما لقيه الأنبياء والمرسلون فى سبيل بيان هذه العقيدة للناس من العنت والمتاعب والبلايا(٥٩) ولا ننسى أن فى قصص الأنبياء، وما لاقوه من إيذاء أقوامهم، وما تم لهم من نصر الله تعالى، تثبيتا للنبي محمد ﷺ، وتسرية عنه، وتأكيدا له أن نصر الله قريب(٦٠).

ولعله من الأوفق أن أشير ههنا إلى الاختلاف بين القرآن والإنجيل فيما يتعلق باحتواء

---

(٥٥) محمد متولى الشعراوى: الله والكون (القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م). ص٢٢.

(٥٦) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون. (القاهرة ١٩٣٠م).

ص٣٦٧، إبراهيم خليل أحمد: المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى (القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م). ص٨٧.

(٥٧) محمد متولى الشعراوى: معجزة القرآن (القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م). ص٣٨.

(٥٨) د. رشدى عليان، د. قحطان عبد الرحمن الدورى: علوم القرآن. (بغداد ١٩٨٠م). ص١٤٧.

(٥٩) فتحى رضوان: خصائص القصة القرآنية، مجلة منبر الإسلام. العدد ١١٠ السنة... ٣٤ ذو القعدة ١٣٩٦هـ - نوفمبر ١٩٧٦م. ص١٤.

(٦٠) عودة الله منيع القيسى: صحة الحدث التاريخى فى القصص القرآنى. مجلة منار الإسلام. العدد الثامن. شعبان ١٤٠٣هـ - مايو - يونيو ١٩٨٣م. ص١٠٠.

الكتابين المقدسين على التاريخ. فالإنجيل يحوى بين دفتيه قسما يسمى «الأسفار التاريخية»، وهى خمسة أسفار تشتمل على قصص تاريخية منها قصة حياة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وتاريخه وعظاته ومعجزاته. وثمة سفر أطلق عليه «رسالة أعمال الرسل» وتشمل قصص معلمى المسيحية لاسيما بولس(٦١). أما القرآن، وإن لم يكن كتاب تاريخ، إلا أن الأحداث التاريخية التى تضمنتها قصصه إن هى إلا وقائع تاريخية لا ريب فيها، ويستحيل ألا يتفق معها التاريخ الصادق الذى كتبه الثقات من المؤرخين. وآية ذلك أن علم القرآن «يقينى» فى حين أن علم البشر لاسيما فى مجال التاريخ علم «ظنى»(٦٢).

إجمال القول إن القرآن الكريم أدق وثيقة سماوية بين يدى المجتمع البشرى. وبالتالى فهو أصدق مصدر للتاريخ ومن هنا ففى وسع المؤرخين على مر العصور أن ينهلوا من معينه الثر الذى لا ينضب. كيف لا وهذا الكتاب الحكيم الذى لا تحصى عجائبه قد حوى بين دفتيه عيون أخبار الأمم السالفة. وفى هذا قال النبي عليه الصلاة والسلام : «ستكون فتن قيل وما المخرج منها ؟ قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم»(٦٣).
وإذا كانت إشارات القرآن إلى الأمم السالفة بحاجة إلى مزيد من الشرح والتفصيل، فإن الكشوف الأثرية مازالت تتمخض من حين إلى آخر عن بعض الحقائق التى من شأنها أن تلقى أضواء ساطعة على ما ورد فى القرآن الكريم. وغنى عن البيان أن أعمال المنقبين عن آثار الماضى ذات أهمية كبرى ليس فى كشف النقاب عن التاريخ القديم فحسب، بل لأنها تعيننا أيضا على فهم معانى القرآن. وحقيقة الأمر أن علم الآثار وأعمال الحفريات، وإن حققت بعض الإنجازات فى هذا الحقل، إلا أنها لازالت تقصر عن عرض أخبار الماضين بصورة متكاملة. على أن الأمل كبير فى أن يتقدم العلم وتتطور وسائل التكنولوجيا الحديثة فتكشف من الحقائق ما يوضح للباحثين معانى الآيات البينات وما تضمنت من إشارات وقصص، فتخرس ألسنة المرجفين والحاقدين على الإسلام والمسلمين والطاعنين فى كتاب الله المبين. وتعين فوق ذلك على إجلاء صورة الماضى فنكون على بينة من تاريخ العالم القديم. وعلى الله قصد السبيل.

---

(٦١) الدكتور أحمد شلبى : مقارنة الأديان : المسيحية (القاهرة ١٩٧٨م). ص٢٠٢.
(٦٢) عودة الله منيع القيسى : صحة الحدث التاريخى فى القصص القرآنى. المصدر السابق. ص١٠٦.
(٦٣) أخرجه الترمذى وغيره. أنظر السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن. ص١٢٥ - ١٢٦.

ثبت المراجــع

(١) أبو الأعلى المودودى : تفهيم القرآن، «الجزء الأول». تعريب أحمد يونس (دار القلم. الكويت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م).

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، «الجزء الثالث». (بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م).

(٣) ابن هشام : سيرة ابن هشام، «الجزء الأول». القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م).

(٤) ابن عباس : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، (بيروت، غفل من التاريخ).

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر. (بيروت ١٩٥٦م).

(٦) إبراهيم خليل أحمد : المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى، (القاهرة ١٩٦٤م).

(٧) أحمد شلبى (الدكتور) : مقارنة الأديان : المسيحية (القاهرة ١٩٧٨م).

(٨) الجلالين : جلال الدين محمد بن على، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى : تفسير الجلالين (المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٨٥هـ).

(٩) المعالم الأثرية فى البلاد العربية، «الجزء الأول». أصدرته جامعة الدول العربية (القاهرة ١٩٧٠م).

(١٠) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى : البرهان فى علوم القرآن، «الجزء الأول». (القاهرة ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م).

(١١) جامعة الدول العربية : المعالم الأثرية فى البلاد العربية، «الجزء الأول». (القاهرة ١٩٧٠م).

(١٢) جلال الدين السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن، «الجزء الثالث». (بيروت ١٩٧٣م).

(١٣) طه حسين : فى الأدب الجاهلى. (القاهرة ١٩٥٨).

(١٤) محمد الغزالى : فقه السيرة. (القاهرة ١٩٧٦م).

(١٥) محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، على محمد البخارى، وسيد شحاته : قصص القرآن (القاهرة ١٩٧٣هـ - ١٩٥٤م).

(١٦) محمد متولى الشعراوى : الله والكون (القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

(١٧) محمد متولى الشعراوى : معجزة القرآن، «الجزء الأول» (القاهرة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

(١٨) محمد فريد وجدى : المصحف المفسر (القاهرة ١٣٧٧هـ) .

(١٩) موريس بوكاى : القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم فى ضوء المعارف الحديثة، ترجمة دار المعارف، (دار المعارف. القاهرة ١٩٧٩م). ص١٣ .

(٢٠) مصطفى السباعى (الدكتور) : الاستشراق والمستشرقون، (مكتبة دار البيان. الكويت ١٣٨٧هـ -١٩٦٨م). ص١٠ .

(٢١) أصالة الحضارة العربية، (بيروت ١٣٩٥هـ -١٩٧٥م).

(٢٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء، (بيروت ١٣٥٣هـ -١٩٣٤م).

(٢٣) عبد الحميد كشك : مصارع الظالمين، (القاهرة. بلا تاريخ).

(٢٤) عفيف عبد الفتاح طبارة : مع الأنبياء فى القرآن الكريم (بيروت ١٩٨٠م).

دورريـــــــات :

مجلة الاعتصام : العدد (٩)، شعبان ١٣٩٨هـ - يوليو ١٩٧٨م، ص١٧ .

مجلة الوعى الإسلامى : السنة الثانية عشرة، العدد (١٣٧)، غرة جماد الأول ١٣٩٧هـ -أيار ١٩٧٦، ص٢٥ .

مجلة الوعى الإسلامى : العدد (٢٠٦) ١٤٠٢هـ - ديسمبر ١٩٨١، ص١١٣-١١٤ .

مجلة منار الإسلام : العدد الثامن، شعبان ١٤٠٣هـ - مايو - يونيو ١٩٨٢م، ص٨٥ .

لا... لخصومة المسلم مع الدنيا والناس

للدكتور جميل عبد الله محمد المصري
أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

الحمد لله الذى أراد للأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وأعز بتأييده وتوفيقه الصادقين الصابرين من عباده المخلصين وصلى الله عليه . سيدنا محمد رسوله الكريم المبعوث رحمة للعالمين وخاتم النبيين . وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد ظهرت فى عالم المسلمين المعاصر نغمات منحرفة ناشزة تزعمها عدد من الكتاب المشهورين تتّهم المسلمين بالعصبية والفوقية وبأنهم ينظرون لغيرهم بالدونية ، وهذه تعبيرات دخيلة على الإسلام وعلى الفكر الإسلامى وعلى الحضارة الإسلامية ، قُصد منها التلاعب بالألفاظ والشعارات ممّن انبهر بالحضارة الغربية بشقيها الرأسمالية والاشتراكية ، ومن هؤلاء من تطاول فاتهم المسلم أنّه فى خصومة مع الدنيا كما هو فى خصومة مع الناس .

وكيف يتأتى لمسلم ـ صحيح الإسلام ـ أن يكون فى خصومة مع الدنيا أو فى خصومة مع الناس وهو يحيا الحياة بكل ما فيها ، اختصه الله بخلافة الأرض واعمارها ونشر الخير فيها ، فالإسلام لا يقر الرهبانية ولا الزهادة بمعنى اعتزال الحياة ، وليست الزهادة بتحريم الحلال ، ولكن الزهادة هى أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وما يسميه الناس من زهد المسلم وتعففه هو التزام بمنهج الإسلام وحسن خلافة فى الأرض ، فهو يعمل ويجهد نفسه ليقدم خيراً لأمته ، طاعة لله إذ حثَّ على العمل ـ قال تعالى :

﴿**فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور**﴾ . (سورة الملك : **١٥**) .
وجعل كسب المال من عبادة الله أو التقرب إليه إذا قصد به المسلم الانفاق على أهله أو على أرملة أو مسكين ، أو قصد اخراج زكاة المال ، أو غرس غرسة فأكل منها طير أو إنسان أو حيوان . قال ﷺ : «إذا انفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة»[١] .

---

(١) صحيح البخارى : دار إحياء التراث العربى . بيروت . جـ٧ ص٨٠ .

وقال ﷺ : «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار»[1] .

وقال ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له به صدقة»[2] .

وهكذا فرض الإسلام كفالة مشتركة بين أهله ، وجعل العجزة والضعفاء والمحرومين موضع تقدير كبير ، فلم يطالب بإسقاطهم من المجتمع ، بل أوجد لهم حمايات وضمانات كاملة ، واعتبرهم موضع الرزق والنصر : «هل تنصرون وترزقون إلّا بضعفائكم»[3] .

هذا الحث على السعى والعمل يجعل خصومة المسلم مع الحياة بعيدة ولا وجود لها إلّا فى أوهام أعداء الإسلام والمسلمين فالدنيا مطية للآخرة ، وأعمال المسلمين أيام عزّهم دليل على التزامهم بنصوص دينهم ، فالثراء الذى حازه عبد الرحمن بن عوف[4] ، والزبير بن العوام[5] ، وطلحة بن عبيد الله[6] ، وعثمان بن عفان[7] ، وهم من الصحابة - رضى الله عنهم جميعا - وغيرهم كثير . أمثلة على أن الدنيا ليست هدفاً للمسلم ذاتها بل هى مطية للآخرة .

(١) نفسه جـ ٧ ص ٨١ .

(٢) صحيح البخارى : تحقيق وتعليق محمود النواوى، محمد أبو الفضل إبراهيم ، محمد خفاجى جـ٣ ص٩٠ كتاب المزارعة . صحيح مسلم . كتاب المساقاة - ٧ ، ٩ ، ١٢ ، أبو داود - البيوع رقم ٦٧ . سلسلة الأحاديث الصحيحة - ناصر الدين الألبانى ، منشورات المكتب الإسلامى . الحديث رقم (٨) .

(٣) ، (٤) هو عبد الرحمن بن عوف القرشى الزهري رضى الله عنه من أكابر الصحابة ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم .

كان أحد أثرياء الصحابة ينفق ماله فى سبيل الله وخدمة أزواج النبي ﷺ بعده . عن الزهرى : كان أهل المدينة عيالا على عبد الرحمن بن عوف : ثلث يقرضهم ماله ، وثلث يقضى دينهم ، ويصل ثلثا . وكان لا يعرف من بين عبيده (سير اعلام النبلاء للذهبي ج١ ص ٨٨-٨٩ طبقات ابن سعد ج٢ ص١٢٤ / البداية والنهاية ج٧ ص١٧٩) .

(٥) هو الزبير بن العوام بن خويلد القرشى الأسدى رضى الله عنه ، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب ، الصحابى الجليل الشجاع المقدام أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى . كان مؤسراً كثير المتاجر وكان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فلا يدخل بيته من خراجهم شيئا بل يتصدق بها . قتله ابن جرموز غدرا بعد الجمل بوادى السباع على ٧ فراسخ من البصرة سنة ٣٦هـ . (سير اعلام النبلاء ج ص٤١-٦٥ ، البداية والنهاية ج٧ ص٢٤٩ ،) .

(٦) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمى القرشى المدنى رضى الله عنه من الأجواد وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى - كان يقال عنه : طلحة الجود وطلحة الخير وطلحة الفياض ، لكثرة ثرواته وصدقاته وإنفاقه فى سبيل الله . استشهد يوم الجمل سنة ٣٦هـ . بنبل غرب (طبقات ابن سعد ج٣ ص٢١٤ . الإصابة ٢ /١ : ٢٢٩ / تهذيب ابن عساكر ج٧ ص٧١) .

(٧) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى (رضى الله عنه) - الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين . ذو النورين صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه - وأحد العشرة المبشرين بالجنة . كان غنياً شريفاً فى الجاهلية ومن أعظم أعماله تجهيز جيش العسرة بماله . تولى الخلافة وهو أكثر المسلمين مالاً - واستشهد وهو أقلهم مالا سنة ٣٥هـ . أنظر الطبرى . تاريخ ج٥ ص١٤٥ . الإصابة ج٢ ص٤٦٢ . أسد الغابة ج٣ ص٣٧٦ .

فالمال عند المسلم وسيلة لا غاية، وطريق لا هدف، فالمال لله وحده والإنسان مستخلف فيه، استخلفه للانتفاع به وتوجيهه فى سبيل الله ومصلحة الأمة، وكما كرّم الإسلام السعى والعمل قال ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[1]. كرّم الإنفاق، فالمال تطهره الصدقة. قال تعالى:

﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾. (سورة التوبة: **١٠٣**).

وأمر بتداول المال بين الناس دون تداوله بين طائفة خاصة. قال تعالى: ﴿**لكيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم**﴾. (سورة الحشر: **٧**).

وهذا من شأنه إتساع دائرة العمل والإنفاق، وقد قيد الشرع الإسلامى حق التصرف بالإنفاق فمنع السرف والتقتير. قال تعالى: ﴿**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾. (سورة الأنعام: **١٤١**).

وقال سبحانه: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾. (الإسراء: **٢٩**).

وقال جلّ وعلا: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾. (سورة الفرقان: **٦٧**).

وحث الشرع على تنمية الثروة وفق ضوابط معينة على قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»:

فمنع الغش ـ قال ﷺ: «من غشّنا فليس منا»[1].

والربا فقال تعالى: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس**﴾. (سورة البقرة: **٢٧٥**).

والاحتكار. قال ﷺ: «لا يحتكر إلّا خاطىء»[2]. وأنكر احتكار الثروة بيد طبقة واحدة، واحتكار التجارة فى الأسواق العامة، ومنع كنز الأموال وتوعد الله سبحانه من يفعل ذلك بالعذاب الشديد. قال تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى**

---

(١) صحيح البخارى ج٣ ص٥٠ كتاب البيوع ١. صحيح مسلم بشرح النووى ج٢ ص١٠٨ (إيمان ١٦٤)، أبوداود بيوع ٥٠، الترمذى بيوع ٧٢ ابن ماجة. بيوع ٧٢. نيل الأوطار للشوكاني ص ٣٢٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج١١ ص٤٣ ـ٤٤. المطبعة المصرية ومكتبتها، أبوداود بيوع ٤٧. ابن ماجة. تجارات ٦. وراجع البخارى عن الاحتكار (بيوع) ج٣ ص٦٠ رقم٥٤، وأنظر نيل الأوطار للشوكانى ج٥ ص٣٣٦، والمنتقى فى أخبار المصطفى ج٢ ص٣٥٣ الأرقام: ٢٩٤٧ـ٢٩٥١.

سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾. (سورة التوبة ٣٤-٣٥).

وحرّم أكل أموال الناس بالباطل، ومنع الرشوة. قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس﴾. (سورة البقرة: ١٨٨).

وتكفلت الدولة فى الإسلام من لا مال له ولا عمل عنده، وتتولى إيواء العجزة وذوي العاهات.

هذا هو التوازن للنفس والمجتمع والأمة، وليس صحيحاً أن تصرف فئة من المسلمين ينسحب على الإسلام نفسه، وعلى المسلمين عموماً، فالتعميم العشوائى والقياس الشمولي دون تمحيص، أسلوب درج عليه أعداء الإسلام والمسلمين المبهورون بحضارة الغرب من أبناء هذه الأمة عن قصد ليحفروا هوّة بين المسلمين ودينهم، وأي ظلم أفدح وأعظم من قياس الإسلام على أوضاع المسلمين الراهنة؟ والأعجب من كل ذلك أن يُتهم المسلم وممن ينتسب إلى الإسلام بأنه فى خصومة مع الناس ـ فمتى كان ذلك؟!.

لقد أرسل الرسول ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله وسراجاً منيراً، وجاء يبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً[1].

والتحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ـ فورثته الأمة ـ وعلى المسلم يقع عبء هداية الإنسانية، وتبصيرها بالطريق الصحيح، وعليه عبء الأخذ بيد العميان إلى الهدى والسبيل القويم، وقام المسلمون بهذا التكليف خير قيام فانتشر الإسلام بسرعة عجيبة فى أقطار الأرض، سرعة عجز كثير من المؤرخين عن تفسيرها لعدم إدراكهم روح الإسلام وحركته.

لقد انتشر الإسلام بالقرآن الكريم وعمارة الصدور به، كان المسلم يحمله ويتمثله قولاً وعملاً وسلوكاً وقانوناً، فيتحرك بالقرآن، وفى أقل من قرن من الزمان امتدت دولة الإيمان والإسلام من حدود الصين شرقا[2] إلى المحيط الأطلسى غرباً[3]، ومن جبال البرانس

---

(١) قال تعالى: ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾. (الأحزاب: ٤٥-٤٧).

(٢) على يد القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي الذى وصل فى فتوحاته كاشغر وراسل ملك الصين وتهدده وتوعده فاستجاب لطلباته (البداية والنهاية ج٩ ص: ١٥٧-١٥٩).

(٣) على يد القائد المسلم عقبة بن نافع الفهري الذى وصل المحيط الأطلسى فاقتحمه بفرسه وقال: «والله يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت مجاهدا فى سبيلك».

شمالا[1] إلى الصحراء الكبرى والمحيط الهندي جنوباً، شاملة العالم القديم بأسره[2]. نقل خلالها المسلمون عقيدة الإسلام وروحه ومفاهيمه إلى الناس فارتفعوا به وتساموا. . . ولم تكن هذه الفتوحات للغلبة أو السيطرة أو الاستعمار بمفهومه الحديث، بل كانت حركة لنشر عقيدة الإسلام الخالصة، وإزالة الحواجز من طريق هذه الدعوة، فلم يكن الهدف إزالة ملك أو دولة، ولذا فإن من قبل الإسلام وطبقه من أهل هذه البلاد وخضع للإسلام ترك وشأنه وأقرّ على حكم بلاده، وكانت هذه الفتوحات طريقا لتحرر الفكر من القيود التى فرضتها أوضاع الجاهليات التى سادت والاضطهادات الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية - فكان المسلمون كما قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس فى القادسية عام ١٤هـ : «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[3]. وسرعان ما وجدنا من يشارك من تلك الأمم فى حركة المد الإسلامى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً - فضمت كتائب الإسلام العرب والبربر والعجم. . . فكيف نفسر تخلى أصحاب العقائد العريقة عن عقائدهم واندماجهم فى المجتمع الإسلامى، بل وتخليهم عن لغاتهم العريقة ثم حملهم للإسلام وقبولهم له عقيدة وشريعة ومنهج حياة وتكلمهم بلغته - لغة القرآن ؟ وكيف يفسر انتشار الإسلام الهادي بعد ذلك فى اندونيسيا والملايو والفلبين والصين وأواسط افريقيا وشرقها وجنوبها - وركوب المسلمين البحر وابتكاراتهم واختراعاتهم وانجازاتهم العلمية ؟ كيف نفسر كل ذلك إذا كان المسلمون فى خصومة مع الناس ؟.

نعم أصاب المسلمين انحراف تدريجى عن منهج نشر الهدى فى كل الأرض ولكنهم ظلوا قبساً منيراً يعلمون الناس ويهدونهم إلى سواء السبيل إلى أن وصلوا درجة انحسروا فى داخل أنفسهم وركنوا عن الحركة والانطلاق. . . وعندئذ انقضت عليهم الجاهلية تغمرهم بظلالها البالغ فى الطغيان حتى خرج كثير منهم من دين الله واتبعوا خطوات الشيطان. مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى :

﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾. (سورة الرعد: ١١).

لم تظهر خصومة المسلم مع الناس إلّا عندما اهتزت عقيدته، وانحط فكره، وضعف

(١) على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير (البداية والنهاية ج٩ ص٩٦) وقد اخترق المسلمون هذه الجبال ووصلوا بقيادة عبد الرحمن الغافقى إلى أواسط فرنسا حيث ارتدوا إلى جنوب فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء عام١٣٢هـ.

(٢) وهو المعروف آنذاك من القارات : آسيا وافريقيا وأوربا.

(٣) البداية والنهاية ج٧ ص ٤٤ .

تصوره للإسلام ورسالته، وهذا ليس لأنه مسلم بل هو انحراف عن نهج الإسلام، ومن الظلم أن نطلق ذلك على المسلم الحق أو على أحد الفقهاء الأجلاء الذين فهموا الإسلام من منابعه الأصلية ومن خلال تطبيقاته على أرض الواقع فى بلاد الإسلام، وآراء الفقهاء الأجلاء وتمحيصاتهم هى أجل وأعظم ما انجزته الحضارة الإسلامية فى ميادينها ـ وهى شاهدة على حيوية الأمة الإسلامية وعلى قدرتها على العطاء وعلى قيادة العالم إلى الخير، وشاهدة على ما فى الإسلام نفسه من حركة وحيوية قادرة على أن تحرك هذه الأمة فى كل وقت وحين، حركته حركة نابعة من القرآن والسنة الشريفة. قال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا الحوض»[1].

وقد أشار الإمام الشافعى للسنة «بالحكمة[2]. فى قوله تعالى: ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾. (سورة الجمعة: ٢). ولقد حفظ الله سبحانه وتعالى كتابه فى الفاظه وكلماته منقولا بالتواتر مدوناً على أسلم ما يكون النقل والتدوين. قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾. (سورة الحجر: ٩). وكذلك حفظ بيانه بما كان من عمل الفقهاء والمحدثين، حتى اختصت الأمة الإسلامية دون غيرها بالإسناد فكان اجتهاد الفقهاء من خلال النصوص، وإذا كان النص قطعى الثبوت لا شبهة فيه فليس عندهم اجتهاد يصيب ويخطىء بل هو التسليم إذ: «لا اجتهاد فى موضع النص». ولم يذكر أحد من الفقهاء أن المسلمين صنف متميز ومتفوق من البشر لمجرد كونهم مسلمين، ولكن الإسلام أعطى بحق افضلية للملتزم به، والإسلام ليس لطبقة ولا لجنس فهو دين للناس كافة تتساوى فيه سائر الأجناس فى الحقوق والواجبات، لا يعترف بطبقية ولا عنصرية ولا كهنوتية. قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. (سورة الحجرات: ١٣). «فلا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى». وهذه دعوة للمساواة بين بنى البشر. طبق المسلمون ذلك طيلة فترة دولتهم التى استمرت عشرة قرون الدولة الأولى فى العالم. فبلال العبد الحبشى يعتلى ظهر الكعبة ليؤذن للصلاة[3]، وسليمان الفارسى يتولى المدائن[4]، وطارق بن زياد البربرى يقود جيش الإسلام فيفتح الأندلس[5]، وكافور الأخشيدى يتولى

---

(١) كنز العمال ج١ ص ١٧٣.

(٢) الإمام الشافعى: الرسالة ص ٣٢.

(٣) ابن سعد. الطبقات ج٣ ق١ ص١٦٧/ ابن هشام. السيرة ج٢ ص٤١٣.

(٤) والمدائن هى طيسفون وكانت عاصمة كسرى. أنظر الطبقات ج٤ ص٢٢١/ الإصابة ج٤ ص٢٢٣.

(٥) ولا يزال المضيق الذى عبره إلى الأندلس يسمى مضيق جبل طارق إلى اليوم.

مصر[1]، والمماليك يحكمون فى مصر والشام[2]. والهند[3]. وآل عثمان يتولون الخلافة الإسلامية[4] والموحدون[5]، والغزنويون[6] وغيرهم، وغيرهم يقودون حركة الجهاد.

والناس شئنا أم أبينا مؤمن وكافر، والكفر نكران لنعمة الله وهديه، وأى شىء أفظع من إنكار رسالة الإسلام والدين عند الله الإسلام ؟! والتنكر لرسول الإسلام - «محمد رسول الله»[7]، والإسلام أجلّ نعم الدنيا يتمناه الكافر يوم القيامة - قال تعالى: ﴿**ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين**﴾. (سورة الحجر: ٣). ويشترك المؤمن والكافر فى الإنسانية وهى ليست ديناً وليست مبدأ ينبثق منها عقيدة أو نظام حياة، بل هى بحاجة إلى تهذيب وإلى مقياس عادل صحيح، وليس ما يهذبها كالإسلام!!. ولو نحينا الإسلام جانباً وبادينا بالإنسانية فقط كما يحلو لكثير من الناس فهل نصبح نحن وأصحاب العقائد الأخرى على قدم المساواة ؟ إن من يفعل ذلك كمن يلقى سلاحه أمام عدوه الحاقد ليتحكم فيه بما يشاء.

---

(١) كان كافور مولى السلطان محمد بن طغج الاخشيد اشتراه من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارا. كان شهما شجاعا ذكيا جيد السيرة، توصل إلى حكم الديار المصرية والشامية والحجازية سنة ٣٥٥هـ. مدحه الشعراء ومنهم المتنبى الذى عاد فهجاه. (البداية والنهاية ج١١ ص٢٦٦).

(٢) خلف المماليك الدولة الأيوبية فى مصر والشام والحجاز ودامت دولتهم من ١٢٥٠-١٥١٧م ومن أعظم مآثرهم فى بلاد الإسلام:

(أ) ردوا التتار المغول عن ديار الإسلام بعد أن كسروا حدة موجتهم فى معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

(ب) طهروا بلاد الشام من بقايا الصليبيين على يد الأشرف بن قلاوون سنة ١٢٩١م.

(٣) حكم المماليك الهند الإسلامية ٦٠٢-٦٨٩هـ/١٢٩٠م ومن أشهرهم قطب الدين آيبك، والتمش ٦٠٧-٦٣٣هـ الذى لقبه الخليفة العباسى المستنصر بالله ناصر أمير المؤمنين. وبلبن (الشيخ خان أى السيد الأعظم) الذى اشتهر بعدله وتمسكه الشديد بآداب الإسلام (ت سنة٦٨٦هـ).

(٤) تنتسب الدولة العثمانية إلى عثمان بن ارطغرل التركى الذى انتقلت إليه زعامة الأتراك عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م. واعلن استقلاله بإمارته عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م وأصبحت المنفس الوحيد للجهاد فى الإسلام اجتذبت كل راغب فيه، وتمكنت من الاتساع وفتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. واتخذتها عاصمة لها. تنازل الخليفة العباسى للسلطان سليم عن الخلافة بعد أن دخل مصر فاتحا سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧. فأعاد العثمانيون للخلافة هيبتها إلى أن اسقطها كمال أتاتورك من يهود الدونمة سنة ١٩٢٤م.

(٥) الموحدون: دولة أسسها محمد بن عبد الله بن تومرت من البربر المغاربة سنة ٥١٥هـ وقد خلفت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس. واستمرت هذه الدولة حتى سنة ٦٦٨هـ (المغرب الكبير. (٢) العصر الإسلامى. د. السيد عبد العزيز سالم ص٧٦٧-٨٣١).

(٦) الدولة الغزنوية: مؤسسها سبكتكين التركى سنة ٣٦٧هـ فى غزنة (بأفغانستان)، وأشهر سلاطينها محمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١) الذى لقبه الخليفة يمين الدولة وأمين الملة وقاد سبع عشرة غزوة إلى الهند فقضى فيها على الفرق الضالة من رافضة وقرامطة وغيرهم، ووطد حكم الإسلام فى البنجاب ودهلي ولاهور وعمل على نشر الإسلام هناك. واستمرت هذه الدولة تحمل راية الإسلام فى المشرق والهند إلى أن سقطت سنة ٥٨٢هـ على أيدى الغوريين الأتراك أيضا. أنظر ابن كثير - البداية والنهاية ج١٢، وابن الأثير - الكامل ج٧.

(٧) سورة الفتح الآية: ٢٩.

فالقضية أساسا قضية عقيدة، وجهة نظر فى الإنسان والكون والحياة وما قبل الحياة وما بعدها، ولا تؤخذ الحضارة إلا من منبعها وإلا انحرفت أوذابت واضمحلت، ومنبع الحضارة الإسلامية : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مبنية على عقيدة التوحيد، - والحضارة غير المدنية التى كثيراً ما يخلطها الكتاب بالحضارة - المدنية هى المظهر المادى منها المكيفات الأمريكية ولمبات تونسجرام الهنجارية، ومكبرات الصوت الهولندية، والأقمشة الانجليزية، والحرير اليابانى، والساعات السويسرية، والاحذية الإيطالية - والطائرات والسيارات . . . وما إلى ذلك من مظاهر مدنية من مبتكرات العلم وهى ملك عام لجميع البشر بما ركب الله فيهم من قدرة على الابتكار والاختراع الصناعى، يستوى فى الاستفادة منها المسلم وغير المسلم، ولا يجوز احتكارها، كما لا يجوز الانزواء عنها - ولا شأن للمخترعين واختراعاتهم بالجنة والنار، بالإسلام والكفر، فمن يكفر بالخالق الذى يستحق العبادة وحده لا يمكن أن يبتغى بعمله خدمة الإنسانية حقاً، ولن ينفع المشتغلين بالبحث العلمى يوم القيامة علمهم إذا كانوا كفاراً ولن يضر الجاهلين بالعلم يوم القيامة جهلهم إن كانوا مؤمنين .

ومن الغريب العجيب أن يدعى بعض الكتاب أن هناك خللاً فى علاقة المسلمين بغيرهم، وأن يزعم أن المسلمين اتخذوا من الآية الكريمة : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ . (سورة آل عمران من الآية ١١٠) . شهادة بالفوقية للمسلمين، فى الوقت الذى لم يذكر أحد من المسلمين لا من المفسرين ولا من الفقهاء الأجلاء ولا من غيرهم من علماء هذه الأمة مثل ذلك، ولا يستشهد بالآية إلا مرتبطة بأسسها الثلاثة : الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإيمان بالله، وحينئذ تصبح الأمة الإسلامية فعلاً خير أمة أخرجت للناس لأنها تكون قائدة وهادية، فهى تكليف قبل أن تكون تشريفا . قال تعالى : ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين**﴾ . (سورة فصلت : **٣٣**)، فالمسلم داعية إلى الله يعمل صالحاً فينال التكريم .

ويعلق بعض الكتاب على الفقهاء الأجلاء من استنباطاتهم فى الآية الكريمة : ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون**﴾ . (سورة التوبة : **٢٩**)، وهى آية واضحة المعنى بينة ليس فيها من المتشابه شيء، فقد قامت دعوة الإسلام على الجهاد بمعنى بذل الجهد مطلقا فى حرب وغير حرب فى التبشير بالرسالة الإسلامية وتأييدها ونشرها والدفاع عنها حرباً وسلماً، والجهاد كلمة إسلامية خاصة

بالمسلمين ولا يصح اطلاقها إلا على ما كان فى سبيل الله ـ وهو ذروة سنام الإسلام[1] وأفضل العبادات[2] و «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[3]. وقد قال أحد الفقهاء: «إعلم أن الجهاد إنما يتحقق إذا كان خالصاً لله تعالى ويكون لإعلاء كلمة الله عز وجل وإعزاز الدين ونصرة المسلمين، أما من جاهد وغزا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت، أو طلب دنيا أو امرأة، فإنه تاجر أو طالب وليس بمجاهد»[4]. فالقتال فى الإسلام نوع من الجهاد فى سبيل الله وليس من أجل الاستيطان أو إبادة الغير كالاستعمار الأوروبى الذى واكب حركة الكشوف الجغرافية[5]، ولا هو من أجل السيطرة والاستعلاء واستعباد الغير وإذلالهم واستغلال خيراتهم ونهب ممتلكاتهم كما هو واقع الاستعمار الأوروبى الحديث الذى رافق حركة الثورة الصناعية[6] ولا لاحتكار الخيرات واستغلالها كالاستعمار المعاصر اليوم[7]، الجهاد انقاذ للبشرية من ضلالها، وتحريرها من طواغيتها المادية والمعنوية ـ حتى يصبح الناس أمام دعوة الإسلام وجها لوجه، ولا يستهدف أبداً اكراههم على الدخول فيه واعتناقه، ولا يستهدف الغنائم والإسلاب، بل يترك الخيار لكل إنسان. قال تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾. (سورة الكهف: **٢٩**)، فلا إكراه ولا عنت ولا مشقة ولا محاكم تفتيش[8]، ولا خطف أطفال[9]، ولا تضييق فى المعاش، ولا فرض لغة أو تشريد وتهجير وتجويع[10]. قال تعالى: ﴿**أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾. (سورة يونس: **٩٩**).

---

(١) أنظر زاد المعاد لابن القيم ج٢ ص٣٨ .

(٢) أنظر نيل الأوطار للشوكانى ج٨ ص٦٢ .

(٣) أنظر صحيح مسلم ج٥ ص٤٦ باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

(٤) الخوارزمى ـ مفيد العلوم ـ ص ٥٨٩ .

(٥) وهى الحركة التى قامت بها أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر لتطويق العالم الإسلامى تمهيدا لضربه من الداخل بعد أن عجزت عن ضربه فى القلب فى الحروب الصليبية التى استمرت قرنين. كما هدفت إلى كشف طريق تجارى لا يمر بديار المسلمين للعمل على افقار العالم الإسلامى .

(٦) أو الانقلاب الصناعى الذى شهدته أوربا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى باحلال الآلة محل الأيدى العاملة البشرية ـ فزاد الانتاج وإزداد الشره على المواد الخام، فاتجهت أوربا للاستعمار لايجاد أسواق لتصريف بضاعتها وللحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة .

(٧) الامريكى والروسى الذى يقوم على السيطرة والابتزاز والاحتكار والالاعيب السياسية والمناورات .

(٨) وهى المحاكم التى اتبعتها اسبانيا لمطاردة المسلمين فى الأندلس والعمل على إبادتهم .

(٩) وهى السياسة التى اتبعتها روسيا القيصرية فى بلاد المسلمين فى عمليات لإجبار المسلمين على التنصر على المذهب الارثوذكسى .

(١٠) وهى السياسة التى اتبعها المستعمرون فى مختلف بلاد الإسلام فى الهند وافريقيا واندونيسيا والتركستان والقرم والقفقاس وغيرها .

ومن مبادىء الحرب فى الإسلام أن يعرض المسلمون على الأعداء أحد أمرين قبل القتال : الإسلام أو الجزية ، فمن أجاب للجزية قبل الحرب فليس هناك ذل أو صغار، أما من حارب حتى رضخ للجزية فهو الصغار الذى هو الخضوع لحكم الإسلام . قال الإمام الشافعى : «وسمعت عدداً من أهل العلم يقولون : إن الصغار أن يجري عليهم حكم الإسلام»[1] .

وهذا هو محتوى الآية الكريمة . فالجزية فى أبسط مفاهيمها فى الإسلام ضريبة على الذمى من رعايا الدولة الإسلامية مقابل ضريبة الجهاد المفروضة على المسلم ، وهى فى مقابل حمايته ، وإذا عجز المسلمون عن حمايته سقطت الجزية ـ فعندما صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة قال :

«إنى عاهدت على الجزية والمنعة . . . فإن منعناكم فلنا الجزية وإلّا فلا»[2] . وتسقط هذه الجزية عن الذمي إذا قام بواجب الدفاع عن دار الإسلام[3] ، ودليل ذلك ما صنعه عتبة بن فرقد مع أهل أذربيجان : «عليهم أن يؤدوا الجزية قدر طاقتهم إلا من حشر منهم فى سنة فيوضع عنه جزاء تلك السنة»[4] . كما يعفى منها من لا يستطيع القتال كالمرأة والصبي والشيخ الكبير ورجل الدين ـ فمن من الفقهاء والحال هذه استدل أن هذا فوقية للمسلم على غيره ؟ ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا**﴾ (الكهف : ٥) .

لقد بلغ تسامح المسلمين مبلغاً لم يمر ولن يمر من غيرهم فى تاريخ البشرية فلم يضيقوا على المخالفين[5] فيما يعتقدون حتى فيما اعتقده المسلمون حراما ، فسمحوا للنصارى بالخمر والخنزير ـ قال الشافعى أحد الفقهاء :

«علينا أن نمنع أهل الذمة إذا كانوا معنا فى الدار وأموالهم التى يحل لهم أن يتمولوها مما نمنع منه أنفسنا وأموالنا من عدوهم إن أرادهم ، أو ظلم ظالم لهم ، وأن نستنقذهم من عدوهم لو أصابهم ، وأموالهم التى يحل لهم ، فإذا قدرنا استنقذناهم وما حل لهم ملكه ولم نأخذ لهم خمراً ولا خنزيرا»[6] .

---

(١) الشافعى ـ الأم ـ ج٤ ص١٨٦ .

(٢) الطبرى ـ تاريخ ـ ج٤ ص ١٦ .

(٣) أنظر الكاشانى ج٧ ص ١١١ .

(٤) الطبرى ج٥ ص ٢٥٠ .

(٥) أنظر عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء النصارى / الطبرى ج٣ ص٦٩ . مجير الدين ـ الإنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ج١ ص٢٥٣ .

(٦) الأم للشافعى ج٤ ص ٢٢٠ .

وعلى من يريــد التـلاعب بالألفـاظ أن يدرك أن الإسـلام هو سنـة الله فى الكـون، والفطـرة التى فطـر النـاس عليهـا، أمـا أن الإسـلام يتغير بتغير الزمان والمكان فإنه براء من ذلك ـ فالإسلام لا ينحنى لا لزمان ولا لمكان، فالزمان والمكان يخضعان للإسلام ولا يخضع لهما ـ هو طراز خاص فى الحياة متميز عن غيره من خالق الزمان والمكان يعالج ما يجدّ من أمور من خلال الخطوط العريضة التى جاء بها كتاب الله وجاءت بها سنة رسول الله، وهى معانٍ عامـة تعـالـج جميـع مشـاكـل الإنسان فى الحياة فى كل زمان ومكان، يستنبط منها كل مسألة إنسانية بحيث تجعل العلاج مستنداً إلى قاعدة متينة تندرج تحتها جميع الافكار عن الحياة، وتكـون مقيـاسـا تبُنى عليـه جميـع الأمور الفرعية، وكل المعالجات والمعانى منبثقة من عقيدة التـوحيـد، مستنبطـة من خطـوط الشـريعـة العريضة. وقد حدد الإسلام للإنسان القواعد الأسـاسيـة ولكنه لم يحدّ عقله بل أطلقه، وقيد سلوكه فى الحياة بوجهات نظر معينة، فجاءت نظـرة المسلم للحيـاة الـدنيا نظرة أمل باسم وجدّية واقعية، كما جاءت نظرة تقدير لها مفصلة على قدرها من حيث أن يجب أن تنال ومن حيث أنها ليست غاية، يبتغى بها وجه الله والدار الآخرة التى هى دار البقاء والخلود.

وكما أن رسالة الإسلام شاملة لجوانب التنظيم التى تستند إليها المجتمعات الصحيحة وتقـوم على أسـاسهـا الحيـاة الإنسانية الكاملة مما ينظم شئون الأفراد والمجتمع والأمة، فإنها عنيت بمطـالب الـروح والجسـد، ولبت رغبـات البطن والعقـل والفرج بالقسطاس والعدل على أسـاس من الحق والخـير والتـوازن مما يكفل سعادة الإنسان فى السلم والحرب[1]، ومن هنا تنزل القرآن الكريم منجماً، فلكل حادث حديث، فالآية الكريمة: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكـون فتنـة ويكـون الـدين كله لله**﴾. (سـورة الأنفـال: **٣٩**). «وهى التى حاول بعض الكتـاب أن يضـع حول معـانيها الشبهات). نزلت فى مشركى مكة والجزيرة العربية ـ ولكن ماذا نقول اليوم فى عالمنا المعاصر عن مذابح المسلمين فى فلسطين ولبنان وافغانستان واريتريا والفلبـين وفطـاني؟ ومـاذا نقـول لما يصيب المسلمين فى الهند ونيبال والصين وروسيا وجنوب إفريقية؟ بل ماذا نقول لما يصيب المسلمين من اضطهاد فى أرض المسلمين نفسها؟ وهل زال الجـرح العميق الـذى أحـدثـه أعـداء المسلمـين فى الـذاكرة الإسلامية؟ الذى ابتدأ بتدبير المؤامـرات لتقـويض الـدولـة الإسـلاميـة من داخلها تلك التى بدأها يهود المدينة ونصاراها بالاشتراك مع المجوس[2]ـ وبقيت تسير فى مسلسلات دامية إلى أن قضى يهود الدونمة على

---

(١) محمد الصادق عفيفى ـ المجتمع الإسلامى والعلاقات الدولية ص٢٩.
(٢) تفصيل المؤامرة فى كتاب: أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية فى القرن الأول الهجرى ـ تحت الطبع.

الخلافة العثمانية[1]- والدول الأوروبية الصليبية التى قادت الهجمات الشرسة على المسلمين[2] وتكالبت عليهم وأبادتهم فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وسردينيا والبلقان والقرم و شاشان وشركسيا وفنزويلا وقبرص - وهل انتهت هذه الهجمات حتى يزول هذا الجرح الغائر؟! وبماذا نردّ على اللورد ويفل من كبار القواد الانجليز وساستهم الذى نقل عن إحدى المجلات الإنجليزية صورة رمزية للقائد الإنجليزى اللنبي فى عودته من الحرب فى فلسطين وقد كتب تحتها : «العودة من الحروب الصليبية» . ولأسقف نيويورك الذى أرسل الى رئيس أساقفة كانتر برى برقية من مائة أسقف وشكره على المساعى التى يبذلها فى الحروب الصليبية التى تبذل ضد بقاء الأتراك فى الآستانة [3] . وللقائد الفرنسى بيير كيلر الذى صرح بالدوافع الصليبية فقال فى كتابه عن «القضية العربية فى نظر الغرب» صفحة ١١٩ :

«إن مصالح فرنسا فى الشرق الاوسط هى قبل كل شيء مصالح روحية ، وتعود هذه العلاقات الى عهد الصليبيين حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة ، وجددت هذه المعاهدات على مرّ القرون ، وتحملت فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق[4]، وللجنرال غورو الذى قصد قبر صلاح الدين عند دخوله دمشق بعد ميسلون[5] عام ١٩٢٠م فقال : قم ياصلاح الدين - نحن أبناء غودفرى عدنا إليك منتصرين . وغودفرى كان أبرز القادة الصليبين الذين نكلوا بالمسلمين فى الحملة الصليبية الأولى[6].

لقد تخلّى العربى بالإسلام عن عصبيته القبليه وآمن بقوله تعالى : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ . (سورة الحجرات : ١٣) . فسالم مولى أبى حذيفة المجهول الأب يؤم المسلمين فى هجرتهم إلى يثرب وفيهم الصحابة منهم - عمر بن الخطاب - لأنه كان

---

(١) وهم الذين تظاهروا بالإسلام تقية - فى سالونيك بعد أن فتحت لهم الدولة العثمانية ذراعيها فعملوا على الإطاحة بها وتمكنوا من ذلك على يد كمال اتاتورك سنة ١٩٢٤م . (أنظر - أنور الجندى - العالم الإسلامى والاستعمار ص٣٨) .

(٢) وهى بريطانيا وفرنسا وروسيا واسبانيا والبرتغال وهولندا وبلجيكا وايطاليا .

(٣) د. محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية ص ٢٤ .

(٤) نفسه ص ٢٤ .

(٥) المعركة التى انتصر فيها الفرنسيون على القوات العربية التى كان يقودها فيصل . واستشهد فيها يوسف العظمة . ودخل الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٠م .

(٦) سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ، وقد قتلت فى ساحة المسجد الأقصى سبعين ألفا من المسلمين ومنهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (ابن الأثير . الكامل ج١٠ ص٢٨٢-٢٨٤ ، ابن الطبرى - تاريخ مختصر الدول ص١٩٧ ، غوستاف لوبون - حضارة العرب ص٣٢٤-٣٢٧ .

أقـرأهم[1]. وأمـا من بقى على عصبيته فقد عد جاهليا، إذ لما تقاول أوسى وخزرجى بفعل الـدسـائس اليهـودية تنادى الأوس والخزرج : السلاح ـ السلاح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقـال غاضبـاً : «الله الله أبـدعـوى الجـاهليـة وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكـرمكم به . . . »[2]. فذاك الـذى بقيت لديـه عنجهيـة العصبيـة والتفـاخر بالآباء لا يجوز قيـاس الإسـلام عليـه أو اعتبـاره حجـة على الإسـلام، بل الإسـلام حجة عليه . فقد كان عمر بن الخطاب يقول : «أبوبكر سيدنا اعتق بلالاً سيدنا»[3].

وأما تعصب المسلم للإسلام فلأنه على حق وعلى قناعة جازمة، فلا يجوز أن يتهم فى تعصبـه بأنـه ذو اعتقـاد باطل ينحاز إلى موقف الجماعة دون اختيار ودون تفكير وأنه يستعلى على الآخرين كما وصفه أحد الكتاب ظلماً وعدواناً، إن التعصب للحق موقف الشرفاء من البشر أصحاب العقائد القوية ـ والتعصب للباطل موقف الجهلة أعداء الإنسان ـ التعصب الأول فضيلة وواجب، والتعصب الثـانى رذيلة ومنكـر، التعصب للإسلام ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[4] هو لسعادة البشر وهو واجب على كل إنسان مستنير عرف الحق، لأن الحق إن لم يجد من ينصره ويعززه فسيجد الباطل المدعم بالقوة الفرصة أمامه لكى يسيطر ويضرب بجرّانه فى أعماق الأرض، والتعصب العنصرى والقومى والوطنى والقبلي يقف ضد إنسانية الإنسان .

إن الصـــراع بين الإسـلام وغـيره فى حقيقتـه صراع عقـائـدى بدأه أعـداؤ ه من أول ظهوره، والواقع الشرعى يؤكد أن عداء الكفر للإسلام مستمر. قال تعالى : ﴿**ولن ترضى عنـك اليهـود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾[5] وهم صف واحد فى مهاجمة الإسلام . قال تعالى : ﴿**بعضهم أولياء بعض**﴾[6]. والرسول ﷺ يؤكد أن الجهاد ماض فى أمته إلى يوم القيامة[7] وليس من سبيل إلى عزة المسلمين إلاّ بالتفافهم حول عقيدتهم وفهمهم أبعاد الصراع لا بالتنازلات التى تتلوها تنازلات .

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات ج٣ ق١ ص٦١/ سير اعلام النبلاء ج١ ص١٦٨/ .
(٢) ابن هشام ـ السيرة ج٢ ص ١٨٤ .
(٣) أخرجه البخارى فى المناقب ٣٧٥٤/ والطبرانى رقم ١٠١٥ .
(٤) سورة آل عمران : ١٩ .
(٥) سورة البقرة : ١٢٠ .
(٦) سورة المائدة : ٥١ .
(٧) أنظر البخارى فى كتاب الجهاد والسير .

وإن تعجب فعجب قول أحد الكتاب المسلمين ضمن حملته على الفقهاء الاجلّاء وعلى المسلمين :

« ولكن المقطوع إن أكثر الكتب الفقهية تعامل غير المسلمين عندما يتعلق الأمر بأحكام المعاملات - دعك عن العقائد والعبادات بقدر من الدونية لم يعد يليق بكرامة الإنسان» . فهل أراد بقوله هذا أن يفتح المسلمون مساجدهم لغيرهم وأن توحّد المساجد والمعابد والكنائس والكنس ؟ وهل أراد أن يجمع بين الوحدانية والثالوث ، وبين المساواة بين بنى البشر وفكرة شعب الله المختار[1] ، وبين من يعتقد توحيد الربوبية والألوهية لله وحده ومن يقول : «لا إله والحياة مادة[2]؟ ! لقد حاول أحد المتحذلقين أن يوفق بين الإسلام والبوذية قبل خمسمائة عام فى الهند فماذا كانت النتيجة ؟ مخلوق مسخ عجيب وغريب لا ينتمى الى هذا ولا إلى ذلك سمى دين السيخ[3] أندحر معزولاً فى بعض جهات الهند ونيبال . . . والكل يعرف ما آلت إليه البهائية[4] .

لقد التزم الفقهاء الأجلّاء بالنصوص فى معاملة غير المسلمين - وآراؤ هم فى جملتها إسلامية عادلة - درسوا كل قضية على حدة فى ظل أوضاع إسلامية تطبق فيها أحكام الشريعة . وفى تطبيق أحكام الشريعة ككل تبدو الهنات باهتة كليلة يرتضيها غير المسلم ويأنس بها ويسعد ، وهمسة فى أذن المتحاملين : كيف عاشت فئات غير إسلامية فى المحيط الإسلامى الكبير طيلة عهد الدولة الإسلامية بين الغالبية المسلمة ، فى حين لم يستطع مسلم واحد العيش فى ظل غير المسلمين فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا وسردينيا وجنوب فرنسا وروسيا الأوربية وامريكا الجنوبية؟ هل هناك من جواب ؟ !

لقد حافظ الإسلام على كرامة الإنسان - أى إنسان - مهما يكن لونه وجنسه ودينه ولغته ووضعه الإجتماعى ، ففى الوقت الذى كان الرسول ﷺ يهاجم عقائد اليهود والنصارى بسبب إتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحلون ويحرمون[5] كان يوصى بهم

---

(١) وهى الفكرة اليهودية التلمودية .

(٢) وهى الفكرة الشيوعية الملحدة .

(٣) ومؤسس ديانة السيخ (السيك) هوبابانانك ولد سنة ١٤٦٩م . وتوفى سنة ١٥٣٨ وكان هذا الدين فى بدايته أقرب إلى الإسلام منه إلى الهندوكية ثم أنه غدا بعد ضعف الدولة الإسلامية فى الهند أقرب إلى الهندوكية وهو الآن دين قائم برأسه ويضمر أهله عداوة شديدة للإسلام والمسلمين .

(٤) ظهرت فى إيران على يد ميرزا على محمد عام ١٢٦٠هـ/١٨٤٤ . (أنظر البهائية لإحسان إلهى ظهير . خفايا الطائفة البهائية للدكتور أحمد محمد عوف) .

(٥) قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾ . (سورة التوبة : ٣١) .

خيراً ، ويـزورهـم ويكـرمهم ويحسن إليهم ويعـود مرضـاهـم ، ويأخـذ منهم ويعطيهم ، فقـد استقبل وفد نجران فى مسجده بحضرة المسلمين[1] وأجرى الصدقة على أهل بيت من اليهود[2] ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند أبى الشحم اليهودى[3] وكان فى وسعه أن يقترض من أصحابه ولكنه أراد أن يعلم أمته ، وقد وقف لجنازة يهودى مرتّ به[4]. وسار أصحابه رضوان الله عليهم والمسلمـون من بعـدهم على هديـه ، فعمـر بن الخطـاب يمّر على يهودى يتسوّل فيبكى ويقول : أكلناه فى شبيبته ، وخذلناه عند هرمه ، و يفرض له ولأمثاله من بيت مال المسلمـين[5] ، وطعنـه أحـد أهـل الـذمة بالتآمر مع اليهود والنصارى[6]. وقال وهوفى النزع الأخـير : « أوصى الخليفـة من بعـدى بأهـل الـذمة خيرا ، أن يوفى بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم والاّ يكلفهم فوق طاقتهم »[7]. فهـل هنـاك جسـور فوق هذه الجسور يجب مدّها بين المسلمـين وبـين غيرهم ؟ إنهـا جسـور قائمـة ولا تنقطـع - لأن انقطاعها يعني انقطاع دعوة الإسلام ـ التى حفظها الله من الانقطاع ـ نعم ما انقطعت هذه الجسور منذ أن ظهر الإسلام وظهـرت دولتـه و طبقت أحكـامه على أرض الواقع ، وما وهنت إلا عندما إنحسرت أحكامه على أرض الواقع ، ولكنه بقى على النطاق الفردى يهذب الإنسان. أما فى مجال العقيدة - فما هى الجسور التى يمكن مدها بين عقيدة «لا إله إلا الله» وعقيدة تقول : إن ألله ثالث ثلاثة[8]. أوعقيدة تقول ألله خاص بنا ونحن أحباؤ ه وأبناؤ ه وما خلق الله البشر (فى زعمهم) إلا لخدمتهم كالحيوانات (الجوبيم)[9]أوعقيدة مادية ملحدة مبنية على صراع الطبقات تقول الحياة مادة والدين أفيون مخدّر للشعوب[10].

وعلينـا فى هذا المجـال أن نتـذكـر أن هناك دينا وشريعة ـ وقد تشابهت دعوات الرسل جميعـا : ﴿**لا نفـرق بين أحـد من رسله**﴾. (سـورة البقـرة الآية : ٢٨٥)، وفى الحين الذى يعتقـد المسلمـون ذلـك ولا يفـرقـون بين أحد من الرسل لا نجد عقيدة من العقائد الأخرى

---

(١) ابن هشام : السيرة. ج٢ ص ٢٠٦.

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٦١٣.

(٣) الشافعى : الأم. ج٣ ص ١٥٣.

(٤) كشف الغمة ج ٢ ص ٢١٥.

(٥) د. سليمان محمد الطماوي : عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة ص٩٨.

(٦) فى الدعوة الإسلامية : (د. جميل المصرى ـ تحت الطبع) تفاصيل هذه المؤامرة.

(٧) يحيى بن آدم : الخراج ص ٧٤ ـ سنن البيهقى ج ٩ ص٢٠٦ باب الوصاة بأهل الكتاب.

(٨) العقيدة النصرانية التى أسسها بولس ـ شاول ـ والتى انحرفت عن المسيحية الموحّدة.

(٩) العقيدة اليهودية التلمودية التى انحرفت عن شريعة موسى عليه السلام والأنبياء من بعده.

(١٠) العقيدة الشيوعية التى أسسها كرل ماركس اليهودى.

تعـترف بالإسـلام أو برسـول الإسـلام محمـد صلوات الله وسـلامه عليه . . . وقد اختلفت شرائع الرسل ـ قال تعالى : ﴿**ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**﴾ . (سورة المائدة : ٤٨) ، وكـانت شريعـة الإسـلام بما انطـوت عليه من أحكام ينحنى لها الزمان والمكان نهاية المطاف وخـاتمتـه فى تدرج الشـرائـع نحـو الكمال ـ . إذن فالأولى أن يركز الكتاب على وجوب تركيز العقيدة فى نفوس المسلمين ـ وعلى وجوب تطبيق شريعة الله فى الأرض ليستريح برّ ويُستراح من فاجـر، الأولى أن يبرزوا التعصب اليهـودى وشوفينيته[1] والصهيونية وأهدافها وأساليبها فى محاسبـة الإسـلام والمسلمـين ، والغرب المستعمر وتمييزه العنصرى واستغلاله واحتكاراته ، الأولى أن يبرزوا خصـومـة المعسكـر الليـبرالى مع الإنسـان فى تمييـزه بين البيض والسود فى أمريكا وفى جنوب إفريقيا وغيرهما ، ومع الحياة التى تبرز فى القلق وكثرة حوادث الانتحار، وأن يبرزوا خصومة المعسكر الاشتراكى مع الإنسان فى عمله على خلق التناقضات بين بنى البشر وتقسيمهم إلى طبقات متصارعة متعادية متنافرة باسم التطور والديالكتيك ، ومع الحياة حين خالفت هذا المعسكـر الفطـرة ففقدت الحياة معناها وخضعت للآلة ـ الأولى أن يبرزوا مذابـح المسلمـين فى الهنـد والفلبـين وارتـيريـا وجنـوب افـريقيا وتايلاند وأن يدعو المسلمين للالتفـاف حول عقيـدتهم ليقـودوا العـالم إلى الهـدى فهـذا دورهم بعـد أن أعلنت الحضارة الغـربيـة الشـرقية والغربية عن خوائها الإنسانى وفراغها بأن كبلتها المادية واعمتها الشوفينية فآذنت شمسها بالغروب[2] . والأولى أن ينادى الكتاب ﴿**قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا . . .**﴾ (سورة آل عمران : ٦٤) .

وليس غير الإسـلام الـذى ارتضـاه الله دينا ـ من عقيدة وتشريع ومبدأ يرتفع بإنسانية الإنسـان ـ وهـو وحـده الـذى يقضى على عنـاصـر الخـوف والقلق والتنـافس على المصالح والتحـاسـد وحب السيطرة والاستعلاء التى كرستها الرأسمالية والاشتراكية المتحكمة فى عالم اليـوم ـ ويـوم تعـود قيـادة الـدنيا للإسلام ، تسعد البشرية ـ ولكل ليل فجر باسم بإذن الله ، ﴿**ويـومئـذ يفـرح المؤمنون بنصر الله**﴾ (سورة الروم : ٥) . ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾ (سورة البقرة من الآية : ٢١٤) .

---

(١) شدة التعصب والانحراف كالذي ظهر عند الصهيونية والنازية والفاشية .

(٢) انظر: انهيار الحضارة الغربية لاشينجلر. والانسان ذلك المجهول لالكسيس كارليل .

عُقُودُ الزَّبَرْجَدِ عَلَى مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ

فِي إِعْرَابِ الحَدِيثِ

تأليف :
جلال الدين السيوطي

تحقيق :
الدكتور حسن موسى الشاعر
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بالجامعة

- ٢ -

مُسْنَد أُبَيّ بن كَعْب رضى الله عنه

١ ـ حديث (ففِضْتُ عَرَقاً وكأنّما أنظرُ إلى الله فَرَقا) .

[في التميـــيز][1]

[عَرَقاً وفَرَقا] هما منصوبان على التمييز. فالأوّل محّول عن الفاعل، والأصل: ففاض عرقي، فحّول الإسناد إلى ضمير المتكلم، وانتصب عرقاً على التمييز.

قال ابن مالك في شرح التسهيل[2]: مميّز الجملة ما ذكر بعد جملة فعلية مبهمة النسبة. وإنما أطلق على هذا النوع بخصوصه مع أن كلّ تمييز فضلة يلي جملة، لأن لكلّ واحد من جزأي الجملة في هذا النوع قسطاً من الإبهام يرتفع بالتمييز، بخلاف غيره؛ فإن الإبهام في أحد جزأي جملته، فأطلق على مميزه مميّز مفرد، وعلى هذا النوع مميّز جملة. والأكثر أن يصلح لإسناد الفعل إليه مضافاً إلى المجهول فاعلاً، كقولك في: طاب زيدٌ نفساً، و«اشتعل

---

١ ـ الحديث عن أُبي وأوّله: (كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتُها عليه . . .).
انظر: مسند أحمد ١٢٧/٥، ١٢٩. مسلم بشرح النووي: فضائل القرآن ١٠١/٦ .

(١) ما بين المعقوفتين زيادة للتوضيح.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٠ نحوش ورقة ١٣١ ومنه مصورة في الجامعة الإسلامية برقم ١٤١١.

الرأس شيباً»[1]: طابت نفس زيد، واشتعل شيب الرأس.

وقال الزمخشرى في المفصّل[2]: هذه التمييزات مزالة عن أصلها، إذ الأصل وصف النفس بالطّيب، والعرق بالتصبب، والشيب بالاشتعال، وأن يقال: طابت نفسُه، وتصبب عرقُهُ، واشتعل شيبُ رأسي، لأن الفعل في الحقيقة وصف في الفاعل. والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد.

قال ابن يعيش في شرحه[3]: ومعنى المبالغة أن الفعل كان مسنداً إلى جزء منه، فصار مسنداً إلى الجميع، وهو أبلغ فى المعنى. والتأكيد أنه لما كان يفهم منه الإسناد إلى ماهو منتصب [به] ثم أسند في اللفظ إلى زيد تمكّن المعنى، ثم لما احتمل أشياء كثيرة، وهو أن تطيب نفسه بأن تنبسط ولا تنقبض، وأن يطيب لسانه بأن يعذب كلامه، وأن يطيب قلبه بأن يصفو انجلاؤه، بُيّن المراد من ذلك بالنكرة التي هي فاعل فى المعنى، فقيل طاب زيدٌ نفساً، وكذا الباقي. فهذا معنى قوله: والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد.

انتهى

وأما الثاني فليس محّولاً عن شيء، وإنما هو مبيّن لجهة التشبيه، نحو: أنت الأسدُ شجاعةً، والبحرُ كرماً، والخليفةُ هيبةً.

وفى أوّل هذا الحديث عند مسلم[4] (فسُقِطَ في نفسي من التكذيب ولا إذْ كنتُ في الجاهلية):

[معنى سُقِط]

قال القاضى عياض[5]: معنى «سُقِطَ في نفسي» أي اعترته حيرة ودهشة.

---

(١) سورة مريم آية ٤.

(٢) شرح المفصّل لابن يعيش ٢/٧٤.

(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٢/٧٥. وابن يعيش هوموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش الحلبي، كان من كبار أئمة العربية، ماهر في النحو والتصريف، تصدّر بحلب للإقراء زماناً. صنف: شرح المفصل، شرح تصريف ابن جني، مات سنة ٦٤٣هـ. انظر بغية الوعاة ٢/٣٥١.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى - باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف جـ٦ ص١٠١.

(٥) القاضي عياض سبقت ترجمته في الحلقة الأولى، وكلامه هنا مذكور في شرح النووي على مسلم ٦/١٠٢.

قال الهروي[١] في قوله تعالى «ولمّا سُقِطَ في أيديهم»[٢] أي تحيّروا وندموا، يقال للنادم المتحيّر على فِعْلٍ فَعَلَه: سُقط في يده. وهو كقوله: قد حصل في يده من هذا مكروه. انتهى.

وقال أبو حيان في البحر[٣]: ذكر بعض النحويين أن قول العرب «سُقِطَ في يده» فعل لا يتصرف، فلا يستعمل منه مضارع ولا اسم فاعل ولا مفعول. وكان أصله متصرفاً. تقول: سَقَط الشيء إذا وقع من علو، فهو في الأصل متصّرف لازم. . . وسُقط مبنى للمفعول، والذي أوقع موقع الفاعل هو الجار والمجرور، كما تقول: جُلِسَ في الدار، وضُحِكَ من زيد. وقيل: سُقِط يتضمن معقولاً وهو ها هنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذُهِبَ بزيد.

قال أبو حيان: وصوابه وهو هنا ضمير المصدر الذي هو السقوط، لأن سُقِطَ ليس مصدره الإسقاط، وليس نفس المصدر هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعلُه، بل هو ضميره[٤].

وقوله (ولا إذْ كُنْتُ في الجاهلية).

قال أبو البقاء[٥]: تقديره ولا أشكل عليَّ حال القرآن إذْ أنا فى الجاهلية كإشكال هذه القصّة عليَّ.

---

(١) أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الهروي، صاحب الغريبين، قرأ على أبي سليمان الخطابي وأبي منصور الأزهري. ومات سنة ٤٠١هـ.

انظر طبقات الشافعية للسبكي ٤/٨٤، بغية الوعاة ١/٣٧١.

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٩.

قال الأخفش في معاني القرآن ٢/٣١٠ العرب تقول سُقط في يديه. وأُسْقط في أيديهم. وفي اللسان [مادة سقط]: قال الزجاج: يقال للرجل النادم على ما فعل الحسر على ما فرط منه: قد سُقط في يده وأُسْقط. وقال أبو عمرو: لا يقال أُسْقط بالألف على ما لم يسمّ فاعله، وفي التنزيل «ولما سُقط في أيديهم» قال الفارسي: ضربوا بأكفّهم على أكفّهم من الندم. وقد قرىء: «سَقَط في أيديهم» كأنه أضمر الندم. .

(٣) البحر المحيط ٤/٣٩٣-٣٩٤ وفيه زيادة وتفصيل.

(٤) مذهب الجمهور أن المجرور بالحرف مفعول به في المعنى فصحّت نيابته عن الفاعل. وذهب ابن درستويه والسهيلي والرندي إلى أن النائب ضمير المصدر المفهوم من الفعل المستتر فيه، والتقدير: ولما سُقط هو أي السقوط. . انظر التصريح على التوضيح ١/٢٨٧.

(٥) هو أبو البقاء العكبري، وقد سبقت ترجمته في الحلقة الأولى. وكلامه هذا مذكور في الحديث رقم ٥ من كتابه إعراب الحديث النبوي، بتحقيق د. حسن الشاعر.

وقال التُّورِبِشْتي[1] في شرح المصابيح: قيل فاعل «سقط» محذوف، أي فوقع في نفسي من التكذيب ما لم أقدر على وصفه، ولم أعهد بمثله ولا إذْ كنتُ في الجاهلية.

وقال الطّيبيّ في شرح المشكاة[2]: قد أحسن هذا القائل وأصاب في هذا التقدير، ويشهد له قوله (فلما رأى رسولُ الله ﷺ ما غشيني) أي من التكذيب. فَـ«مِنْ» على هذا بيانية. والواو في «ولا إذْ كنتُ» تستدعى معطوفاً عليه، و«لا» المؤكدة توجب أن يكون المعطوف عليه منفياً، وهو هذا المحذوف. وهذا أسدّ في العربية من جعل «ولا إذْ كنتُ» صفة لمصدر محذوف، كما قدّره المظهري[3]، حيث قال: يعنى وقع في خاطري من تكذيب النبى ﷺ في تحسينه لشأنهما تكذيب أكثر من تكذيبى إياه قبيل الإسلام، لأن واو العطف مانعة، ولو ذهب إلى الحال لجاز على التعسّف.

قال: وذكر المظهرى أن «عرقاً وفرقاً» منصوبان على التمييز، والظاهر أن يكون «فرقاً» مفعولاً له، أو حالاً، لأنه لا يجوز أن يقال: انظر فرقي.

قال: وقوله (فَرَدَدْتُ إليه أنْ هَوِّن على أمّتى).

يجوز أن تكون «أنْ» مفسّرة[4]، لما في رددتُ من معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية، وإن كان مدخوله أمراً. وجوّز ذلك صاحب الكشاف نقلاً عن سيبويه[5].

---

(١) شهاب الدين فضل الله بن حسين التُوربشتي، محدّث فقيه من أهل شيراز. شرح مصابيح السنة للبغوي شرحاً حسناً سمّاه الميسر.

انظر كشف الظنون ٢/١٦٩٨، طبقات الشافعية للسبكى ٨/٣٤٩، مرقاة المفاتيح للقاري ١/٥٩.

(٢) مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، شرحها الطيبى شرحاً سماه «الكاشف عن حقائق السنن». ورموزه هكذا: معالم السنن للخطابي (خط) شرح السنة للبغوي (حس) شرح صحيح مسلم للنووي (مح) والفائق للزمخشرى (فا) ومفردات الراغب (غب) والنهاية لابن الأثير (نه) والتوربشتى (تو) والقاضي البيضاوي (قض) والمظهر (مظ) والأشرف (شف).

ومن هذا الشرح عدد من النسخ الخطية. وقد اعتمدت في توثيق كلام الطيبي هنا على جـ٢ ورقة ١٤٦-١٤٧ مخطوط في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة برقم ٦١٣.

(٣) هو مظهر الدين الحسين بن محمود بن الحسن الزيداني المتوفي سنة ٧٢٧هـ، له شرح على مصابيح السنة سماه «المفاتيح في شرح المصابيح». انظر: كشف الظنون ٢/١٦٩٩.

(٤) انظر في «أنْ» المفسرة وشروطها مغني اللبيب ص٢٩ بتحقيق د. مازن المبارك، الطبعة الأولى.

(٥) قال سيبويه ٣/١٦٢: وأما قوله: كتبت إليه أن أفعل، وأمرتُه أن قُمْ، فيكون على وجهين: على أن تكون «أن» التي تنصب الأفعال ووصلتها بحرف الأمر والنهي... والوجه الآخر: أن تكون بمنزلة أيْ..

وقوله (ولك بكُلِّ رَدَّةٍ مسألةٌ تسْألُنيها).

«تَسْألُنيها» صفة مؤكدة لمسألة، كقوله تعالى ﴿ولا طائرٌ يطيرُ بجناحيه﴾[1] أي مسألة ينبغي لك أن تسألها، وأنك لا تخيب فيها. انتهى[2].

٢ ـ حديث اللُّقَطَة (فإنْ جاء صاحِبُها وإلّا استَمْتِعْ بها).

قال ابن مالك في توضيحه[3]: تضمَّن هذا الحديث حذف جواب «إنْ» الأولى وحذف شرط «إنْ» الثانية، وحذف الفاء من جوابها، فإن الأصل: فإنْ جاء، صاحبُها أخذها وإلّا يجيء فاسْتمتعْ بها.

٣ ـ حديث (يغسلُ ما مَسَّ المرأةَ منه).

قال أبو البقاء: ـ وهو أول حديث ذكره في إعرابه: ـ «ما» بمعنى الذي، وفاعل «مسَّ» مضمر فيه يعود على الذي، والذي وصلتها مفعول «يغسل»، و«المرأةَ» مفعول «مسَّ». ولا يجوز أن ترفع «المرأة» بمسَّ على معنى ما مسَّت المرأةُ لوجهين: أحدهما: أن تأنيث المرأة حقيقي، ولم يفصل بينها وبين الفعل فلا وجه لحذف التاء. والثاني: أن إضافة المسّ إلى الرجل وإلى أبعاضه حقيقة، قال تعالى ﴿أو لامستم النساء﴾[4] وإضافة المسّ إليها في الجماع تجوّز. انتهى.

٤ ـ حديث موسى والخضر:

قال أبو البقاء[5]: قوله (أنَّى بأرضك السلام).

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٢) أي انتهى كلام الطيبى في شرح المشكاة.

٢ ـ الحديث في البخاري ـ كتاب اللقطة / باب هل يأخذ اللقطة. انظر فتح الباري ٥/٩١. مسند أحمد ٥/١٢٦.

(٣) شواهد التوضيح والتصحيح ص ١٣٥.

٣ ـ قال أُبي (سألت رسول الله ﷺ ـ قلت: الرجل يجامع أهله ولا ينزل. قال: يغسل ما مس المرأة منه ويتوضأ ويصلي). انظر البخاري ـ كتاب الغسل ـ فتح البارى ١/٣٩٨، مسند أحمد ٥/١١٣.

(٤) النساء آية ٤٣.

٤ ـ حديث طويل، وفيه (قام موسى النبي ﷺ خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم...). البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام. فتح الباري ٦/٤٣١. البخاري: كتاب التفسير باب سورة الكهف، كتاب العلم ـ باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم ـ فتح الباري ١/٢١٧. الترمذي: أبواب تفسير القرآن ٤/٣٧١، مسند أحمد ٥/١٢٠.

(٥) إعراب الحديث النبوي ـ الحديث الثاني.

في «أنّى» ها هنا وجهان: أحدهما: من أين، كقوله تعالى ﴿**أنّى لكِ هذا**﴾[1] فهي ظرف مكان. و«السلام» مبتدأ. والظرف خبر عنه. والثاني: هي بمعنى كيف، أي كيف بأرضك السلام؟ ووجه هذا الاستفهام أنه لما رأى ذلك الرجل في قفر من الأرض استبعد علمه بكيفية السلام. فأما قوله «بأرضك» فموضعه نصب على الحال من السلام، والتقدير: من أين استقرَّ السلام كائناً بأرضك؟.

وقوله (موسى بني إسرائيل):

أي أنت موسى بني اسرائيل؟ فأنت مبتدأ، وموسى خبره.

وقوله (فكلموهم أن يحملوهما فعُرف الخضر فحملوهما).

المعنى أن موسى والخضر ويوشع قالوا لأصحاب السفينة هل تحملوننا؟ فعرفوا الخضر فحملوهم. فجمع الضمير في «كلموهم» على الأصل، وثنّى «يحملوهما» لأنهما المتبوعان، ويوشع تبع لهما. ومثله قوله تعالى ﴿**إنَّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾[2] فثنى ثم وحد لما ذكرنا.

وقوله (قومٌ حملونا).

أي هؤلاء قوم، أو هم قوم. فالمبتدأ محذوف. وقوم خبره.

وقوله (فأخذَ برأسه).

في الباء وجهان أحدهما: هي زائدة، أي أخذ رأسه. والثاني: ليست زائدة، لأنه ليس المعنى أنه تناول رأسه ابتداء، وإنما المعنى أنه جرّه إليه برأسه ثم اقتلعه. ولو كانت زائدة لم يكن لقوله «اقتلعه» معنى زائد على أخذه.

وقوله (لَوِدْنا لو صبرَ).

«لو» هنا بمعنى «أنْ» الناصبة للفعل[3]، كقوله تعالى ﴿**ودّوا لو تدهن**﴾[4] ﴿**ودّوا لو تكفرون**﴾[5]. وقد جاء بأنْ في قوله تعالى ﴿**أيودّ أحدكم أنْ تكون له**﴾[6]. و«صبر» بمعنى

---

(١) آل عمران آية ٣٧.

(٢) سورة طه ١١٧.

(٣) أي المصدرية. وأكثرهم لم يثبت ورود لو مصدرية. وممّن أثبته الفراء والفارسي والعكبري وابن مالك. انظر مغني اللبيب بحث لو ص٢٩٤.

(٤) سورة القلم آية ٩.

(٥) النساء: ٨٩.

(٦) البقرة: ٢٦٦.

يصبر، أي وددنا أن يصبر. انتهى كلام أبى البقاء.

قلت: وبقى فيه أشياء منها قوله (موسى بني إسرائيل):

فيه إضافة العلم وهو «موسى» إلى بني إسرائيل. والقاعدة النحوية أن العلم لا يضاف لاستغنائه بتعريف العلمية عن تعريف الإضافة، إلّا أنه جاء إضافة العلم قليلاً في قول الشاعر:

علا زَيْدُنا يومَ النَّقا رأسَ زَيْدِكُم[1]

فأوّل على أنه تُخُيّل فيه التنكير لوقوع الاشتراك في مسمَّى هذا اللفظ، وكذا يؤول في هذا الحديث.

قال ابن الحاجب[2]: شرط الإضافة الحقيقية تجريد المضاف من التعريف.

قال الرضي[3]: فإن كان ذا لام حذفه لامه، وإن كان علماً نكّر بأن يجعل واحداً من جملة من سمّى بذلك اللفظ... قال: وعندي أنه يجوز إضافة العلم مع بقاء تعريفه، إذ لا منع من اجتماع التعريفين كما فى النداء، نحو: ياهذا، وياعبد الله. وذلك إذا أضيف العلم إلى ما هو متصف به معنى، نحو: زيدُ الصدّق، ونحو ذلك. وإن لم يكن في الدنيا إلّا زيد واحد. ومثله قولهم: مُضَمرُ الحمراء[4]، وأنمارُ الشّاء وزيدُ الخيل[5]. فإن الإضافة فيها ليست للاشتراك المتفق... انتهى.

وقوله (ما نَقَصَ عِلْمي وعلمُك مِنْ عِلْم ِ اللهِ إلّا كنقرةِ هذا العصُفورِ مِنْ هذا البحْر):

---

(١) صدر بيت لرجل من طىء ـ وعجزه: بأبيض ماضي الشفرتين يمان.

ويوم النقا: يوم الحرب عند النقا وهو الكثيب من الرمل.

انظر العينى على الأشمونى ٢/٢٤٣، شرح الكافية ١/٢٧٤، مغنى اللبيب ص٥٣، حاشية الأمير ١/٥٠، خزانة الأدب ٢/٢٢٤.

(٢) شرح الكافية ١/٢٧٤.

(٣) العلّامة رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي المتوفي سنة ٦٨٦هـ. قال عنه السيوطى: صاحب شرح الكافية لابن الحاجب، الذي لم يؤلف عليها بل ولا في غالب كتب النحو مثلها جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل.

انظر بغية الوعاة ١/٥٧٦. وللرضي أيضا شرح قيم على الشافية لابن الحاجب.

(٤) مُضر الحمراء وربيعة الفرس وإياد الشمطاء وأنمار الفضل أولاد نزار، وردت قصتهم في مجمع الأمثال للميداني عند ذكر المثل «إن العصا من العصبية» جـ١ ص١٤ بتحقيق محيى الدين عبد الحميد.

(٥) زيد الخير هو ابن مهلهل بن زيد بن منهب الطائي النبهاني كان يدعى زيد الخيل لشجاعته فسماه النبى ﷺ لما وفد عليه في سنة تسع من الهجرة زيد الخير لأنه بمعناه، وأثنى عليه، وأقطعه أرضين.

انظر: تاج العروس (مادة خيل)، السيرة النبوية لابن هشام ـ القسم الثاني ص٥٧٧.

ليس هذا الاستثناء على ظاهره، لأن علم الله لا يدخله النقص، فقيل «نقص» بمعنى أخذ، وهو توجيه حسن، فيكون من باب التضمين[1]، ويكون التشبيه واقعاً على الآخذ لا على المأخوذ منه. وقيل المراد بالعلم المعلوم بدليل دخول حرف التبعيض، لأن العلم القائم بذات الله تعالى صفة قديمة لا تتبعض، والمعلوم هو الذي يتبعض. وقيل هو من باب قول الشاعر:

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهُم ... بهنّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائب[2]

لأن نقر العصفور لا يُنقص البحر. وقيل «إلّا» بمعنى «ولا»، أي ولا كنقرة هذا العصفور[3]. كما قيل بذلك في قوله تعالى ﴿**لئلا يكون للناس عليكم حجة إلّا الذين ظلموا منهم**﴾[4]، أي ولا الذين ظلموا. لكن قال أبو حيان في البحر[5]: إن إثبات «إلّا» بمعنى «ولا» لا يقوم عليه دليل.

وقوله (إنّي على عِلْم من عِلْم الله). «على» هنا للاستعلاء المجازى.

وقوله (فبينما هُمْ في ظلِّ صَخْرة في مكانٍ ثَرْيان)[6].

قال ابن مالك في توضيحه[7]: [ثَرْيان] هو بلا صرف، وفيه شاهد على أن منع [صرف] فَعْلان ليس مشروطا بأن يكون له مؤنث على فَعْلى، بل شرطه ألّا تلحقه تاء التأنيث، ويستوى في ذلك مالا مؤنث له من قبل المعنى كـ«لَحْيان»[8] وما لا مؤنث له من قبل الوضع كـ«ثَرْيان»، وما له مؤنث على فَعْلى في اللغة المشهورة كـ«سَكْران». انتهى.

وقال الكرماني[9]: اللام في قوله (لَوَدِدْنا) جواب قسم محذوف. و(لو صَبَرَ) في تقدير

---

(١) قال ابن هشام: قد يشربون لفظاً معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضميناً. انظر مغنى اللبيب ص٧٦٢.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص٦٠ - بتحقيق د. شكري فيصل. ويستدل به في علم البلاغة على تأكيد المدح بما يشبه الذم - انظر الايضاح للقزويني ص٥٢٤ بتحقيق د. خفاجي. والبيت من شواهد سيبويه ٢/٣٢٦ بتحقيق هارون، وهمع الهوامع ٣/٢٨١ بتحقيق عبد العال سالم. وخزانة الأدب ٣/٣٢٧ بتحقيق هارون.

(٣) الكلام كلّه مأخوذ من ابن حجر في فتح الباري ١/٢٢٠ بتصرف يسير، دون إشارة.

(٤) سورة البقرة: آية ١٥٠.

(٥) البحر المحيط ١/٤٤٢.

(٦) ثريان: أي فيه بلل أوندى.

(٧) شواهد التوضيح والتصحيح ص١٥٦.

(٨) لحيان: كبير اللحية. قال الأشموني ٣/٢٣٢: وفيه خلاف والصحيح منع صرفه.

(٩) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٢/١٤٥.

المصدر، أي والله لوددنا صبر موسى. وهذا حكم كلّ فعل وقع مصدّراً بلو بعد فعل المودّة. قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿ودّوا لو تدهن﴾[1] ودّوا إدهانك[2]. و(يُقصّ) بصيغة المجهول. و(مِنْ أمرهما): مفعول ما لم يسمّ فاعله. [انتهى كلام الكرماني].

٥ ــ حديث (فُرِجَ سَقْفُ بيتي) الحديث.

وفيه (ثم جاء بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مملوءاً حِكْمَةً وإيماناً فأفْرَغَها في صدري).

قال أبو البقاء[3]: «مملوءاً» بالنصب على الحال. وصاحب الحال «طَسْت» لأنه وإن كان نكرة فقد وصف بقوله «مِنْ ذَهَب» فقرب من المعرفة ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في الجار، لأن تقديره بطَسْتٍ كائنٍ من ذهب أو مصوغ من ذهب، فنقل الضمير من اسم الفاعل إلى الجار. ولو روي بالجر جاز على الصفة. وأما «حكمة وإيماناً» فمنصوبان على التمييز.

قال: والطَّسْت مؤنث ولكنه غير حقيقي، فيجوز تذكير صفته حملاً على معنى الإناء. انتهى.

٦ ــ حديث (أتَدري أيُّ آيةٍ في كتابِ الله مَعكَ أعْظَمُ).

قال أبو البقاء[4]: لا يجوز في «أيّ» هاهنا إلاّ الرفع على الابتداء و«أعظم» خبره. و«تدرى» معلّق عن العمل[5]، لأن الاستفهام لا يعمل فيه الفعل الذي قبله، وهو كقوله تعالى ﴿لنعلم أيُّ الحزبين أحصى﴾[6].

وفي حديث عمران بن حصين (أتدرون أيُّ يوم ذاك)[7]: «أيّ» مبتدأ، و«ذاك»

---

(١) القلم: ٩.

(٢) الكشاف ٤/١٤٢.

٥ ــ الحديث (فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب مملوءا حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه). مسند أحمد ٥/١٢٢. البخاري: كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلوات ١/٤٥٨ من فتح الباري.

(٣) إعراب الحديث النبوي: ٧.

٦ ــ تكملة الحديث عن أبي (قلت: الله لا إله إلا هو الحى القيوم قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر). مسند أحمد ٥/١٤٢. مسلم: فضائل القرآن ٦/٩٣ بشرح النووي. أبو داود: ما جاء في آية الكرسي رقم الحديث ١٤١٠.

(٤) إعراب الحديث النبوي: الحديث الثالث.

(٥) التعليق عن العمل يخص المتصرف من الأفعال القلبية، وهو إبطال عملها في اللفظ دون التقدير، لاعتراض ما له صدر الكلام بينها وبين معموليها. انظر: شذور الذهب٣٦٥.

(٦) الكهف: ١٢.

(٧) مسند أحمد ٤/٤٣٥، وفي إعراب الحديث للعكبري برقم ٣٢٣.

خبره. وقيل «ذاك» المبتدأ، و«أيّ» الخبر. ولا يجوز نصبه بتدرون البتة. انتهى.

٧ ـ حديث (أنه سأل رسول الله ﷺ عن سورة وعده أن يعلمه إياها، فقال أبيّ: فقلت: السورةَ التى قلت لي).

قال أبو البقاء[١]: الوجه النصب على تقدير اذكر لي السورة، أو علّمنى. والرفع غير جائز إذ لا معنى للابتداء هنا.

٨ ـ حديث (كان رسول الله ﷺ يعلمنا إذا أَصْبَحْنا أَصْبَحْنا على فِطْرَةِ الإسلام، وكلمة الإخلاص، وسنّة نبيّنا ﷺ، وملّة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين).

قال أبو البقاء[٢]: تقديره: يعلّمنا إذا أصبحنا أن نقول أصبحنا على كذا، فحذف القول للعلم به، كما قال تعالى ﴿**والملائكةُ يدخلونَ عليهم مِنْ كُلّ بابٍ سلامٌ عليكم**﴾[٣] أي يقولون سلام عليكم.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام[٤] في أماليه[٥]: «على» إذا استعملت نحو قوله تعالى ﴿**أولئك على هدى من ربّهم**﴾[٦] تدل على الاستقرار والتمكن من ذلك المعنى، لأن الجسم إذا علا شيئاً تمكن منه، واستقر عليه.

٩ ـ حديث (كأيّنْ تقرأ سورةَ الأحزاب أو كأيِّن تعدُّها؟ قال: ثلاثا وسبعين آية. قال: قط).

[كأيّن وقط]

قال أبو البقاء[٧]: أمّا «كأيّنْ» فاسم بمعنى كم. وموضعها نصب بتقرأ أو تعد. وقوله

---

٧ ـ مسند أحمد ٥/١١٤ وفي آخر الحديث (... فقرأت بفاتحة الكتاب، قال: هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم).

(١) إعراب الحديث النبوي: ٦.

٨ ـ مسند أحمد ٥/١٢٣.

(٢) إعراب الحديث: رقم ٨.

(٣) الرعد: ٢٣-٢٤.

(٤) الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء ولد سنة ٥٧٧هـ وبرع في الفقه والأصول والعربية. ألقى التفسير بمصر دروساً، وهو أول من فعل ذلك. من مصنفاته: تفسير القرآن، القواعد الكبرى والصغرى. توفي بمصر سنة ٦٦٠هـ. انظر حسن المحاضرة ٣١٤-٣١٦.

(٥) الفوائد في مشكل القرآن للعز بن عبد السلام تحقيق د. رضوان الندوي ص٢٩.

(٦) البقرة: ٥.

٩ ـ مسند أحمد ٥/١٣٢ الحديث عن زر بن حبيش قال، قال لي أُبي (كأيّن تقرأ سورة الأحزاب أو كأيّن تعدها؟ قال، قلت له: ثلاثاً وسبعين آية. فقال: قط، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة...).

(٧) إعراب الحديث: ٩.

«ثلاثاً وسبعين» منصوب بتقدير أعدّها ثلاثاً وسبعين، فهو مفعول ثانٍ. وأما «قطّ» فاسم مبنى على الضم، وهو للزمان الماضى خاصة. ومنهم من يضمّ القاف، ومنهم من يفتح القاف ويخفف الطاء ويضمّها. ولا وجه لتسكينها هنا. والتقدير: ما كانت كذا قط. انتهى.

قلت: في «كأيِّن» خمس لغات. قال ابن مالك فى الكافية الشافية[1]:

وفي كأيِّنْ قيل كائِنْ وكَإنْ ... وهكذا كَينْ وكأينِ فاسْتَبِنْ

وقال في شرحها: أصلها «كأيِّنْ» وهي أشهرها، وبها قرأ السبعة إلاّ ابن كثير[2]. ويليها «كائِنْ» وبها قرأ ابن كثير، [والبواقى لم يقرأ بشيء منها في السبع]. وقرأ الأعمش[3] وابن مُحيصن[4] «وكأينْ» بهمزة ساكنة بعد الكاف وبعدها ياء مكسورة خفيفة، وبعدها نون ساكنة في وزن «كَعْيِنْ» ولا أعرف أحداً قرأ باللغتين الباقيتين.

وقال ابن الأثير[5] في النهاية[6] في هذا الحديث: قوله «أقط» بألف الاستفهام. أى أحَسْب. قال: ومنه حديث حيْوة بن شُرَيح[7]: «لقيت عقبة بن مسلم[8] فقلت له: بلغنى أنك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا دخل المسجد (أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم)[9] قال: أقط؟ قلت: نعم».

---

(١) شرح الكافية الشافية ٤/١٧٠٢. وانظر في كأيّن مغني اللبيب ٢٠٣.

(٢) «وكأين من نبيّ...» آل عمران ١٤٦. وابن كثير هو عبد الله بن كثير المكي من التابعين توفى بمكة سنة ١٢٠هـ. انظر البدور الزاهرة للمرحوم القاضي ص٨.

(٣) الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الأسدى الكوفي الإمام الجليل كان ورعاً واسع الحفظ للقرآن، ولد سنة ٦٠هـ ومات سنة ١٤٨هـ. انظر: القراءات الشاذة للمرحوم القاضي ص١٦-١٧.

(٤) ابن محيصن: هو محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمى مولاهم المكي، مقرىء أهل مكة مع ابن كثير. ثقة، روى له مسلم، وكان عالماً العربية كان له اختيار في القراءة على مذهب العربية فخرج به عن إجماع أهل بلده. مات سنة ١٢٣هـ انظر: القراءات الشاذة ص١١.

(٥) المبارك بن محمد أبو السعادات الجزري المشهور بابن الأثير، من مشاهير العلماء ولد سنة ٥٤٤هـ وانتقل إلى الموصل وأخذ النحو عن ابن الدهان وتنقل في الولايات وكتب في الانشاء. ومن مصنفاته: النهاية في غريب الحديث، جامع الأصول من أحاديث الرسول، البديع في النحو. مات سنة ٦٠٦هـ. انظر: بغية الوعاة ٢/٢٧٤-٢٧٥.

(٦) النهاية في غريب الحديث ٤/٧٩.

(٧) حيوة بن شريح: شيخ الديار المصرية، روى عن عقبة بن مسلم وغيره. وثقة أحمد بن حنبل وغيره توفى سنة ١٥٨هـ. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٨٥-١٨٦.

(٨) عقبة بن مسلم التجيبي إمام المسجد العتيق بمصر. روى عن ابن عمر وغيره. توفى حوالي سنة ١٢٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب ٧/٢٤٩-٢٥٠.

(٩) أبو داود كتاب الصلاة باب ١٨ رقم الحديث ٤٦٦ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

وقال الأندلسي[1] في شرح المفصَّل: «قط» مخففة ومشدّدة. فالمخففة معناها حَسْب، وهي مسكنّة مبنيّة لوقوعها موقع فعل الأمر. والمشدّدة معناها ما مضى من الزمان. وبُنيت لأنها أشبهت الفعل الماضي، إذ لا تكون إلّا له، ولأنها تضمنت معنى «في»، لأن حكم الظرف أن يحسن فيه «في»، ولمّا لم يحسن ظهوره هنا مع أنه اسم زمان دل على أنها مضمنة لها، وحرِّكت لالتقاء الساكنين، وضمّت لأنها أشبهت «مُنْذُ» لأنها في معناها، فإذا قلت: ما رأيتُه قطُّ، فمعناه: ما رأيته منذُ كنت. انتهى.

١٠ ـــ حديث (انهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبى بكر، وكان رجال يكتبون، ويُمِلُّ عليهم..).

قال أبو البقاء[2]: «يُملُّ» بضم الياء لاغير، وما ضيه أَمَلَّ. وفي القرآن «أو لا يَسْتطيع أنْ يُملَّ هو»[3]. وفيه لغة أخرى: أَمْلَى يُمْلي، ومنه قوله تعالى ﴿فهي تُمْلَى عليه﴾[4].

قلت: ذكر أن أملَّ يُمِلّ لغة الحجازيين، وأمْلى يُمْلي لغة [تميم][5].

١١ ـــ حديث (لمّا كان يومُ الفتْح قال رجل: لا قُرَيْشَ بعْدَ اليوم).

[دخول لا النافية للجنس على المعرفة]

قلت: هو من مشاهير الأحاديث التي تكلمت النحاة على تخريجها، لدخول «لا» فيه على المعرفة، وبنائها معها على الفتح، وذلك على خلاف القاعدة. ومثله قول عمر بن الخطاب «قضية ولا أبا حسنٍ لها» في أشياء أخر. ونسوق كلام النحاة في ذلك.

قال ابن مالك في شرح الكافية[6]: وقد يُتَأوّل العلم بنكرة فيُجْعل اسم لا مركّباً معها إن كان مفرداً، كقول الشاعر:

---

(١) القاسم بن أحمد اللورقي الأندلسي (٥٧٥-٦٦١هـ) إمام في العربية، عالم بالقراءات، يعرف الفقه والأصول. شرح المفصل في أربعة مجلدات، وسماه الموصّل. كما شرح الجزولية والشاطبية. انظر: بغية الوعاة ٢/ ٢٥٠، كشف الظنون ٢/ ١٧٧٠.

١٠ ـــ مسند أحمد ٥/ ١٣٤ والرواية فيه «ويملي عليهم».

(٢) إعراب الحديث: رقم ١٠ .

(٣) البقرة آية ٢٨٢ .

(٤) الفرقان آية ٥ .

(٥) قال أبو حيان: أملَّ وأملى لغتان الأولى لأهل الحجاز وبني أسد، والثانية لتميم. البحر المحيط ٢/٣٤٢.

١١ ـــ مسند أحمد ٥/١٣٥ .

(٦) شرح الكافية الشافية ١/ ٥٢٩ .

أرى الحاجاتِ عنْدَ أبي خُبَيْبٍ نكِدْن ولا أميَّة في البلاد[1]

وكقول آخر:

لا هَيْثَمَ الليلةَ للمطيِّ[2]

ومنصوباً بها إن كان مضافاً، كقولهم: قضيةٌ ولا أبا حسن لها[3]. ولابدَّ من نزع الألف واللام مما هما فيه، ولذلك قالوا: ولا أبا حسنٍ، ولم يقولوا: ولا أبا الحسن. فلو كان المضاف مضافاً إلى ما يلازمه الألف واللام [كعبد الله][4] لم يجز فيه هذا الاستعمال[5].

وللنحويين في تأويل العلم المستعمل هذا الاستعمال قولان: أحدهما أنه على تقدير إضافة «مِثْل» إلى العلم، ثم حُذف «مِثْل» فخلفه المضافُ إليه في الإعراب والتنكير. والثاني أنه على تقدير: لا واحد من مسمّيات هذا الاسم. وكلا القولين غير مرضي، أما الأول فيدل على فساده أمران: أحدهما التزام العرب تجرد المستعمل ذلك الاستعمال من الألف واللام، ولو كانت إضافة «مثل» منوية لم يحتج إلى ذلك. الثاني: إخبار العرب عن المستعمل ذلك الاستعمال بمثل، كقول الشاعر:

تُبكّي على زيْدٍ ولا زيْدَ مِثْلهُ بريء من الحُمَّى سليمُ الجوانح[6]

فلو كانت إضافة «مثل» منوية لكان التقدير: ولا مثل زيد مثله. وذلك فاسد.

وأما القول الثاني فضعفه بيِّن لأنه يستلزم أن لا يستعمل هذا الاستعمال إلّا علم مشترك فيه كزيد، وليس ذلك لازماً، كقولهم: لا بَصْرَةَ لكم، ولا قُرَيْشَ بعد اليوم، وكقول

---

(١) لفضالة بن شريك الأسدي، وقيل لابن الزبير الأسدي من أبيات يهجو بها عبد الله بن الزبير. وأبو خُبَيب كنية عبد الله بن الزبير، وكان بخيلا. انظر: سيبويه ٢/٢٩٧، شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/٥٦٩، الأصول لابن السراج ١/٤٦٦، المقتضب للمبرد ٤/٣٦٢، همع الهوامع ٢/١٩٥، شرح الأشموني ٢/٤.

(٢) شطر رجز لم يعرف قائله، وهو من شواهد سيبويه ٢/٢٩٦، والمقتضب ٤/٣٦٢، والأصول لابن السراج ١/٤٦٥ وهمع الهوامع ٢/١٩٥ والأشموني ٢/٤ وخزانة الأدب ٢/٥٧.

(٣) انظر سيبويه ٢/٢٩٧. وقال الأشموني ٢/٤: هو نثر من كلام عمر في حقّ علي رضي الله عنهما كما في شرح الجامع، لا شطر بيت، ولهذا لم يذكره العيني في شواهده، وصار مثلاً يضرب عند الأمر العسير...

(٤) أثبتها من شرح الكافية الشافية.

(٥) قال البغدادي في الخزانة ٤/٥٨: رأيت في (تذكرة أبي حيان) ما نصّه: قال الفرّاء: من قال قضية ولا أبا حسن لها لا يقول ولا أبا الحسن، بالألف واللام، لأنها تمحض التعريف في ذا المعنى وتبطل مذهب التنكير. وقال: إنما أجزنا «لا عبدَ الله لك» بالنصب لأنه حرف مستعمل، يقال لكل أحد عبد الله، ولا نجيز لا عبدَ الرحمن ولا عبدَ الرحيم، لأن الاستعمال لم يلزم هذين كلزومه الأول. وكان الكسائي يقيس عبد الرحمن وعبد العزيز على عبد الله، وما لذلك صحة. أهـ.

(٦) قائله مجهول، انظر: همع الهوامع ٢/١٩٦، حاشية يس على التصريح ١/٢٣٦.

النبى ﷺ (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده)[1].

وإنما الوجه في هذا الاستعمال أن يكون على قصد: لاشيء يصدق عليه هذا الاسم كصدقه على المشهور به، فضمّن العلم هذا المعنى، وجُرِّد لفظُه مما ينافي ذلك.

انتهى كلام ابن مالك في شرح الكافية.

وقال في شرح التسهيل[2]: قد يؤوّل العلم بنكرة، فيركبّ مع «لا» إن كان مفرداً، وينصب بها إن لم يكن مفرداً، فالأوّل كقول النبي ﷺ «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» وكقول الشاعر:

أرى الحاجات عند أبي خُبيبٍ نكدْن ولا أميَّة بالبلاد[3]

وكقول الراجز:

إنَّ لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم[4]

والثانى نحو: «قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها». لما أوقعوا العلم موقع نكرة جرّدوه من الألف واللام إذ كانتا فيه، كقوله: ولا عُزَّى لَكم. أو فيما أضيف إليه كقولهم: ولا أبا حسن. فلو كان العلم «عبد الله» لم يعامل بهذه المعاملة للزوم الألف واللام، وكذا عبد الرحمن على الأصحّ لأن الألف واللام لا ينزعان منه إلا في النداء.

وقدّر قوم العلم المعامل بهذه المعاملة مضافاً إليه [«مثل» ثم][5] حذف مضافه وأقيم العلم مقامه فى الإعراب والتنكير، كما فُعل بأيدي سبا في قولهم «تفرّقوا أيدي سبا»[6] يريدون مثل أيدي سبا، فحذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه في النصب على الحال. وقدّره آخرون بلا مسمًّى بهذا الاسم، أوبلا واحد من مسمّيات هذا الاسم. ولا يصحّ واحد من التقديرات الثلاثة على الاطلاق.

أما الأول فممنوع من ثلاثة أوجه: أحدهما: ذكر «مثْل» بعده كقول الشاعر:

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده». انظر فتح الباري ٦/٢١٩.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك مصوّر في الجامعة الإسلامية عن مخطوطة دار الكتب ـ ورقة ٧٥ـ٧٦.

(٣) ما بين المعقوفتين من شرح التسهيل لابن مالك. وقد مرّ ذكر البيت قريباً.

(٤) قاله أبو سفيان بن حرب بعد انتهاء غزوة أحد، وهو يومئذ مع المشركين. انظر: فتح الباري ٧/٣٤٩ كتاب المغازى، ولم يذكر إنَّ في أوله. وذكره ابن مالك في شرح التسهيل ١/١٩٥ من المطبوع هكذا: إنّ لنا عُزّى ولا عزّى لكم.

(٥) ما بين المعقوفين من شرح التسهيل ـ المخطوط.

(٦) في القاموس (مادة سبأ): تفرقوا أيدى سبا وأيادى سبا تبدّدوا... ضرب المثل بهم لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جنّاتهم تبدّدوا في البلاد.

تبكي على زَيْدٍ ولا زَيْدَ مِثْلُه

فتقديـر «مثـل» قبـل زيـد مع ذكـر «مثـل» بعده وصفاً أو خبراً يستلزم وصف الشيء بنفسـه، أو الإخبـار عنـه بنفسـه وكـلاهما ممتنـع. الثـاني: أن المتكلم بذلك إنما يقصد نفي مسمَّى العلم المقـرون بلا، فإذا قدّر «مثـل» لزم خلاف المقصـود، لأن نفي مثـل الشيء لا تعـرّض فيـه لنفي ذي المثـل. الثالث: أن العلم المعامل بها قد يكون انتفاء مثله معلوماً لكل أحد فلا يكون في نفيه فائدة نحو: لا بصرة لكم.

[وأمـا التقـديـر الثاني والثالث فلا يصح اعتبارهما مطلقا، فإنّ][1] من الأعلام المعاملة بذلك ماله مسمّيات كثيرة كأبي حسن، وقيصر. فتقدير ما كان هكذا بلا مسمًّى لهذا الاسم أو بلا واحد من مسمّياته لا يصح لأنه كذب.

فالصحيـح أن لا يقـدّر هذا النـوع بتقـديـر واحد، بل يقدّر ما ورد منه بما يليق به وبما يصلح له، فيقـدر «لا زيـد مثله» بلا واحـد من مسميات هذا الاسم مثله، ويقدّر «لا قُريش بعد اليوم» بلا بطن من بطون قريش بعد اليوم، ويقدّر «لا أبا حسن لها» و«لا كسرى بعده» و«لا قيصـر بعـده» بلا مثـل أبي حسن، ولا مثـل كسـرى ولا مثـل قيصـر، وكذا لا أمية ولا عُزَّى. ولا يضرّ في ذلك عدم التعرّض لنفي المثل. فإن سياق الكلام يدلّ على القصد. انتهى.

وقـال الـرضيّ[2]: اعلم أنـه قد يؤول العلم المشتهـر ببعض الخـلال بنكـرة فينصب بـ«لا» التبرئة، وينزع منه لام التعريف إن كان فيه، نحو: «لا حسنَ» في الحسن البصري، و«لا صَعِقَ» في الصَّعق[3]. أو مما أضيف إليه نحو: «لا امرأ قيس» و«لا ابنَ زبير». ولا تجوز هذه المعاملة في لفظي عبد الله وعبد الرحمن، إذ الله والرحمن لا يطلقان على غيره تعالى حتى يقدّر تنكيرهما قال:

لا هيثمَ الليلةَ للمطيّ

وقال:

أرى الحـاجـاتِ عنـد أبي خُبيـبٍ نكـدْنَ ولا أمـيـةَ في الـبـلاد

---

(١) ما بين المعقوفتين من شرح التسهيل.

(٢) شرح الكافية ١/٢٥٩-٢٦٠.

(٣) الصَّعِق: الشديد الصوت. ولقب خُويلد بن نُفيل، فارس لبني كلاب (القاموس المحيط: صعق).

ولتأويله بالمنكر وجهان: إما أن يقدر مضاف هو «مثل»، فلا يتعرف بالإضافة لتوغله في الإبهام، وإنما يجعل في صورة المنكر بنزع اللام، وإن كان المنفي في الحقيقة هو المضاف المذكور، الذي لا يتعرف بالإضافة إلى أي معرف كان، لرعاية اللفظ وإصلاحه. ومن ثمّ قال الأخفش[1] على هذا التأويل يمتنع وصفه لأنه في صورة النكرة، فيمتنع وصفه بمعرفة، وهو معرفة في الحقيقة فلا يوصف بنكرة. وإما أن يجعل العلم لاشتهاره بتلك الخلة كأنه اسم جنس موضوع لإفادة ذلك المعنى، لأن معنى «قضية ولا أبا حسن لها»: ولا فَيْصلَ لها، إذ عليّ رضى الله عنه كان فيصلا في الحكومات على ما قال النبى ﷺ (أقضاكم عليّ)[2] فصار اسمه كالجنس المفيد لمعنى الفصل والقطع، كلفظ الفيصل، وعلى هذا يمكن وصفه كالمنكر. وهذا كما قالوا: لكل فرعون موسى، أي لكل جبّار قهّار، فيصرف موسى وفرعون لتنكيرهما بالمعنى المذكور. انتهى.

١٢ ــ حديث (إن مَطْعَمَ ابْنِ آدمَ جُعِلَ مثلا للدُّنيا، وإنْ قزَّحَهُ[3] وملَّحَهُ، فانظروا إلى ما يصير).

قلت: «ما» موصولة وعائدها محذوف، لأنه جُرّ بمثل الحرف الذي جرّ الموصول به، والتقدير: إلى ما يصير إليه، ونظر به يتعدى.

١٣ ــ حديث (جاءت الرّاجفةُ تتْبعُها الرادفة).

قلت: هذه الجملة الفعلية حال من الراجفة.

وقوله: (جاءِ الموتُ بما فيه).

جملة الجار والمجرور حال من الموت، والباء للمصاحبة.

---

(١) أبو الحسن سعيد بن مسعدة، الأخفشى الأوسط، سكن البصرة وقرأ النحو على سيبويه دخل بغداد وناظر الكسائي. من مصنفاته: معاني القرآن. انظر بغية الوعاة ١/ ٥٩٠، معاني القرآن للأخفشى تحقيق د. فايز فارس حـ١/ الدراسة.

(٢) قال عبد القادر البغدادي في تخريج أحاديث شرح الكافية ورقة ١٩: (أقضاكم علي) أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر لكن بلفظ أرحم أمتى أبوبكر وأقضاهم على. وقال السخاوى في المقاصد: لم أقف على حديث «أقضاكم على» مرفوع. ويروي في المرفوع عن أنس «أقضى أمتي على». ما أورده البغوي في المصابيح وأخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة عليّ. وقال إنه صحيح ولم يخرجاه.

أقول وفي البخاري ٨/١٦٧ من فتح الباري، ومسند أحمد ٥/١١٣ قال عمر: «أقرؤ نا أُبي وأقضانا عليّ».

١٢ ــ مسند أحمد ٥/١٣٦.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ٤/٥٨: «وإن قزّحه وملّحه» أي توبله من القزح وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمّون والكُزبرة ونحو ذلك. يقال: قزّحت القدر إذا تركت فيها الأبازير.

١٣ ــ مسند أحمد ٥/١٣٦، وفي الترمذي: أبواب صفة القيامة ٤/٥٣ رقم الحديث ٢٥٧٤.

١٤ ــ وقوله (أَرأيتَ إن جَعَلْتُ صَلاتي كلّها عليك). «أرأيت» هنا بمعنى أخبرني. وقوله (إذنْ يكْفِيَكَ الله ما أهمّك مِنْ دنياك وآخرتك). «إذن» هنا للجواب والجزاء معا، وهي ناصبة للفعل لاستيفائها الشروط من التصدّر وغيره[١].

١٥ ــ حديث (مثلي في النَّبيّين كمثل رجل بنى دارا فأحْسَنها وأكْمَلَها وترك فيها مَوْضِعَ لَبِنَةٍ لم يَضَعْها، فجعل الناسُ يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تمَّ موضعُ اللبنة).

قلت: «جعل» لها معان: أحدها: الشروع في الفعل، كأنشأ وطفق، ولها اسم مرفوع وخبر منصوب، ولا يكون غالبا إلّا فعلا مضارعا مجرّدا من أنْ، وهي في هذا الحديث بهذا المعنى. قال ابن مالك[٢]: وقد يجيء جملة فعلية مصدرة بإذا كقول ابن عباس: «فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا»[٣].

الثاني: بمعنى اعتقد، فتنصب مفعولين نحو «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا»[٤].

الثالث: بمعنى صيّر، فتنصب مفعولين أيضاً، نحو: «فَجَعلْناه هباء منثورا»[٥].

الرابع: بمعنى أوجد وخلق، فتتعدى إلى مفعول واحد، نحو «وجعلَ الظُّلماتِ والنور»[٦].

الخامس: بمعنى أوجب، نحو: جعلتُ للعامل كذا.

السادس: بمعنى ألقى، كجعلتُ بعض متاعي على بعض.

١٦ ــ حديث (قال مَعْبَد: أيْ رسولَ الله، يُخْشى عليَّ مِنْ شبهه).

---

١٤ ــ عن أبي قال (قال رجل: يارسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلّها عليك. قال: إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمَّك من دنياك وآخرتك). انظر: مسند أحمد ٥/١٣٦.

(١) شروط النصب بإذن ثلاثة: الأول: أن يكون الفعل مستقبلاً، الثاني: أن تكون مصدرة. الثالث: أن لا يفصل بينها وبين الفعل بغير القسم. انظر شرح الأشموني ٤/٢٨٧ـ٢٨٨.

١٥ ــ تكملته «فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» الترمذي: المناقب ٥/٢٤٦ رقم الحديث ٣٦٩٢. مسند أحمد ٥/١٣٧.

(٢) انظر شواهد التوضيح ص٧٨.

(٣) البخاري: كتاب التفسير/ سورة الشعراء. انظر فتح الباري ٨/٥٠١.

(٤) الزخرف: ١٩.

(٥) الفرقان: ٢٣.

(٦) الأنعام: ١.

١٦ ــ حديث طويل في مسند أحمد ٥/١٣٧ـ١٣٨.

قال أبو البقاء[1]: «أيْ» بفتح الهمزة وتخفيف الياء، مقلوب «يا» وهو حرف نداء.

١٧ ــ حديث شرح الصدور.

قال أبو البقاء[2]: قوله (فرجعتُ بها أغدو بها رقّةً على الصغير ورحمةً للكبير) تقديره ذا رقة وذا رحمة. وهو منصوب على أنه خبر أغدو، وهي من أخوات كان، فحذف المضاف ونصب المضاف إليه.

قلت: ويجوز أن يكون النصب على الحال.

١٨ ــ حديث (إذا كان يومُ القيامة كنتُ إمام النبيّين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر).

قلت: «كان» في أول الحديث تامة بمعنى وجد. و«يومُ القيامة» بالرفع فاعلها. و«كان» الثانية ناقصة. والتاء اسمها. و«إمام» خبرها وقوله «غير فخر» منصوب على الحال.

قال التوربشتي: «إمام النبيين» بكسر الهمزة. والذي يفتحها وينصبه على الظرف لم يصب.

وقال الرافعي في تاريخ قزوين[3]: قوله «وصاحب شفاعتهم» يجوز أن يقال معناه: وصاحب الشفاعة العامة بينهم. ويجوز أن يريد وصاحب الشفاعة لهم.

١٩ ــ حديث (يوشك الفراتُ أن يَحْسرَ عنْ جبل من ذهب).

قال ابن مالك: اقتران خبر «أوشك» بأنْ أكثر من تجريده منها، بعكس كاد، كقوله:

ولو سُئِلَ الناسُ الترابَ لأوشكوا   إذا قيل هاتوا أن يَملُّوا ويَمْنَعُوا[4]

---

(١) إعراب الحديث: رقم ١١.

١٧ ــ حديث طويل عن أبي، انظر مسند أحمد ٥/١٣٩.

(٢) إعراب الحديث: رقم ١٢.

١٨ ــ مسند أحمد ٥/١٣٧، ١٣٨. وفي الترمذي: المناقب ٥/٢٤٧ برقم ٣٦٩٢ وفي ابن ماجة برقم ٤٣١٤.

(٣) التدوين في أخبار قزوين للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني المتوفي سنة ٦٢٣هـ. انظر كشف الظنون ١/٣٨٢-٣٨٣.

١٩ ــ مسند أحمد ٥/١٣٩، ١٤٠. وفي البخاري: كتاب الفتن ١٣/٧٨ من فتح الباري. وفي مسلم بشرح النووي: كتاب الفتن ١٨/١٩.

(٤) استشهد به ابن مالك في شرح عمدة الحافظ ص٨١٧. وهو من شواهد الأشموني ١/٢٦١ وأوضح المسالك ١/٣١١ وهمع الهوامع ٢/١٤٠.

ومثال التجريد قوله:

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ   في بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوافِقُها[1]

قال: واختص كاد وأوشك باستعمال مضارعهما. وسائر أفعال المقاربة لزمت لفظ الماضي[2].

قلت: ففي الحديث شاهد للأمرين معاً.

٢٠ ــ حديث (صلّى بنا رسول الله ﷺ الصُّبح فقال: شاهدٌ فلان؟ فقالوا: لا).

قال أبو البقاء[3]: يريد الهمزة فحذفها للعلم بها. وهو مرفوع بأنه خبر مقدّم. و«فلان» مبتدأ، ويجوز أن يكون «شاهد» مبتدأ لأن همزة الاستفهام فيه مرادة. ولو ظهرت لكان مبتدأ البتة، و«فلان» فاعل يسدّ مسدّ الخبر. انتهى.

قلت: الحديث أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه بلفظ «أشاهد» بإثبات الهمزة فعرف أن إسقاطها من تصرُّف الرواة.

وقوله (صلّى بنا).

قال الطّيبي[4]: أي أمَّنا. والباء إما للتعدية أى جعلنا مصلين خلفه، أو للحال أي صلى ملتبساً بنا.

وقوله (ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبْوا).

يحتمل أن يكون من باب حذف كان واسمها بعد لو وهو كثير، والتقدير: ولو كان الإتيان حبواً. ذكره الطّيبي قال: ويجوز أن يكون التقدير: ولو أتوهما حابين، تسمية بالمصدر مبالغة.

قوله (وإنّ الصف الأول على مثل صفّ الملائكة).

قال الطيبي[5]: قوله «على مثْل» خبر إنّ، والمتعلق كائن.

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. وقد استشهد به ابن مالك في شرح الكافية ١/٤٥٦ وفي شواهد التوضيح ص١٤٤ وهو من شواهد سيبويه ٣/١٦١ والأشموني ١/٢٦٢ وهمع الهوامع ٢/١٣٥.

(٢) شرح عمدة الحافظ ص٨٢٣.

٢٠ ــ مسند أحمد ٥/١٤٠، ١٤١. أبو داود: فضل صلاة الجماعة رقم ٥٢٢.

(٣) إعراب الحديث: رقم ١٣.

(٤) شرح مشكاة المصابيح مخطوط في المكتبة المحمودية برقم ٦١٣ جـ٢ ورقة ٣.

(٥) شرح مشكاة المصابيح حـ٢ ورقة ٣.

٢١ ـ حديث الصدقـــة .

قولـه (فلما جمع إليّ مالـه لم أجـد عليـه فيه إلّا ابنة مخاض ، فأخبرته أنها صدقته فقال : ذاك ما لا لَبَنَ فيه ولا ظَهْر) .

قلت : الإشـارة بذاك وهـو صيغـة المـذكـر إلى ابنة مخاض وهي مؤنـث . وكذا ضمير «فيه» عائد إليه . لأنه قد ينزل المؤنث منزلة المذكر على إرادة معنى الشخص .

وقوله (وقد عرضتُ عليه ناقةً فتيةً سمينةً ليأخذها ، فأبى وردّها عليّ ، وها هي ذه قد جئتُك بها) .

قال ابن مالـك في شرح التسهيـل[1] : تفصـل هاء التنبيه من اسم الإشارة المجرد بأنا وأخـواتـه كثيـراً كقـولك : ها أنا ذا ، وها نحن أولاء إلى ها هن أولاء . ومنه قول السائل عن وقت الصلاة «ها أنا ذا يارسول الله»[2] وقوله تعالى ﴿**ها أنْتُم أُولاء تُحِبّونهُم**﴾[3] . انتهى .

وفي حديث جابر في الذي اخترط سيفه (فقال رسول الله ﷺ : فقال لي : مَنْ يمنَعُك منّي؟ قلت : الله . فها هوذا جالساً)[4] . وفي حديث جُليبيب «فقال : يارسول الله ها هوذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه»[5] .

وقـال الأنـدلسي في شرح المفصل : وأما قولهم «ها أنا» ونحوه ، فـ«ها» عند سيبويه[6] داخلة على الأسماء المضمرة . وعند الخليل[7] مع الأسماء المبهمة في التقدير ، على أنهم أرادوا أن يقولوا «هذا أنا» فجعلوا أنا بين ها وذا .

وقـال السـيرافي[8] : «هـا» في هذه الحـروف للتنبيه ، والأسماء بعدها مبتدآت ، والخبر أسـماء الإشـارة ذا ونحـوه . وإن شئت جعلت أنت ونحـوه الخبر والإشارة هي الاسم . قال :

---

٢١ ـ الحديث عن أبي ، وفيه قال (بعثني رسول الله ﷺ مصدقاً على بلى وعذرة وجميع بني سعد . . .) . مسند أحمد ١٤٢/٥ . أبو داود : زكاة السائمة برقم ١٥٢١ .

(١) شرح التسهيل لابن مالك ٢٧٥/١ .

(٢) في البخاري السائل عن الساعة قال «ها أنا يارسول الله» فتح الباري ١٤٢/١ وفي مسلم بشرح النووي ١١٥/٤ عن بريدة أن السائل عن وقت الصلاة قال «أنا يارسول الله» .

(٣) آل عمران : ١١٩ .

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد وكتاب المغازي عن جابر برواية «فها هوذا جالس» انظر فتح الباري ٩٧/٦ ، ٤٢٦/٧ .

(٥) مسند أحمد ٤٢٢/٤ .

(٦) كتاب سيبويه ٣٥٣/٢ .

(٧) كتاب سيبويه ٣٥٤/٢ .

(٨) كتاب سيبويه ٣٥٣/٢ الحاشية . والسيرافي هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان نسب إلى سيراف مدينة بفارس ، كان إماماً في النحو والفقه واللغة والشعر أخذ النحو عن ابن السراج . شرح كتاب سيبويه شرحاً لم يسبق إلى مثله ، توفي سنة ٣٦٨هـ . انظر : بغية الوعاة ٥٠٧/١ .

وإنما يقول القائل: «ها أنا ذا» إذا طُلب رجلٌ لم يُدْر أحاضر هو أم غائب، فيقول المطلوب: ها أنا ذا، أي الحاضر عندك.

قال ابن الأنباري[1]: إنما يجعلون المكنىّ بين «ها» و«ذا» إذا أرادوا القريب في الاخبار، فمعنى ها أنا ذا ألقى فلاناً: قد قرب لقائى إياه. قال: وقول العامة «هوذا لقي فلاناً» خطأ عند جميع العلماء، لأن العرب إذا أرادت هذا المعنى قالوا: ها هوذا يلقى فلاناً، وها أنا ذا ألقى فلاناً. وأنشد قول أمية:

لبيكُما لبيكما ها أنا ذا لديكُما[2]

وقال في موضع آخر: قولك «ها أنا ذا» إنما يقع جواباً لمن طلب إنساناً شك في أنه حاضر أم غائب، فتقول مجيباً له: «ها أنا ذا»، ولا تقول مبتدئا «ها أنا» فتعرف بنفسك، لأنك إذا أشرت إلى نفسك بـ«ذا» فالإخبار بـ«أنا» بعده لا فائدة فيه. انتهى

قوله (فإن تطوّعت بخير).

هو على الأصل. وجاء قوله تعالى ﴿ومن تطوّع خيراً﴾[3] بالنصب على إسقاط الخافض.

مراجع هذه الحلقة

١ ـ الأصول في النحو ـ لأبى بكر بن السراج، تحقيق د. عبدالحسين الفتلى، الطبعة الأولى، مطبعة النجف ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٢ ـ إعراب الحديث النبوي: العكبري، تحقيق د. حسن موسى الشاعر، الطبعة الأولى - عمان.

٣ ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ابن هشام الأنصاري، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين، الطبعة الخامسة ـ دار الجيل ـ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

---

(١) أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، كان من أعلم الناس بالنحو واللغة والأدب. له مصنفات كثيرة منها: المذكر والمؤنث، الزاهر، شرح القصائد السبع الطوال، ايضاح الوقف والابتداء. توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ. انظر بغية الوعاة ١/٢١٢.

(٢) كلام ابن الأنباري هنا مذكور في كتابه الزاهر ٢/٢٧٨-٢٧٩ والبيت لأمية بن أبي الصلت. وانظر المذكر والمؤنث لابن الأنباري ٧٣٨-٧٣٩.

(٣) البقرة: ١٥٨.

٤ ــ الايضاح: الخطيب القزويني، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي.
٥ ــ البحر المحيط: أبو حيان، مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.
٦ ــ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: المرحوم عبد الفتاح القاضي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٧ ــ بغية الوعاة: السيوطي: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى الحلبي الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
٨ ــ تاج العروس ــ الزبيدي.
٩ ــ تخريج أحاديث شرح الكافية: عبد القادر البغدادي، مخطوطة مصورة بالجامعة الإسلامية برقم ٢٦٦ عن شهيد علي.
١٠ ــ تذكرة الحفاظ: الذهبي، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، نشر دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.
١١ ــ التصريح على التوضيح: الشيخ خالد الأزهري. دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي.
١٢ ــ تهذيب التهذيب: ابن حجر ـ دار صادر عن الطبعة الأولى بحيدر آباد الدكن.
١٣ ــ حاشية الأمير على مغني اللبيب.
١٤ ــ حسن المحاضرة: السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
١٥ ــ خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون.
١٦ ــ ديوان النابغة الذبياني، تحقيق د. شكري فيصل.
١٧ ــ الزاهر: أبو بكر بن الأنباري، تحقيق د. حاتم الضامن ـ بغداد ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
١٨ ــ سنن أبي داود ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ومختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري وعليه معالم السنن للخطابي، تحقيق أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي.
١٩ ــ سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى الحلبي.
٢٠ ــ سنن الترمذي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ مطبعة الفجالة الجديدة.
٢١ ــ السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وجماعة، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.
٢٢ ــ شذور الذهب: ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
٢٣ ــ شرح أبيات سيبويه: ابن السيرافي، تحقيق د. محمد علي سلطاني ـ دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٧٩م.
٢٤ ــ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ومعه حاشية الصبان، دار إحياء الكتب العربية.
٢٥ ــ شرح التسهيل: ابن مالك، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٠ ش نحو. ومنه مصورة بالجامعة الإسلامية برقم ١٤١١.
٢٦ ــ شرح التسهيل: ابن مالك، الجزء الأول، تحقيق د. عبد الرحمن السيد، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م القاهرة.

٢٧ ــ شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ: ابن مالك، تحقيق عدنان الدوري، بغداد ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٢٨ ــ شرح الكافية: الرضي. دارا لكتب العلمية ـ بيروت.
٢٩ ــ شرح الكافية الشافية: ابن مالك، تحقيق د. عبد المنعم هريدي ـ منشورات جامعة أم القرى.
٣٠ ــ شرح مشكاة المصابيح: الطيبي، مخطوط بالمكتبة المحمودية في المدينة المنورة، الجزء الأول برقم ٥٤٨ والثاني برقم ٦١٣ والرابع برقم ٩٤٥.
٣١ ــ شرح المفصّل: ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية.
٣٢ ــ شواهد التوضيح والتصحيح: ابن مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٣ ــ شواهد العينى على شرح الأشموني.
٣٤ ــ صحيح البخاري بشرح الكرماني، الطبعة الأولى ١٩٣٣ـ١٩٣٨م.
٣٥ ــ صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار إحياء التراث العربي.
٣٦ ــ طبقات الشافعية: السبكي، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ـ الطبعة الأولى.
٣٧ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ابن حجر ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٣٨ ــ الفوائد في مشكل القرآن: العز بن عبد السلام، تحقيق د. رضوان الندوي.
٣٩ ــ القاموس المحيط: الفيروز آبادي.
٤٠ ــ القراءات الشاذة: المرحوم عبد الفتاح القاضي.
٤١ ــ الكتاب: سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٤٢ ــ كشف الظنون: حاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى ــ بيروت.
٤٣ ــ مجمع الأمثال: الميداني، تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد.
٤٤ ــ المذكر والمؤنث: ابن الأنباري، تحقيق د. طارق الجنابي، بغداد الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
٤٥ ــ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن سلطان القاري.
٤٦ ــ مسند الإمام أحمد بن حنبل. وبهامشه منتخب كنز العمال، بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
٤٧ ــ معاني القرآن: الأخفشى، تحقيق د. فايز فارس، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٤٨ ــ مغني اللبيب: ابن هشام، تحقيق د. مازن المبارك وزميله، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.
٤٩ ــ النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي وزميله، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.
٥٠ ــ همع الهوامع: السيوطى، تحقيق د. عبد العالم سالم، دار البحوث العلمية ـ الكويت.



أختى العزيزة: «هــــل»

لقــد وعــدتــك من قبــلُ أن أحدثك فى هذه الرسالة الرابعة عشرة عن همزة الاستفهام الـداخلة على «إذا» الشـرطيـة ، وهـا أنـا ذى منجزة ما وعدتك ، لقد وردت هذه الهمزة فى ثلاث عشرة آية من آيات القرآن الكريم:

الآيــة الأولى: فى قولـه تعـالى: ﴿ويقـولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين(٤٨) قل لا أملك لنفسى ضَراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعـة ولا يستقـدمـون(٤٩) قل أرأيتم إن أتـاكم عذابـه بيـاتـا أو نهارا ماذا يستعجـل منـه المجـرمـون(٥٠) أثمّ إذا ماوقـع آمنتم به الآن وقـد كنتم به تستعجلون(٥١) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون(٥٢)﴾.

الآيات: (٤٨-٥٢) من سورة يونس.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن المشركين من قريش كانوا يقولون للرسول ﷺ: متى هذا الـوعـد وعـد العذاب الذى تعدنا به؟! إن كنت صادقا أنت وأتباعك فيما تعدوننا به من هذ العذاب فليأتنا على عجل.

كانوا يقولون ذلك إنكاراً واستخفافاً وسخرية.

وتتضمن أيضـا أن الله سبحـانـه وتعـالى أمـر رسـولـه ﷺ أن يقول لهم: أنا لا أملك لنفسي ضرّا ولا نفعـا إلا ما شاء الله، والأمـر كله بيـد الله، وقد جعل الله جلّ وعلا لكل أمة موعدا لا يعلمه إلا هو، فإذا حان حينه جاء فى وقته المحدّد له دون أن يتأخر أو يتقدم.

وأمـره أيضـا أن يقـول لهم: أيّ شيىء تستعجلون من عذاب الله إن أتـاكم فى ليل أو نهار؟! ليس شيىء من العذاب يُستعجل، فالعذاب كله على اختلاف ألوانه وتعدّد ضروبه مرّ المذاق.

ثم أنتم قوم مجرمـون فينبغى لكم أن تنفـروا من العـذاب وأن تَفْـرقـوا لمجيئه، فكيف تطلبونه على عجل؟! ياهَول ما تطلبون!! ويا لشقائكم بها تستعجلون!!.

وتتضمن أيضا: سوف يقال لهم إذا وقع عذاب الله بهم فآمنوا به على حين لا ينفعهم إيـمان، سوف يقـال لهم توبيخـا وتقـريعـا: آلآن تؤ منـو ن بالعـذاب وقـد كنتم من قبل هذا تستعجلونه مكذبين مستهزئين؟!! فذوقوا ما كنتم به تكذّبون.

وقد جاء هذا الاستفهام: (أثمّ إذا ما وقع آمنتم به) جاء مفيدا الإنكار والتوبيخ(١): إنكـار الإيـمان منهم وقت وقـوع العـذاب بهم حين لا ينفعهم إيـمان، وتوبيخهم على تأخير الإيمان إلى زمن رؤ ية العذاب واقعابهم حين لا يقبل الإيمان.

وإعراب هذا الاستفهام: (أثم إذا ما وقع آمنتم به):

(ثم) حرف عطف كالفـاء والـواو العـاطفتـين اللتين تقعان بعد همزة الاستفهام، وقد عطفت الجملة الشرطية التى بعدها على ما قبل الهمزة.

و(إذا) شرطيـة غير جازمـة فى محل نصب على الظـرفيـة، والعـامـل فيها فعل الشرط بعدها، وجملة الشرط: (وقع وفاعلها المستتر) لا محل لها من الإعراب. و(ما) الواقعة بعد إذا زائدة للتوكيد. و(آمن) هو جواب إذا، وجملة الجواب (آمنت به) لا محل لها من الإعراب.

وهـذا الـذى تقـدم من أن العـامـل فى إذا الشـرطيـة هوشرطهـا لا جوابها هومذهب المحققـين من النحـاة على ما ذكـره ابن هشـام فى كتـابه مغنى اللبيب(٢). وقال الرضى فى شرح الكافية: «وبه قال الأكثرون»(٣).

ولا يعترض عليهم بأن (إذا) مضافة إلى شرطها والمضاف إليه لا يعمل فى المضاف، لأن (إذا) عند هؤلاء غير مضافة.

وهناك رأي لبعض النحاة يقول إن (إذا) مضافة إلى جملة الشرط بعدها، وإن العامل فيها هو جوابها.

الآيــة الثـانيــة: فى قولـه تعـالى: ﴿الله الـذى رفـع السموات بغير عمد ترونها ثم استـوى على العـرش وسخّـر الشمس والقمـر كل يجرى لأجـل مسمّى يدبـر الأمـر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون(٢) وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمـرات جعـل فيهـا زوجـين اثنـين يغشى الليـل النهـار إن فى ذلـك لآيـات لقـوم يتفكـرون(٣) وفى الأرض قطـع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير

صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(٤) وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا أإنّا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(٥)﴾.

الآيات: (٢-٥) من سورة الرعد.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله عز وجل قد أبدع خلائق عظيمة: فسموات مرفوعة بغير عمد، وشمس وقمر مُسَخّران بأمره، وأرض مدّها وجعل فيها رواسى وأنهارا وزوجين اثنين من كل ثمر، ونهار يغشاه ليل وليل يعقبه نهار، وقطع من الأرض متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل تسقى بماء واحد، ولكن قدرة الله عز وجلّ جعلت بعضها أفضل من بعض مذاقا ومطعما.

لقد كان فى هذه الخلائق العظيمة التي أبدعها الله عز وجل آيات لمن كان له قلب يفقه ويتدبّر، وعقل يذّكر ويفكّر، وحسّ سليم يرى ويتذوّق ويعتبر.

لقد كان فى هذه الخلائق العظيمة دلالات واضحة جلية على أن الذى اخترعها وأبدعها من العدم المحض قادر على أن يعيد الحياة إلى الناس جميعا بعد الممات.

فكان عجيبا كل العجب إنكار أناس أن يكون هناك حياة أخرى، وتكذيبهم أن يبعثوا بعد موتهم خلقا جديدا، مع أنهم يرون ويحسّون هذه الخلائق العظيمة الدالة على أن الله الذى خلقها قادر على كل شيىء، ولكن من يكون أولئك الذين ينكرون البعث بعد موت؟! وماذا كان جزاؤ هم عند الله جل جلاله؟!.

أولئك الذين كفروا بربهم!! وأيّ كفر أشنع من أن يكفر الإنسان بربه الذي هو خالقه ومولاه؟!.

أولئك الذين أذلهم الله فجعل فى أعناقهم الأغلال أغلال الهوان والصغار والاحتقار، أولئك أصحاب النار ليس لهم منها مفرّ، هم فيها خالدون لا يموتون ولا يخرجون.

وقد جاء هذا الاستفهام: (أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد) جاء مفيدا الإنكار والتكذيب والاستهزاء والاستبعاد والتعجب(٤)، مفيدا إنكار المشركين لأن يخلقوا مرة ثانية بعد الموت، وتكذيبهم بأن يبعثوا من قبورهم بعد أن صاروا ترابا فى جوف الأرض، لقد سخروا من ذلك واستبعدوه وعجبوا أن يكون.

وإعراب هذا الاستفهام: (أإذا كنا ترابا أإنا لفى **خلق** جديد) سهل واضح:

فإذا شرطية غير جازمة، وهي فى محل نصب على الظرفية، والعامل فيها شرطها على

نحوما مرّ فى الآية السابقة، وجوابها محذوف دل عليه أإنا لفى خلق جديد تقديره أنخلق خلقا جديداً، والهمزة الثانية مؤكدة للهمزة الأولى.

وذهب أبـو حيـان فى تفسـيره البحـر المحيط(٥) إلى أن (إذا) هنا متمحضة للظرفية، وتابعه على ذلك السمين فى حاشية الفتوحات الإلهية(٦)، وهذا الذى قالاه يحتمل ولا يتحتّم.

على أن أبا حيان نفسه قال فى استفهام الآية القادمة(٧) وهو: (أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنـا لمبعثـون خلقـا جديـدا) قال إن إذا شرطيـة، وقـال السمين(٨) يجوز أن تكون شرطية، وأسلوب الاستفهام فى هذه الآية وفى الآية القادمة جاء على نسق واحد، فالقول بشرطية إذا فى أحد الاستفهامين ينطبق على الاستفهام الثانى.

الآيـة الثـالثـة فى قوله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا(٤٨) وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا(٤٩) قل كونوا حجارة أو حديـدا(٥٠) أو خلقـا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا(٥١)﴾.

الآيات: (٤٨-٥١) من سورة الإسراء.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن مشركى قريش كانوا يشبهون الرسول ﷺ تشبيهات كثيرة، ويضربون له الأمثال المختلفة، فتارة يقولون هو شاعر، وتارة يقولون هو مجنون، وتارة يقولون هو مسحور. . . ولكنهم جميعا بهذه الأمثال التى ضربوها قد جاروا عن قصد السبيل ولم يسلكوا سبيل الهدى والإيمان.

وتتضمن أيضـا أنهم كانـوا يقـولـون منكـرين مستهـزئـين: أإذا كنـا عظاما وترابا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا؟!! إن هذا لن يكون، ولكن محمدا يدعيه ويقوله.

ومما تضمنته هذه الآيات أيضا أن الله جل جلاله قال لرسوله ﷺ قل لهم: لو صارت عظـامكم ورفـاتكم شيئـا آخـر أبعـد عن الحيـاة من العظـام والتراب، لو صارت حجارة أو حديدا، لو صارت خلقا آخر غيرهما مما يكبر ويعظم فى صدوركم وتظنون أنه أبعد عن قبول الحياة، فلابد لكم من البعث مهما صرتم.

سيقـول لك هؤلاء المنكـرون: من ذا الـذى يقدر على إعادة الحياة إلينا؟! قل لهم: الذى فطركم وأنشأكم من العدم الصرف هو الذى يعيدها إليكم، فالقادر على الابتداء قادر على الإعادة.

وحين يسمع المشركون قولك هذا سيحركون رءوسهم حركة من يسمع الشيىء فينكره ويكذبه ويستبعده ويعجب منه، وسيقولون مستهزئين متى هذا العود والإحياء؟!!.

قل لهم عسى أن يكون قريبا.

وقد أفاد هذا الاستفهام: (أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا) أفاد الإنكار والاستهزاء والتكذيب والاستبعاد والتعجب(٩).

ينكر هؤلاء المشركون ويكذبون أن يبعثوا من قبورهم خلقا جديدا إذا ماتوا وصاروا عظاما وترابا، ويهزءون بهذا البعث ويستبعدونه ويعجبون أن يكون.

وقد سبق إعراب مثل هذا الاستفهام، ولا حاجة إلى الإعادة والتكرار، وكلمة (خلقا) الواردة فى هذا الاستفهام يجوز أن تكون مصدرا منصوبا على المفعولية المطلقة والعامل فيه مبعوثون لأنه يلاقيه فى المعنى وإن اختلف عنه فى اللفظ، ويجوز أن يكون (خلقا) بمعنى مخلوقين فهو منصوب على الحالية.

الآية الرابعة: فى قوله تعالى: ﴿**ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوهم عميا وبكما وصمّا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا(٩٧) ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا(٩٨) أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا(٩٩)**﴾.

الآيات: (٩٧-٩٩) من سورة الإسراء.

تتضمن هذه الآيات الكريمة:

مَن يهده الله تعالى فهو المهتدى، ومَن يضلهم الله تعالى فهم الضالون الذين لا يجدون من دونه أنصاراً يحمونهم من عقابه وعذابه.

وسوف يحشر الله تعالى هؤلاء الضالين يُسحبون على وجوههم إذلالاً وهوانا، عُمياً يسيرون على غير هدى ولا يرون طريقا ولا غير طريق مما قد يُسرِّى ويسرّ، بُكماً لا ينطقون بما ينفعهم أو يكون لهم حجة، صُمًّا لا يسمعون شيئا يخفّف عنهم ماهم فيه من خوف وقلق وذهول ورعب وفزع.

ولكن إلى أين يحشرون؟! إلى جهنم، فهى مأواهم، وهم وقودها، كلما أحرقتهم فخبت بدّلوا خلقا جديدا فازدادت لهبا وسعيرا ليذوقوا عذابا أشدّ وحسرة أوجع.

تلك الحال المهينة المذلة التى حشرهم الله عليها، وجهنم هذه التى كانت هي

المأوى، وهذا العذاب الدائم الذى يعذبونه، ذلك كله كان جزاء كفرهم بآيات الله، وجزاء كفرهم بقدرته عزّ وجلّ على إحيائهم مرة ثانية بعد أن يصيروا فى قبورهم عظاما وترابا، فقد أنكروا قدرة الله تعالى على بعثهم، وعميت قلوبهم فلم تدرك أن الله الذى خلق السموات وما فيها والأرض ومن عليها قادر على أن يعيدهم كما خلقهم أول مرة.

لقد جعل الله تعالى لبعث هؤلاء المنكرين المكذبين أجلا مقدّرا وموعدا محدّدا لا ريب فيه ولا يعلمه إلا الله، ولكن هؤلاء الظالمين الذين حادوا عن طريق الحق والإيمان بالبعث أبوا مع ظهور الأدلة وقيام الحجج إلا جحودا لهذا البعث وكفراً بآيات الله.

وقد أفاد هذا الاستفهام الذى قاله المشركون: ﴿أإذا كنّا عظاما ورفاتا أإنا لفى خلق جديد﴾ أفاد الإنكار والتكذيب والاستبعاد والسخرية والتعجب، لقد أنكروا أن يبعثوا بعد موت، وكذبوا به تكذيبا، ولقد استبعدوه ساخرين متعجبين من أن يكون.

وقد مضى إعراب مثل هذا الاستفهام فى الآية الخامسة من سورة الرعد وهى الآية الثانية من آيات استفهام (أءذا) فى هذه الرسالة.

الآية الخامسة: فى قوله تعالى: **﴿ويقول الإنسان أَءذا ما مِتّ لسوف أُخرج حّيا(٦٦) أَوَلا يذكر أنّا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً(٦٧) فو ربّك لنحشرنّهم والشياطين ثم لنُحضرنّهم حول جهنم جُثيّا(٦٨) ثم لننزعنّ من كل شيعة أيّهم أشدّ على الرحمن عِتيّا(٦٩) ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِليّاَ(٧٠)﴾** الآيات: (٦٦-٧٠) من سورة مريم.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الإنسان الكافر ينكر أن يبعث حيّا من قبره بعد أن يموت.

وتتضمن أيضا توبيخ هذا الإنسان المنكر على عزوب التعقل والتدبر عنه، فهو لو تذكر وتفكر لأدرك أن الله الذي خلقه أول مرة من العدم المحض هينّ عليه أن يعيد خلقه بعد أن يصير ترابا.

وتتضمن أيضا مصير هؤلاء الناس المنكرين للبعث، فالله جل جلاله سوف يحشرهم يوم القيامة مع الشياطين أذلة جاثين على ركبهم حول جهنم، ثم ينزع من كل شيعة أيهم أشد عتوّا وتمّردا وتجبّرا فيقذفون فى النار، ثم يتبعهم أتباعهم من بعد.

وقد جاء هذا الاستفهام: (ويقول الإنسان أءذا ما مِتّ لسوف أُخرج حيّا) جاء مفيدا الإنكار والاستبعاد والتعجب، فقد أنكر الكافرون من الناس أن يبعثوا من قبورهم أحياء بعد أن يموتوا فى هذه الدنيا، ورأوا ذلك بعيدا لا يمكن وعجيبا أن يكون.

وقد كان إنكارهم هذا بعيدا عن التعقل والتبصر، فالذى خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئا هينّ عليه أن يعيد خلقهم بعد أن صاروا عظاما ورفاتا، فليس فى هذه الإعادة ما يدعو إلى استبعاد أو يثير شيئا من التعجب لو كانوا يعقلون.

و(إذا) فى هذا الاستفهام شرطية. و(ما) زائدة لتأكيد مضمون الجملة التى بعدها، وجواب إذا محذوف تقديره أخرج وقد دلّ عليه (لسوف أخرج حيا).

الآية السادسة: فى قوله تعالى: ﴿**وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون(٧٨) وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون(٧٩) وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون(٨٠) بل قالوا مثل ما قال الأولون(٨١) قالوا أإذا متنا وكنّا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون(٨٢) لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبلُ إنْ هذا إلا أساطير الأولين(٨٣) قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون(٨٤) سيقولون لله قل أفلا تذكّرون(٨٥) قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم(٨٦) سيقولون لله قل أفلا تتقون(٨٧) قل من بيده ملكوت كل شيىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون(٨٨) سيقولون لله قل فأنى تسحرون(٨٩)**﴾.

الآيات: (٧٨-٨٩) من سورة المؤمنون.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لكم أيها الناس السمع الذي به تسمعون، والأبصار التى بها تبصرون، والأفئدة التى بها تفقهون، وهذه من أعظم النعم التى أنعمها الله عليكم، فكان ينبغى لكم أن تشكروا الله على هذه النعم العظيمة، ومن الشكر أن تنتفعوا بها فيما خلقت له، ومما خلقت له أن تسمعوا بها آيات الله التى تسمع، وأن تبصروا بها آيات الله التى تبصر، وأن تتفكروا وتتدبروا هذه الآيات جميعا فتدركوا أن الذى أنشأها من العدم قادر على أن يخلقها مرة ثانية بعد الموت، ولكنكم أيها الناس قليلا ما تشكرون الله الذى خلقها لكم وأنعم بها عليكم، قليلا ما تشكرونه شكرا يرضى عنه فى هذه الدنيا، وينفعكم عنده يوم يقوم الحساب.

وتتضمن أيضا أن الله قد أنعم عليكم بنعمة الحياة فى هذه الدنيا فخلقكم فيها وبثكم من فوق الأرض، ولكنها نعمة لا تدوم، فسوف يميتكم بعد هذا ثم إليه وحده تحشرون فيجازيكم بما كنتم تعملون.

كان ينبغى لكم أيها الكافرون أن تتفكروا وتتدبروا أن الذى يحيى ويميت ويخلق الليل والنهار خلفة قادر على أن يخلقكم مرة ثانية، ولكنم أناس لا تعقلون ولا تبصرون فقلتم مثل

ما قال أسلافكم الأولون الذين كذبوا بالرسل، أنكرتم البعث مثل ما أنكروا، وقلتم هيهات هيهات أن نبعث من قبورنا وقد صرنا ترابا وعظاما، ثم قلتم إن هذا الوعد الذى تعدنا به يامحمد قد وعده آباءنا أناس من قبلك ذكروا أنهم رسل الله كما تذكر أنت إنك لرسوله، ولكن آباءنا ظلوا فى قبورهم لم يبعثوا منها، فكيف نصدق ما تقول؟! إنْ نرى ما تقول يامحمد وما قيل لآبائنا من قبلك إلا أكاذيب سطرها الأولون.

وتتضمن أيضا اعتراف هؤلاء المنكرين للبعث من قريش بأن الأرض ومن فيها ملك لله، وأن الله هو رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأن الله هو الذى يملك كل شيىء ينجى من يشاء ويعذب من يشاء.

كان إقرارهم هذا بعظيم سلطانه تعالى وقدرته يقتضى - لو كان عندهم مُسكه من عقل ولَمحة من تدبر - أن يؤمنوا بأن الله قادر على إحيائهم بعد الممات. ولكنهم قوم قد عزب عنهم التذكر والتدبر، وغاب عنهم التفكير السليم والإدراك المستقيم، كانوا قوما كأنما أصابهم سحر وغشيهم خبال.

وقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾ جاء مفيدا الإنكار والتكذيب والسخرية والاستبعاد والتعجب: فقد أنكر المشركون من قريش أن يبعثوا من قبورهم أحياء بعد أن يصيروا ترابا وعظاما، وكذّبوا به وسخروا منه، ورأوا ذلك بعيدا عن الإمكان عجيبا أن يكون.

و(إذا) شرطية فى محل نصب على الظرفية والعامل فيها شرطها، وجوابها محذوف دلّ عليه (أإنا لمبعوثون) وتقديره نبعث.

الآية السابعة: فى قوله تعالى: **﴿وقال الذين كفروا أإذا كنّا ترابا وآباؤنا أإنّا لمخرجون(٦٧) لقد وعدنا هذا وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين(٦٨) قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين(٦٩)﴾**. الآيات: (٦٧-٦٩) من سورة النمل.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الذين كفروا بربهم أنكروا أن يُخرجوا هم وآباؤ هم من قبورهم أحياء بعد أن يموتوا ويصبحوا ترابا، وقالوا لقد وُعِدنا هذا، ومن قبل محمد وَعَد آباءنا ذلك واعدون، فلم نر لذلك حقيقة ولم نتبيّن له صحة، فما هذا الوعد إلا أكاذيب سطّرها الأولون فى الكتب وتحدثوا بها جيلا بعد جيل.

فردّ الله سبحانه وتعالى عليهم فقال لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين سيروا فى الأرض فانظروا إلى ديار من كذبوا رسل الله قبلكم كيف صاروا وكيف صارت مساكنهم،

لقد دمرهم الله بتكذيبهم الرسل ودمّر ديارهم، فإن لم تنيبوا إلى الله وتؤمنوا بما جئتكم به كانت عاقبة أمركم خسرا كعاقبة المجرمين من قبل.

ولقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإذا كنا ترابا وآباؤ نا أإنا لمخرجون﴾ للإنكار والتكذيب والاستهزاء والاستبعاد والتعجب: لقد أنكروا أن يبعثوا وكذّبوا الرسل الذين جاءوهم بذلك، واستبعدوا ساخرين متعجبين من أن يكون هذا البعث.

و(إذا) فى هذا الاستفهام شرطية فى محل نصب على الظرفية والعامل فيها شرطها، وجملة الشرط (كنا ترابا) لا محل لها من الإعراب، وآباؤ نا عطف على اسم كان وهو الضمير المتصل البارز (نا)، وهمزة الاستفهام الثانية تأكيد للهمزة الأولى وجملة (أإنا لمخرجون) لا محل لها من الإعراب قائمة مقام جواب إذا ودالة عليه وتقديره نخرج، وجملة (أإذا كنا ترابا وآباؤ نا أإنا لمخرجون) فى محل نصب مفعول به لقالوا.

الآية الثامنة: فى قوله تعالى: ﴿**وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون(١٠) قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون(١١) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوارءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون(١٢)**﴾. الآيات: (١٠-١٢) من سورة السجدة.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن المكذبين بالبعث كانوا يقولون أإذا متنا وصرنا ترابا من تراب الأرض أفنعود خلقا جديدا كما كنا من قبل فى حياتنا الدنيا؟! إن هذا لن يكون!!.

بل كانوا يذهبون إلى أبعد من هذا وأشنع، كانوا يكذبون بلقاء ربهم من بعد المات ليجازيهم بما كانوا يعملون.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يقول لهؤلاء المكذبين إنّ الله هو الذى خلق الموت والحياة وإنه هو الذى يحيى ويميت، وقد وكل أمر موتهم إلى ملك من ملائكته هو ملك الموت، فهو الذى يتوفاهم بأمره تعالى، ثم يبعثهم الله جلّ وعلا أحياء يوم القيامة فيرجعون إليه ليجازي المحسن على إحسانه والمسيىء على إساءته.

ولو ترى يامحمد أولئك الذين أجرموا وأنكروا البعث وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد، لو تراهم يامحمد يوم القيامة لرأيت أمراً عجبا، كانوا على أسوأ حال، قد طأطأوا رءوسهم عند ربهم من الخزى والذل والغم والندم والحسرة، يقولون: ربنا أبصرنا اليوم ماكنّا نكذب به فى الدنيا، وسمعنا الآيات التى كنّا ننكرها ونعرض عنها فى حياتنا الأولى، إننا اليوم موقنون أن ما جاء به محمد كان حقا وصدقا، ربنا أرجعنا إلى الدنيا لنعمل

صالحا غير الذى كنا نعمل .

ولكن هيهات هيهات لما يطلبون!! لقد أبصروا حين لا ينفعهم إبصار، وسمعوا حين لا ينفعهم سمع .

وقد أفاد هذا الاستفهام : ﴿أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد﴾ أفاد الإنكار والتكذيب والاستهزاء والاستبعاد والتعجب : فقد أنكروا أن يبعثوا خلقا جديدا من بعد موتهم فى الحياة الدنيا وكذبوا به، وهزئوا من ذلك، واستبعدوه من الإمكان، وعجبوا من أن يكون .

وقد مضى إعراب مثل هذا الاستفهام أكثر من مرة، ومع ذلك أُعيد وأكرّر وأقول : (إذا) شرطية فى محل نصب على الظرفية والعامل فيها شرطها وجملة الشرط (ضللنا فى الأرض) لا محل لها من الإعراب على الرأي الأرجح والأقوى، وجواب إذا محذوف قام مقامه ودلّ عليه أإنا لفى خلق جديد تقديره نخلق خلقا جديدا .

الآية التاسعة : فى قوله تعالى : **﴿فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم مَنْ خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب(١١) بل عجبت ويسخرون(١٢) وإذا ذكِّروا لا يذكرون(١٣) وإذا رأوا آية يستسخرون(١٤) وقالوا إنْ هذا إلا سحر مبين(١٥) أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون(١٦) أو آباؤنا الأولون(١٧) قل نعم وأنتم داخرون(١٨)﴾** .

الآيات (١١ ــ ١٨) من سورة الصافات .

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه محمد ﷺ : سل يامحمد هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث من بعد المهات، أخلقهم أشد وأشق أم خلق من عددنا من الملائكة والشياطين والسموات والأرض وما بينهما .

إنا خلقنا أباهم آدم من طين لزج، فكيف يستنكرون أن يخلقوا من تراب مثله، ولقد قدرنا على خلقهم بدءاً فمن السهل الهينّ أن نخلقهم مرة أخرى .

لقد عجبت يامحمد من إنكارهم البعث وهم يعلمون أن الله قد خلق ماهو أشد من خلقهم، وهم يسخرون من هذا البعث الذى تدعوهم إلى الإيمان به .

وإذا ذُكِّر هؤلاء المشركون حجج الله على صحة البعث لا يتعظون بتلك الحجج ولا ينتفعون، وإذا رأوا آية باهرة معجزة دالة على البعث قالوا هازئين ساخرين : ما هذا إلا سحر مبين، أنبعث إذا صرنا فى تراب الأرض عظاما وترابا؟! أويبعث أيضا آباؤنا الأولون الذين مضى عليهم فى باطن الأرض دهر طويل؟! إن هذا لشيىء عجاب هيهات هيهات أن يكون!! .

قل لهم يامحمد فى حزم وحسم وتقريع ودون جدل: نعم سوف تبعثون على رغم أنوفكم وأنوف آبائكم الأولين، سوف تبعثون جميعا وأنتم أذلة صاغرون!!.

أختى العزيزة:

لقد قرأ حمزة والكسائى(١٠) من القراء السبعة (بل عجبتُ ويسخرون) بضم تاء عجبتُ وقرأ باقى السبعة بفتح التاء. وقال الطبرى(١١) فى تفسيره لهذه الآية: «إنهما قراءتان مشهورتان فى قراء الأمصار فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب» اهـ.

وعلى قراءة حمزة والكسائى يكون التعجب مسندا إلى الله عزّ وجلّ ولكنه تعجب يليق بكماله وجلاله وليس كتعجب الآدميين، إذ (ليس كمثله شيء) والمعنى على قراءة ضم التاء ـ والله أعلم ـ: بل عجبتُ من أن ينكر المشركون قدرتى على البعث وهم يعلمون أننى قد خلقت ماهو أعظم وأشد من خلقهم.

هذا، وقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أوآباؤ نا الأولون﴾ جاء مفيدا الإنكار والتكذيب والاستهزاء والاستبعاد والتعجب، فقد أنكر أولئك المشركون بعثهم بعد موت، وكذّبوه، واستهزءوا به، واستبعدوا كل الاستبعاد أن يقع، وعجبوا أيّما عجب أن يكون.

وقد سبق أن أُعرب مثل هذا الاستفهام أكثرة من مرة، غير أن (آباؤُنا) الواردة فى هذا الاستفهام الواقعة بعد واو العطف المسبوقة بهمزة الاستفهام قد اختلف الرأي في إعرابها: فقال الزمخشرى(١٢) عند تفسيره لهذه الآية: «وآباؤ نا معطوف على محل إنَّ مع اسمها، أو على الضمير (المستتر) فى مبعوثون، والذي جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام». اهـ.

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين(١٣) عند تفسير هذه الآية مثل هذا الإعراب نقلا عن السمين.

غير أن الشيخ أبا حيان فى تفسيره البحر المحيط(١٤) ردّ هذين الوجهين من الإعراب: فقد ردّ الوجه الأول وهو العطف على محل إن مع اسمها بأنه على خلاف مذهب سيبويه، وردّ الوجه الثانى وهو العطف على الضمير المستتر فى مبعوثون بأن همزة الاستفهام لا تدخل إلا على الجمل، وهذا العطف يجعلها داخلة على مفرد. ووجه الإعراب عنده أن (آباؤ نا) مبتدأ خبره محذوف تقديره مبعوثون، ويدل عليه ما قبله.

الآية العاشرة: فى قوله تعالى: **﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون(٥٠) قال**

قائل منهم إنى كان لى قرين(٥١) يقول أإنك لمن المصدِّقين(٥٢) أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون(٥٣) قال هل أنتم مطّلعون(٥٤) فاطّلع فرآه فى سواء الجحيم(٥٥) قال تالله إنْ كدت لتردين(٥٦) ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين(٥٧)﴾.
الآيات (٥٠-٥٧) من سورة الصافات.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أنّ مما يتمتع به أصحاب الجنة فى الجنة أن يقبل بعضهم على بعض فيأخذوا بأطراف الأحاديث فيما بينهم، يتذكرون أحوال الدار الدنيا وما كان قد حدث لهم فيها، وكان من ذلك أن قال قائل منهم: إنى كان لى مصاحب فى الدنيا يقول لي منكراً هازئاً بى وبإيمانى بالبعث والحساب: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أحياء فمحاسبون على أعمالنا فمجازون عليها؟!.

ثم قال لأصحابه وجلسائه الذين كانوا يتساءلون فى الجنة: ألا تطلعون لنرى ماذا كان مصير ذلك القرين؟! فاطلعوا واطلع فرآه فى وسط الجحيم يقاسى العذاب الأليم، فقال له شامتا: تالله إنْ كدت لتهلكنى بإغوائك، ولولا نعمة ربى علّى بالهداية والإيمان لكنت مثلك من المحضَرين هذا العذاب الذى أنت فيه.

وقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون﴾ جاء مفيدا الاستهزاء والإنكار والتكذيب والتعجب والاستبعاد: كان قرين السوء بهذا الاستفهام يستهزىء بالبعث والحساب والجزاء، وبصاحبه الذى آمن بذلك كله، وأفاد هذا الاستفهام أيضا أن ذلك القرين قرين السوء كان منكرا للبعث والحساب والجزاء مكذّبا به، يعجب كل العجب أن يقع، ويستبعد كل الاستبعاد أن يكون.

الآية الحادية عشرة: فى قوله تعالى: **﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب(٢) أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد(٣) قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ(٤)﴾**. الآيات: (٢-٤) من سورة ق.

تتضمن هذه الآيات الكريمة عَجَبَ كفار قريش أنْ جاءهم محمد ﷺ رسولا منذرا يخوفهم بالبعث وما يعقب البعث من حساب وعقاب، وهو رجل منهم قد عرفوا صدقه وأمانته وإخلاصه فى النصح وحرصه على ماينفع الناس، هذا مع اعترافهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما وإقرارهم بخلقه تعالى إياهم أول مرة.

لقد كان عجبُ كفار قريش - وهذه حالهم وحال الرسول ﷺ بينهم - بعيدا عن مواطن العجب وما ينبغى أن يكون.

لقد كفروا حين أنكروا ما جاء به محمد ﷺ من بعث وحساب وعقاب، وكذّبوا به واستبعدوه وقالوا هذا شيء عجيب، أإذا متنا وكنّا ترابا أنبعث أحياء كما كنا؟! هذا رجع لا يمكن وهيهات هيهات أن يكون!!.

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى على استبعادهم هذا الرجعَ بأنه عالم بما تنقصه الأرض من أجسامهم وتأكله من لحومهم وتبليه من عظامهم، وعنده كتاب حافظ كل شيء لا يضل ولا ينسى، ومن كان عالما بذلك كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا.

وقد أفاد هذا الاستفهام: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ أفاد الإنكار والتكذيب والاستبعاد والتعجب، فقد أنكروا رجعهم أحياء من بعد أن يصيروا ترابا، وكذّبوا به، واستبعدوا وقوعه، وعجبوا أن يكون.

وجواب إذا الشرطية محذوف تقديره نبعث، وقد دلّ عليه(ذلك رجع بعيد).

الآية الثانية عشرة: فى قوله تعالى: **﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال(٤١) فى سموم وحميم(٤٢) وظل من يحموم(٤٣) لا بارد ولا كريم(٤٤) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(٤٥) وكانوا يصرون على الحنث العظيم(٤٦) وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون(٤٧) أو آباؤنا الأولون(٤٨) قل إن الأولين والآخرين(٤٩) لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم(٥٠) ثم إنكم أيها الضالون المكذبون(٥١) لآكلون من شجر من زقوم(٥٢) فمالئون منها البطون(٥٣) فشاربون عليه من الحميم(٥٤) فشاربون شرب الهيم(٥٥) هذا نزلهم يوم الدين(٥٦)﴾**.

الآيات: (٤١-٥٦) من سورة الواقعة.

تتضمن هذه الآيات الكريمة وصفا لما يلاقيه الكافرون أصحاب الشمال فى نار جهنم يوم القيامة من مصاب عظيم وعذاب أليم، فهم فيها فى سموم تهب عليهم ساخنة فتشوى الجلود، ويحسّون بظمأ شديد فيشربون ماء حميما يظنون به رِيًّا فيقطّع أمعاءهم، ويأوون إلى ظل لعلهم يجدون فيه بردا فإذا هو دخان أسود حار يهب عليهم من شفير جهنم لا بارد ولا كريم.

وتتضمن أيضا أن هذا العذاب كان جزاء بما كانوا عليه فى دارهم الدنيا، إنهم كانوا مترفين فأعماهم الترف أن يشكروا الله عزّ وجلّ على ما أنعم عليهم، فلم يقوموا بطاعاته، وجعلهم متكبرين عن أن يستجيبوا إلى مادعتهم إليه الرسل، فأبعدوا فى الضلال.

وكانوا أيضا يشركون بالله ويُصرّون على هذا الشرك، ويرفضون فى عناد أن يتوبوا إلى الله فيوحدوه وينبذوا الأنداد وعبادة الأنداد.

وكانوا أيضا ينكرون البعث والحساب ويوم القيامة ويقولون فى إنكار وسخرية مكذّبين مستبعدين فى عجب: أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون، ثم يتمادون فى السخرية والإنكار والاستبعاد قائلين: أو يبعث آباؤ نا الأولون الذين مضى عليهم دهر طويل فى باطن الأرض فأصبحوا ترابا فى تراب.

وقد أخبر الله جلّ وعلا فى هذه الآيات الكريمة رسوله محمدا ﷺ أن يقول لأصحاب الشمال هؤلاء إن العالم كله سيبعث ويحشر ويجمع يوم القيامة ويحاسب، وسوف تكونون أنتم وآباؤكم مع من يبعث ويجمع، ثم إنكم أيها الضالون طريق الهدى المكذبون بالبعث والحساب، إنكم أنتم وآباءكم ومن كان من أمثالكم سوف تصلون سعيرا، وسوف يكون نزلكم فيها شجرا خبيثا مرّ المذاق من زقوم، فتملأون منه بطونا طواها الجوع ولكنها لن تشبع ثم تشربون عليه من ماء حميم لعلكم ترتوون ولكنكم لا تنتهون.

وقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو آباؤ نا الألون﴾ جاء مفيدا الإنكار والتكذيب والسخرية والاستبعاد والتعجب: فقد أنكروا أن يبعثوا هم وآباؤ هم الأولون من بعد الممات، وكذبوا به أيّما تكذيب، وسخروا من هذا البعث وما بعد هذا البعث من حساب وعقاب، واستبعدوا أن يقع مثل هذا فى الوهم، وعجبوا كل العجب أن يكون.

الآية الثالثة عشرة: فى قوله تعالى: ﴿**والنازعات غرقا(١) والناشطات نشطا(٢) والسابحات سبحا(٣) فالسابقات سبقا(٤) فالمدبرات أمرا(٥) يوم ترجف الراجفة(٦) تتبعها الرادفة(٧) قلوب يومئذ واجفة(٨) أبصارها خاشعة(٩) يقولون أإنا لمردودن فى الحافرة(١٠) أإذا كنا عظاما نخرة(١١) قالوا تلك إذاً كرة خاسرة(١٢) فإنما هى زجرة واحدة(١٣) فإذا هم بالساهرة(١٤)**﴾. الآيات: (١-١٤) من سورة النازعات.

يقسم الله سبحانه وتعالى فى الآيات الخمس الأولى بطوائف مختلفة من الملائكة ذوات صفات مختلفة، وجواب هذا القسم قد اختلف فيه العلماء، والرأي - فيما يبدولى - ما ذهب إليه الفراء من أنه محذوف تقديره لتبعثن، وهذا الجواب المحذوف هو العامل فى ظرف الزمان فى (يوم ترجف الراجفة).

وتتضمن الآيات التى وردت بعد هذا القسم أن البعث سوف يكون فى يوم تقع فيه نفختان: النفخة الأولى (الراجفة) التى تميت كل شيء بإذن الله، ثم تتبعها النفخة الثانية (الرادفة) التى تحيى كل شيء بإذنه تعالى، وفى هذا اليوم تضطرب قلوب الكافرين أشد

الاضطـراب، ويصيبهـا من الخـوف والهلع أشدّ ما يكون عليه الخوف والهلع . وفى هذا اليوم تخشـع أبصـار الكافرين وتذل، وتغشاها الكآبة ويملأها الغم والهم والحزن والحسرة، وتنظر نظرات من يترقب نزول البلاء العظيم.

هؤلاء الكـافـرون الـذين تجف قلوبهم فى هذا اليوم وتخشع أبصارهم هم الذين كانوا يقـولـون فى الـدنيا منكرين مستهزئين مكذبين بهذا اليوم، مستبعدين وقوعه كل الاستبعاد، متعجبين من أن يكون: أإنا لمردودن إلى الحياة بعد موتنا فى الحافرة، أنردّ إليها ونحن عظام نخرة بالية أشد ما تكون بعدا عن الحياة؟! إن هذا لشيء عجاب!!.

وكـانـوا يقولون أيضا ساخرين هازئين: إن صحّت تلك الرجعة إلى الحياة بعد الموت فنحن الخاسرون حقا لأنّا كنا بها مكذبين.

وقـد ردّ الله سبحـانـه وتعالى عليهم بعد أن أقسم فى أول السورة أنهم سيبعثون أحياء يوم القيامة، ردّ سبحانه وتعالى عليهم بما يتضمن:

لا تحسبوا هذه الكرة صعبة تحتاج إلى معاناة وطول زمن، إنها سهلة هينة فى قدرة الله تعالى، فما هى إلا صيحة واحدة لا ثانية لها ولا ثالثة ولا تحتاج إلى شيء يصاحبها ويشدّ من أزرها، صيحة واحدة فقط، ثم فى أقل من لمح البصر يخرج هؤلاء المنكرون للبعث أحياء من فوق الأرض، تجف منهم القلوب وترتعد الفرائص وتغشى أبصارهم الذلة.

وقد جاء هذا الاستفهام: ﴿أإنا لمردودون فى الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة﴾ جاء مفيدا الإنكار والتكذيب والاستهزاء والاستبعاد والتعجب:

فقد أنكروا أن يردوا إلى الحياة بعد أن يصيروا فى قبورهم ترابا وعظاما نخرة، ينكرون ذلك الردّ ويكذبون به ويهزءون، ويستبعدون أن يقع فى وهم ويعجبون أن يكون.

أختى العزيزة: هــل:

فى ختام هذه الرسالة أحب أن أنبهك لأشياء:

١ ــ لعلك قد لحظت أن هذه الاستفهامات الثلاثة عشر التى جاءت فى هذه الرسالة وقـد دخلت فيهـا همزة الاستفهـام على إذا الشـرطيـة كانت ـ ماعدا الأول منها ـ محكية عن المشركين، وأنها قد أفادت أول ما أفادت إنكار هؤلاء المشركين للبعث، وتكذيبهم بقدرة الله عزّ وجلّ على إعادة خلقهم مرة ثانية بعد أن يموتوا ويصبحوا فى تراب الأرض ترابا.

٢ ــ ولعلك قد لحظت أيضا أن صيغ الاستفهام نفسها كانت متقاربة جدّا فى الألفاظ والتراكيب والأسلوب والمعنى، ولكنك إذا نظرت إلى السياق الذى سيقت فيه، وإلى المورد

الـذى أوردتـه وجدت أن كل استفهام كان جديدا بما يصحبه من آيات تتضمن الدليل على قدرة الله تعـالى ، وآيـات تتضمن العقـاب الـذى سوف يلاقيـه هؤلاء المنكرون ، ومن قسم يقسمه الله عزّ وجلّ على تقرير البعث وتأكيد وقوعه .

٣ ــ ولما كان إثبات البعث من المقاصد الأولى للقرآن الكريم ، وكان منكروه كثيرين على تعـاقب الأجيـال والقرون ، لما كان ذلك كذلك جاء ذكره فى القرآن الكريم كثيرا ليقرر صحته ويقيم الدليل عليه ، وليكفّر من لم يؤمن به ، ولينذرهم عذابا أليما .

٤ ــ كثـيرا ما ينهـج الأسلوب القـرآنى منهـج التصـوير الحسّى فى التعبير عن المعانى ليعطيهـا دقـة وعمقـا وشمـولا وقوة دلالة ورسوخا فى النفس أكثر مما تعطيه الألفاظ والكلمات ذوات الدلالات المباشرة .

ومما جاء فى آيات هذه الرسالة من هذا الأسلوب هذه الصورة الحسية التى يكون عليها المكذبون بالبعث يوم القيامة : ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ .

لقـد كانت هذه الأغـلال التى فى الأعناق أفصح وأقوى دلالة وأبعد تأثيرا فى النفوس من تلك الكلمات التي تدل دلالة مباشرة من مثل أذلّاء أو محتقرون .

ثم انظـرى إلى صورة حسّيـة ثانيـة يكـون عليها المكذبون بالبعث : ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكمًا وصمّا﴾ .

هذه الصورة الحسية التي يحشرون عليها تجعل ما كانوا فيه من الويل والعذاب والخوف والـرعب والحـيرة والذهول والقلق ، تجعله (مُجسّماً) تراه العينان فترتعد له الفرائص وتجف له القلوب ويذهب فى أعماق النفس يغالب النسيان دهرا طويلا .

وإن هذه الصورة الحسية لتذهب بالخيال كل مذهب فى تصور شقاء هؤلاء المجرمين المسحـوبـين على وجـوههم وقـد سلبت منهم كل حاسـة يمكن أن تخفف عنهم ماهم فيـه ، وأُبقيت لهم الحاسّة التى تُحسِن تذوّق العذاب وتَحسِّي الألم .

ثم تعـالىْ إلى صورة ثالثـة ورابعـة يحشر عليهما المكذبون المنكرون للبعث : (فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) أين أنت أيتها الألفاظ التى تسطيعين أن تعـبرى عما تعـبر عنـه هذه الصـورة المفـزعة المروّعة صورة الحشر مع الشياطين ، إن هذه الصـورة لتنقـل السـامـع إلى عالم غير محدود من الخـوف والـرعب والفـزع يعجز عن وصفه اللفظ ، وتقصر دون بلوغه العبارة .

وانظــرى إلى هذه الصــورة الــرابعــة : ﴿ثم لنحضـرنهم حول جهنم جثيـا﴾ هذا

الحضور ـ وهم جاثون على ركبهم وأمام أعينهم نار جهنم تتلظى ـ صورة يتجلى فيها الذل والهوان والاحتقار والصغار والخوف والرعب والفزع، صورة تظل قائمة نُصب الأعين لا تغيب، راسخة فى الأذهان لا تمّحى، وهيهات هيهات أن تغنى غَناءها الألفاظ، أو أن تسدّ مسدّها العبارة.

أختى العزيزة:

البلاغة القرآنية لا تفنى ولا تنفد، ولا تنتهى عند حد، ولكن رسائلى إليك لها نهايات تنتهي إليها، وقد آن لهذه الرسالة أن تنتهى.

أسأل الله تعالى أن يعين على رسالة قادمة أحدثك فيها عن همزة الاستفهام الداخلة على «لو» الشرطية، وعلى «كلّما» و«لمّا» الشرطيتين، وأسأله تعالى أيضا أن يوفقنى إلى ما فيه الخير والنفع والسداد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

أختك
همزة الاستفهام

مراجع هذه الرسالة الرابعة عشرة

أ ــ المراجع على وجه الاجمال:

١ ــ تفسير أبى جعفر بن جرير الطبرى ـ الطبعة الثالثة ـ الناشر: شركة الحلبى بمصر.

٢ ــ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى: الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ الرياض.

٣ ــ تفسير أبى السعود: الناشر: مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد ـ القاهرة.

٤ ــ الفتوحات الإلهية المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين ـ الناشر: الحلبى بمصر.

٥ ــ تفسير الفخر الرازى: الناشر: دار الكتب العلمية ـ طهران ـ الطبعة الثانية.
٦ ــ تفسير القرطبى: الطبعة الثالثة المصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.
٧ ــ تفسير ابن كثير: الناشر: الحلبى بمصر.
٨ ــ الكشاف للزمخشرى: الناشر: الحلبى بمصر.
٩ ــ مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى: تحقيق الدكتور مازن المبارك وزميله الناشر: دار الفكر.
١٠ ــ شرح الرضي على كافية ابن الحاجب فى النحو/ الناشر: دار الكتب العلمية / بيروت.

ب ــ المراجع التي أشير إليها بالأرقام المسلسلة:

١ ــ البحر المحيط جـ٥ ص١٦٧ ـ تفسير أبى السعود جـ٤ ص١٥٣ ـ الفتوحات الإلهية جـ٢ ص٣٥٥.
٢ ــ مغنى اللبيب لابن هشام جـ١ ص١٠٠.
٣ ــ شرح الرضى على كافية ابن الحاجب جـ٢ ص١١٠.
٤ ــ البحر المحيط جـ٥ ص٣٦٥ ـ تفسير أبى السعود جـ٥ ص٦ الكشاف للزمخشرى جـ٢ ص٣٤٩.
٥ ــ البحر المحيط جـ٥ ص ٣٦٦.
٦ ــ الفتوحات الإلهية جـ٢ ص٤٩١.
٧ ــ البحر المحيط جـ٦ ص٤٤.
٨ ــ الفتوحات الإلهية جـ٢ ص٦٢٩.
٩ ــ البحر المحيط جـ٦ ص٤٤ ــ تفسير أبى السعود جـ٥ ص١٧٧ ـ تفسير البيضاوى جـ١ ص٥٨٧.
١٠ ــ البحر المحيط جـ٧ ص٣٥٤ ـ الفتوحات الإلهية جـ٣ ص٥٣٢.
١١ ــ الطبرى جـ٢٣ ص٤٣.
١٢ ــ الكشاف للزمخشرى جـ٣ ص٣٣٧.
١٣ ــ الفتوحات الإلهية جـ٣ ص٥٣٣.
١٤ ــ البحر المحيط جـ٧ ص٣٥٥.

ألفية ابن مالك
منهجها وشروحها

(١)

للأستاذ الدكتور غريب عبد المجيد نافع
أستاذ اللغويات بالدراسات العليا بالجامعة

فى مدينة جَيّان بالأندلس، ولد الإمام العلامة أبو عبد الله جمال الدين، محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله الطائى سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة من الهجرة (٥٩٨هـ)، ، وفيها تلقى جانبا من دراسته الأولية، ثم هجرها فى شبابه المبكر إلى بلاد الشام، ، وفى طريقه إليها عرَّج على مصر، فأقام بها مدة تحوَّل خلالها من مذهب الإمام مالك إلى مذهب الإمام الشافعى.

ثم ارتحل إلى الأراضى المقدسة؛ رغبةً فى الحج، ومنها واصل المسيرة إلى دمشق، وحضر فيها دروساً على بعض علمائها، ثم انتقل إلى حلب، فأطال بها المقام، باحثا، ومدرسا. ومن حلب رحل إلى حَماة، ومنها إلى دمشق، ، وفى دمشق ألقى عصا التَّسيار، بعد أن لمع نجمه، وارتفع قدره؛ فتصدر للتدريس فيها صابراً على متابعة البحث، محتسباً أجره عند الله، حتى وافاه الأجل المحتوم يوم الأربعاء الثانى عشر من شعبان عام اثنين وسبعين وستمائة للهجرة (٦٧٢هـ).

وقد جمع الله لابن مالك من الأسباب ما يؤهله لأن يكون واحد عصره، وقدوةً لمن جاء بعده، فهيأ له البيئة التى تموج بالعلم، وتدفع إليه دفعا، كما منحه العقل المفكر، والذهن المتفتق، والحافظة الواعية، والرغبة المتدفقة فى البحث والتقصى.

وكان لكثرة اطلاعه على أشعار القدامى، وسرعة حفظه لما يقع عليه بصره، أو يلتقطه سمعه - أثرٌ واضح فى تأجيج الملكة الشعرية؛ فقد كان نظمُ الشعر عليه سهلاً حتى عالجه فى أدق مسالكه، وهو نظم العلوم والفنون.

ولابن مالك فى المكتبة العربية مؤلفات كثيرة متنوعة، ولكن أبرزها وأشهرها

«الخلاصة» المعروفة بـ «الألفية»؛ فقد سارت بذكرها الركبان، وتبارى العلماء على مرّ العصور فى شرحها، أو اختصارها، أو محاكاتها، أو نقدها(١).

و«**الألفية**» : منظومة علمية تعليمية، اختصرها من منظومته الكبرى «الكافية الشافية»، وجعلها فى أرجوزة لطيفة، جمعت خلاصة النحو، وأغلب مباحث الصرف، فى إيجاز محكم، مع الإشارة أحياناً إلى مذاهب العلماء، وبيان ما يختاره من آراء .

ألا ترى إلى قوله فى بيان حركة نون المثنى، وما جُمِعَ على حَدِّه :

ونُونَ مَجْمُوعٍ وَمَا بِهِ ٱلْتَحَقْ ... فَٱفْتَحْ وَقَلَّ مَنْ بِكَسْرِهِ نَطَقْ
ونُونُ مَا ثُنِّيَ وٱلْمُلْحَقِ بِهْ ... بِعَكْسِ ذَاكَ ٱسْتَعْمَلُوهُ فَٱنْتَبِهْ(٢)

أو إلى قوله فى أحوال انفصال الضمير واتصاله :

وفي اخْتِيَارٍ لاَ يَجِيءُ ٱلْمُنْفَصِلْ ... إذَا تَأَتَّى أنْ يَجِيءَ ٱلْمُتَّصِلْ
وَصِلْ أو افْصِلْ هَاءَ « سَلْنِيه » وَمَا ... أشْبَهَهُ في « كُنْتُهُ » الْخُلْفُ انْتَمَى
كَذَاكَ خِلْتَنِيهِ وَاتِّصَالاَ ... أخْتَارُ غَيْرِي اخْتَارَ الانْفِصَالاَ(٣)

أو إلى قوله فى حكم « أنِ » المخففة :

وَإنْ تُخَفَّفْ « أنَّ » فاسْمُهَا اسْتَكَنّ ... وَالْخَبَرَ اجْعَلْ جُمْلَةً مِنْ بَعْدِ « أنْ »
وَإنْ يَكُنْ فِعْلاً وَلَمْ يَكُنْ دُعَا ... وَلَمْ يَكُنْ تَصْرِيفُهُ مُمْتَنِعَا
فَالأحْسَنُ ٱلْفَصْلُ بِـ «قَدْ» أوْ نَفْيٍ اوْ ... تَنْفِيسٍ اوْ « لَوْ » وَقَلِيلٌ ذِكْرُ « لَوْ »(٤)

---

(١) نفح الطيب جـ٢ ص ٢٢٢ ـ ٢٣٣، والأعلام جـ٦ ص٢٣٣، ومعجم المؤلفين جـ١ ص٢٣٤، وطبقات الشافعية للإسنوى جـ١ ص١٦٦، وجـ٢ ص١٦٥، وتاريخ الإسلام للذهبى، الجزء الأخير، وحدائق الأنام لابن عبدالرازق الدمشقى ص٢٠٤ـ ٢٠٥، ودائرة المعارف الإسلاميه جـ١ ص٢٧٢، ٢٧٤، وهدية العارفين جـ٦ ص١٣٠، والخضرى على ابن عقيل جـ١ ص ٧، وابن حمدون على المكودى جـ١ ص٩ ـ١٠ والصبان على الأشمونى جـ١ ص٧ ـ٨، ومقدمة الألفية ص ٥ـ١٣، طبعة مكتبة طيبة بالمدينة المنورة، وفهرس المؤلفين بالظاهرية، والوافى جـ٣ ص٣٥٩، والفوات جـ٢ ص٤٥٢، وغاية النهاية جـ٢ ص١٨٠، وبغية الوعاة ص٥٣.

(٢) الألفية ص ٢٢ .

(٣) الألفية ص ٢٦ .

(٤) الألفية ص ٣٦ .

وقد اشْتَهرت «الخلاصة» بين الناس باسم «الألفية» ؛ لأن عددها ألفُ بيت من الرجز التام .

وتسمية **«الألفية»** : مأخوذة من قوله فى أولهـا :

وأسْتَعِينُ اللهَ في ألْفِيَّهْ مَقَاصِدُ النَّحْوِ بِهَا مَحْوِيَّهْ[1]

وتسمية **«الخلاصة»** : مأخوذة من قوله فى آخرهـا :

أحْصَى مِنَ الْكَافِيَةِ الْخُلاَصَهْ كَمَا اقْتَضَى غِنىً بِلاَ خَصَاصَهْ[2]

و«الألفية» تسير وفْق منهج تربوى، تسعى فيه الأحكام الإفرادية أمام الأحكام التركيبية، وتتصدر الجملة الاسمية فيه الجملة الفعلية، مع تقديم المرفوعات على المنصوبات، والمنصوبات على المجرورات .

فقد تناول ابن مالك فى المقدمة الكلام وما يتألف منه، وأتبعه بالمعرب والمبنى، والنكرة والمعرفة، ثم تكلم عن المبتدأ والخبر، والنواسخ، متمما الحديث عن المرفوعات بالحديث عن الفاعل ونائبه .

ولما كان «اشتغال العامل عن المعمول» جامعاً للمرفوعات والمنصوبات، وجوباً، أو رجحاناً، أو تسويةً ـ أتى به بين نائب الفاعل والمفعول به، إلا أنه ترجم المفعول به فى باب «تعدى الفعل ولزومه»، وأردفه بالحديث عن «التنازع فى العمل» ؛ لأنه مرتبط بالمفعول به ارتباطا وثيقاً، ، ثم تحدث عن بقية المفاعيل ؛ فذكر «المفعول المطلق، والمفعول لأجله، والمفعول فيه، ، والمفعول معه»، وختم الحديث عن الفضلات بما يشبهها ؛ فذكر «الاستثناء، والحال، والتمييز» .

ولما فرغ من المنصوبات تناول المجروراتِ بشىء من التفصيل ؛ فبدأ بحروف الجر، وأنواعها ومعانيها، وأحكامها، وثنى بالإضافة، مبينا أنواعها، وأحوالها، وأحكامها، مفرداً «المضاف إلى ياء المتكلم» بفصل خاص ؛ لاختلاف أحكامه باختلاف أنواعه .

ولأدنى ملابسة، يتحدث ابن مالك عن «إعمال المصدر، واسم الفاعل» بعد حديثه عن الإضافة، ثم يُتْبعها بالحديث عن «أبنية المصادر، وأسماء الفاعلين والمفعولين»، مجملا القول فى صياغة «الصفة المشبهة باسم الفاعل» وعملها .

---

(١) الألفيـة ص ١٩ .

(٢) الألفيـة ص ١١١ .

وقبل أن يتحدث الناظم عن التوابع، يتحدث عن «التعجب، وأفعال المدح والذم، واسم التفضيل»، ثم يتناول النداء الحقيقى والمجازى، وأحكامهما فى دقة تامة، وإحكام عجيب.

والاختصاص يشبه النداء فى نصبه وبنائه على الضم، وفى الارتباط بالحاضر مع إفادة التوكيد؛ ومن ثمة يذكره بعد آخر مبحث من مباحث المنادى، وهو الترخيم، ثم يتحدث عن التحذير والإغراء؛ للشبه بينهما وبين الاختصاص فى إضمار العامل.

ولم يكتف ابن مالك بما أجمله فى المقدمات من الحديث عن «اسم الفعل، ونون التوكيد، والممنوع من الصرف، والفعل المعرب»؛ بل عاد، فعقد لما أجمله أولاً أبواباً مستقلة، فصّل فيها القول إلى حدٍّ ما، فتكلم عن «أسماء الأفعال» وما يشبهها من «أسماء الأصوات»، ثم تناول «مالا ينصرف» بشىء من التفصيل، وأسهب القول فى أحوال الفعل المضارع، فتناوله فى بابى «إعراب الفعل، وعوامل الجزم»، متمما الحديث عن أدوات الشرط بعقده فَصْلاً عن «لو» وآخر عن «أمّا، ولولا، ولوما».

وقبل أن ينتهى ابن مالك من الأحكام النحويّة، يضع نظاماً للتطبيق عليها؛ فيعقد باباً فى «الإخبار بالذى والألف واللام»، ثم يختتم حديثه عن النحو بـ «العدد، وكناياته»، مشيراً فى النهاية إلى «الحكاية» بـ «أىٍّ، ومَن» الاستفهاميتين.

وأما «الصرف» فقد أغفل قدراً كبيراً من «تصريف الأفعال»، فضلاً عن التقاء الساكنين وتخفيف الهمزة؛ فلم يتحدث عن «الجامد والمتصرف»، ولا عن «الصحيح والمعتل»، ولا عن «إسناد الأفعال إلى الضمائر»؛ اعتماداً على منظومته «لاميّة الأفعال».

ولنجاح ابن مالك فى منهجه بحرصه على تيسير العربية، لغة القرآن، أقبل العلماء والمتعلمون على ألفيته - من بين كتبه بنوع خاص - إقبالاً منقطع النظير، وعكف عليها المتخصصون فى جميع الأزمان والأمصار، يدرسونها، ويعلقون عليها نظماً أو نثراً بالعربية وبغيرها، حتى طُويت مصنّفات من قبله من أئمة النحو، ولم ينتفع من جاء بعده بمحاكاته، أو الانتقاص منه. ولو لم يشر فى ألفيته إلى ألفية الإمام العلاّمة زين الدين يحيى بن عبد النور الزواوى الجزائرى المعروف بـ «ابن معطى» المتوفى سنة **٦٢٧هـ** لما ذكره الناسُ، ولا عرفوه[1].

---

(١) مقدمة تحقيق شرح ابن عقيل للشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد، جـ١ ص٥ - ٦.

فابن معطى، لم ينتفع فى منظومته «الدُّرّة الألفية فى علم العربية» بسبقه الزمنى، ولا بتقدمه المنهجى، على الرغم من إقرار ابن مالك بفضله، واعترافه بعلمه.

وأبو حيان النحوى، المتوفى سنة ٧٤٥هـ، لم ينتفع بمنظومته «نهاية الإعراب فى علمى التصريف والإعراب» على الرغم من حملته الضارية على ابن مالك، وألفيته[1].

وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ، لم ينتفع بقوله فى مطلع ألفيته:

أقول بعد الحمد والسلام ... على النبيِّ أفصح الأنامِ
النَّحْو خَيْرُ ما به المرء عُنِى ... إذْ ليس علمٌ عنه حقًّا يَغْتنى
وهذه ألفيةٌ فيها حَوَتْ ... أصولَه، ونفعَ طُلَّاب نَوَتْ
فائقةً ألفيّة ابْنِ مالِك ... لكونها واضحة المسالك
وجَمْعِها من الأصول ما خلتْ ... عنه، وضَبْطِ مُرسَلات أهملتْ
ترتيبُها لم يَحْو غيرى صُنْعَهْ ... مقدماتٌ، ثم كُتْبٌ سَبْعَهْ
وأسأل الله وفاء الملتَزمْ ... فيها مع النفع، وحُسْنَ المختتمْ[2]

ولم يكتف العلماء بقراءة الألفية، أو التعليق عليها؛ وإنما نظروا فى بعض الأمهات المخالفة لمنهجها، فأعادوا ترتيبها على نظامها، كما فعل الشيخ أحمد بن عبد الفتاح الملوى المتوفى سنة ١١٨١هـ فى كتابه «الأنوار البهيّة، فى ترتيب الرضى على الألفية»[3].

ولجأ بعض المحققين فى العصر الحاضر، إلى وضع فهارس لكتب القوم على نظام الألفية؛ تيسيراً لفهمها، كما فعل الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عُضيمة، المتوفى سنة ١٤٠٤هـ فى تحقيقه لكتاب «المقتضب» الذى ألفه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المتوفى سنة ٢٨٥هـ، ونشره فى أربعة أجزاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر سنة ١٣٨٨هـ؛ فقد رتب الشيخ عضيمة فهرس الموضوعات ترتيب ابن مالك فى الألفية؛ لشهرته، وأخرجه فى ٢٢٥ صفحة من القطع الكبير، وألحقه بالجزء الرابع.

وزاد من أهمية الألفية فى ميدان الدراسات اللغوية ـ إحكام صياغتها، وخِفة لفظها، ودقة أفكارها، وسرعة جوابها، وسداد منهجها، فضلاً عن إخلاص صاحبها؛ ألا ترى إلى

---

(١) نفح الطيب للمقرى، جـ ٢ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

(٢) المطالع السعيدة فى شرح الدرة الفريدة للسيوطى، بتحقيق الدكتور نبهان ياسين حسين، جـ١ ص٣٥-٣٦. وص٧٩ـ ٨١.

(٣) المكتبة الأزهرية بالقاهرة، وبها نسخة فى ٦٣٤ ورقة.

قوله فى بيان مجىء الحال من المضاف إليه :

وَلَا تُجزْ حَالاً مِن ٱلْمُضَافِ لَهْ ... إلّا إذَا ٱقْتَضَى ٱلْمُضَافُ عَمَلَهْ
أَوْ كَانَ جُزْءَ مَالَهُ أضِيفَا ... أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلاَ تَحِيفَا[1]

أو إلى قوله فى كيفية العطف على ضمير الرفع المتصل :

وَإن عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ ... عَطَفْتَ، فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ ٱلْمُنْفَصِلْ
أو فَاصِلٍ مَّا، وَبِلاَ فَصْلٍ يَرِدْ ... في ٱلنَّظْمِ فَاشِياً وَضَعْفَهُ ٱعْتَقِدْ[2]

أو إلى قوله فى تذكير العدد وتأنيثه، مع بيان تمييزه :

ثَلاَثَةً بِالتَّاء قُلْ لِلْعَشَرَهْ ... في عَدِّ مَا آحَادُهُ مُذَكَّرَهْ
في الضِّدِّ جَرِّدْ وَالْمُمَيِّزَ اجْرُرِ ... جَمْعاً بِلَفْظِ قِلَّةٍ في الأكْثَرِ
وَمِائَةً وَٱلألْفَ لِلْفَرْدِ أضِفْ ... وَمِائَةٌ بِالْجَمْعِ نَزْراً قَدْ رُدِفْ[3]

أو إلى قوله فى ضبط أوزان ألف التأنيث المقصورة والممدودة :

وَأَلِفُ ٱلتَّأنِيثِ ذَاتُ قَصْرِ ... وَذَاتُ مَدٍّ نَحْوُ أنْثَى ٱلْغُرِّ
وَالِاشْتِهَارُ في مَبَاني الأولَى ... يُبْدِيهِ وَزْنُ « أرَبَى وَٱلطُّولَى »
وَ« مَرَطَى » وَوَزْنُ « فَعْلَى » جَمْعا ... أوْ مَصْدَراً أوْ صِفَةً كَـ « شَبْعَى »
وَكَـ « حُبَارَى سُمَّهَى سِبَطْرَى ... ذِكْرَى وَحِثِّيثَى مَعَ ٱلْكُفُرَّى »
كَذَاكَ « خُلَّيْطَى مَعَ ٱلشُّقَّارَى » ... وَٱعْزُ لِغَيْرِ هٰذِهِ ٱسْتِنْدَارَاً
لِمَدِّهَا « فَعْلاَءُ أفْعِلاَءُ ... مُثَلَّثَ ٱلْعَيْنِ وَفَعْلَلاَءُ »
ثُمَّ « فِعَالاَ فُعْلُلاَ فَاعُولاَ ... وَفَاعِلاَءُ فِعْلِيَا مَفْعُولاَ »

---

(١) الألفية ص ٥٠ .
(٢) الألفية ص ٧٠ .
(٣) الآلفية ص ٨٦ ـ٨٧.

وَمُطْلَقَ ٱلْعينِ « فَعَالا » وَكَذَا مُطْلَقَ فَاءِ « فَعَلاَءُ » أُخِذَا[1]

وذاعت شهرة الألفية فى الأوساط العلمية الدولية ؛ فنشرها بالعربية ، ومعها ترجمة بالفرنسية المستشرق الفرنسى البارون أنطوان إيزاك سلفستر دى ساسى ، المتوفى سنة ١٢٥٣هـ (١٨٣٨م)، وطبعت فى باريس سنة ١٨٣٤م، وفى القسطنطينية سنة ١٨٨٧م[2].

ونُشرت موسوعة بـ «الخلاصة» فى النحو، ومعها شروح وتعليقات باللغة الفرنسية للمستشرق الفرنسى جوجويه (Goguyet, A). وطبعت بالمطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٨م فى ٣٥٣ صفحة[3].

وترجمها إلى الألمانية ، مع نشرها بالعربية المستشرق الألمانى فردريخ ديتريشى (Friedrich. Dietrici) المتوفى سنة ١٩٠٣م ، وطبعت فى برلين سنة ١٨٥٢م[4].

ونشرها بالعربية مع ترجمة بالإيطالية المستشرق الإيطالى فيتو (Vitt, Enrico) قنصل إيطاليا فى بيروت سابقا والمتوفى سنة ١٩٠٤م، وطبعت فى بيروت سنة ١٨٩٨م[5].

وإلى العدد القادم مع الحلقة الثانية ان شاء الله تعالى

(١) الألفية ص ٩٠ .

(٢) المستشرقون للأستاذ نجيب العقيقى ، جـ١ ص١٨٢ ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م ـ الطبعة الثالثة . ومعجم المطبوعات العربية حتى ١٣٣٩هـ (١٩١٩م) للأستاذ يوسف إليان سركيس ، مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) ص ٢٣٤ .

(٣) المستشرقون جـ١ ص٢٠٢ . ومعجم المطبوعات ص ٢٣٤ وص ٩٠٣ .

(٤) الأعلام للزركلى جـ ٢ ص ١٤٥ ، ومعجم المطبوعات ص ٨٩٧ ، والمستشرقون جـ٢ ص٧١٦ .

(٥) المستشرقون جـ٢ ص٧١٦ ، ومعجم المطبوعات ص٢٣٤ .